

موسوعة الحضارة الإسلامية

٩

العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي

عرض للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين في مجالات السلم والحرب

في المجال السياسي (الدبلوماسية) والاقتصادي
والاجتماعي والثقافي والعسكري

تأليف

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه من جامعة كمبردج (إنجلترا)
أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الخامسة (١٩٨٧)



مكتبة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأحمد حسن محمد وأولاده
٩ شارع سيد باشا بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨

الطبعة الثانية سنة ١٩٧٤

الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٨

الطبعة الرابعة سنة ١٩٨٢

الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٧

كتب للمؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الاسلامى

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاسلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى اسهم بها المسلمون في ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى :

١ - الجزء الاول : (الطبعة الثانية عشرة)

- مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامى - تفسير التاريخ - هلال
التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ - فائدة التاريخ - مراحل
تكوين التاريخ - قضية الالتزام في كتابة التاريخ الاسلامى
- علم التاريخ بين المسيحية والاسلام
- تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر - حياة العرب السياسية
والاقتصادية والاجتماعية .

- السيرة النبوية العظيمة : جوانب من السيرة تدون لأول مرة
- الدعوة الاسلامية وفلسفتها - عصر الخلفاء الراشدين

٢ - الجزء الثانى : (الطبعة الثامنة)

الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية في عهدها .
انصاف تاريخ الامويين وابرار جهودهم السياسية والحضارية .

٣ - الجزء الثالث : (الطبعة الثامنة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الاول ، ويدون
المسلمين خلاله في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ - الجزء الرابع : (الطبعة الثامنة)

- الاندلس الاسلامية ، وانتقال الحضارة الاسلامية الى اوربا عن
طريقها
- المغرب - الجزائر - تونس - ليبيا ٢ من مطلع الاسلام حتى
المهد الحاضر) .
- السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ - الجزء الخامس : (الطبعة الثامنة)

- مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى المهد الحاضر .
(تدوين جديد لتاريخ مصر - دورها الحضارى - اهم آثارها) .
- الحروب الصليبية : دوافعها - ادوارها - نتائجها
- الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

٦ - الجزء السادس : (الطبعة الخامسة)

الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء أفريقية منذ دخلها الإسلام حتى الآن :

- دراسة من وسائل انتشار الإسلام :
- مراكز الشمال - هجرات عربية وغير عربية - التجار - الطرق الصوفية - مراكز داخلية .
- الدول الإسلامية قبل الاستعمار الأوربي :
- فاندة - مالي - صنفى - دول الهوسا - برنو - باجى - واداي - الفونج - مقدشو - ملكة الزنج .
- الدول الإسلامية الحالية :
- موريتانيا - السنغال - جامبيا - غينيا - مالي - النيجر - نيجيريا - تشاد - السودان - الصومال - جيبوتي .

٧ - الجزء السابع : (الطبعة الرابعة)

الإسلام والدول الإسلامية بالجزيرة العربية والعراق :

- دول الجزيرة العربية من مطلع الإسلام حتى الآن :
- الملكة العربية السعودية - اليمن - جمهوريه اليمن الجنوبية - عمان - دولة الامارات العربية - قطر - البحرين - الكويت .
- العراق من مطلع الإسلام حتى الآن .

٨ - الجزء الثامن : (الطبعة الثالثة)

الإسلام والدول الإسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الإسلام حتى الآن :

- ايران - افغانستان - الباكستان - بنجلاديش - ماليزيا - اندونيسيا
- الاقليات الإسلامية في الهند والصين وروسيا والفيليبين ..

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ - الجزء التاسع : (الطبعة الثالثة)

ثورة يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب - عصر جمال عبد الناصر (عصر الظلم والهوان) .

١٠ - الجزء العاشر :

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر أنور السادات .
(ترجمت أكثر أجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

(م ١ - العلاقات الدولية)

كتب المؤلف

ثانيا : موسوعة الحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الاسلام لهداية البشرية في شئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصاد ، وفي مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والعسكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين في الحضارة التجريبية ، وإجزاؤها هي :

١١ - الجزء الأول : المفاهيم الاسلامية (الطبعة الخامسة)

اصولها الصحيحة - انحرافاتاها - وجوب تصحيحها .

١٢ - الجزء الثاني : (الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره) مآثر المسلمين في مجال الدراسات العلمية والفلسفية (الطبعة السابعة)

١٣ - الجزء الثالث : السياسة (الطبعة السابعة)

في الفكر الاسلامي

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة (٥)

١٤ - الجزء الرابع : الاقتصاد (الطبعة السابعة)

في الفكر الاسلامي

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة ، ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

- ١ - الاسلام والمسلمون في مواجهة المشكلة الاقتصادية .
- ٢ - مبادئ الاسلام الاقتصادية .
- ٣ - الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (شهادات الاستثمار ...) .
- ٤ - من تاريخ الاقتصاد في الاسلام (بيت المال : موارده ومصارفه ...) .
- ٥ - النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور واثر الفكر الاسلامي فيها .

١٥ — الجزء الخامس : التربية الإسلامية (الطبعة الثامنة)

نظمها — تاريخها — فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولما هيج
التعليم وامكانته ، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والاجازات
العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ،
ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب
مواهبهم ..

١٦ — الجزء السادس : المجتمع الإسلامي (الطبعة السابعة)

أسس تكوينه .. أسباب ضعفه .. وسائل نهضته

ابتداء من الطبعة السابعة : رؤية جديدة — تخطيط جديد — أداء جديد .

١٧ — الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الخامسة)

في الفكر الإسلامي

— في نطاق الأسرة : كالفتان وتحديد النسل وعمل المرأة ...

— وفي نطاق المجتمع : كالافراح والمآتم والموسيقى والفناء ...

١٨ — الجزء الثامن : تاريخ التشريع الإسلامي (الطبعة الرابعة)

وتاريخ النظم القضائية في الاسلام

مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الاول للتشريع

ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

العلاقات الدولية

١٩ — الجزء التاسع : في الفكر الإسلامي (الطبعة الخامسة)

دراسات علمية توضح النهج الإسلامي في تنظيم العلاقات بين الدول
الإسلامية والدول غير الإسلامية في المجالات السياسية والاقتصادية
والاجتماعية والثقافية والعسكرية .

٢٠ — الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الرابعة)

تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية

كتب للمؤلف

ثالثا : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان ، تعتمد على أدق المراجع
بمختلف اللغات ، ويمتاز دراستها بالحيدة والعمق ، وتشمل :

٢١ - الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة التاسعة)

— دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهود في التاريخ من عهد
ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، انبياء بنى اسرائيل ، عقيدة بنى اسرائيل ،
يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد في الفكر اليهودي ، التابوت
والهيكل ، الكهنة والقرايين ...

— مصادر الفكر اليهودي : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء
صهيون .

— اليهود في الظلام : الماسونية ، والروتاري ، الاغتيال ، التجسس ،
البابية والبهائية .

— من صور التشريع في اليهودية .

٢٢ - الجزء الثاني : المسيحية : (الطبعة التاسعة)

— المسيح والمسيحية في نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .
— بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن
خطيئة البشر .

— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، الجامع ،
بطبيعة المسيح والآراء فيها . المؤلف المسيحي ، أثره وأدبه ،
خرابة ظهور المذرام في كنيسة الزيتون ، حركة الإصلاح الديني ونتائجها
ونقدها .

٢٣ - الجزء الثالث : الاسلام : (الطبعة التاسعة)

— الله في التفكير الاسلامي ، النبوة في التفكير الاسلامي ، غير المسلمين
في المجتمع الاسلامي ، الدين المعاملة ، المرأة في الاسلام ، الرق وموقف
الاسلام منه ، السياسة والاقتصاد في الاسلام . آراء المفكرين
الغربيين في الاسلام ورسول الاسلام .

٢٤ - الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى : (الطبعة التاسعة)

« الهندوسية — الجينية — البوذية »
— تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات في الهند ، الأديان
في الهند .

— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الوريدا : مهابهارتا : يوجاواسستها :
كيتسا .

— أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانتقال والنرمافا ، وحدة
الوجود .

— تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ وأصعبها .

كتب للمؤلف

رابعاً : كتب في الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

- ٢٥ — كيف تكتب بحثاً أو رسالة
دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه
(الطبعة الثامنة عشرة — مع ثلاثة ملاحق مهمة)
- ٢٦ — الحروب الصليبية : بنؤها مع مطلع الاسلام ، واستمرارها حتى الآن
عرض للهجمات الصليبية الغربية عسكرية وفكرية على العالم
الاسلامى عبر العصور .

كتابان باللغة الانجليزية هما :

- ٢٧ — ISLAM : Belief - Legislation - Morals •
٢٨ — History of Muslim Education

وكتب باللغة الاندونيسية والماليزية :

Pustaka Nasional (Singapore)	Nezarah dan Pemerintahan Dalam Islam	— ٢٩
	Masyarakat Islam	— ٣٠
	Hukum Islam	— ٣١
	Sedjarah dan Kebudayaan Islam	1 — ٣٢
	Sedjarah dan Kebudayaan Islam	11 — ٣٣
	Sedjarah dan Kebudayaan Islam	111 — ٣٤
	Perbandingan Agama (Jahudi)	— ٣٥
	Perbandingan Agama (Masihi)	— ٣٦
	Perbandingan Agama (Islam)	— ٣٧
	Perbandingan Agama (Agama2 yang	— ٣٨
	Terbesar di India : Hindu-Jaina-Buddha)	
	Sadjarah Pendidikan Islam	— ٣٩
	Politik dan Ekonomi Dalam Islam	— ٤٠
	Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam	— ٤١
	Perkembangan Keagamaan Dalam Islam	— ٤٢
	dan Masehi	
	Perang Salib	— ٤٣
	Kurikulum Islam Dalam	— ٤٤
	Perkembangan Sedjarah	
	Pengajian Al Quran	— ٤٥
	Sedjarah Kehakiman Dalam Islam	— ٤٦

كتب المؤلف

خامسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
- أول سلسلة من نوعها في المكتبة العربية تبدأ هذا الفراغ .
- دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
- تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٧ — تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الرابعة)
يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ،
بالتعبير ، فالإملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطلاب الى مرحلة متقدمة
في القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا في هذه المرحلة موضوعات جذابة من
الفكر الاسلامي والعربي اختيرت من امهات الكتب العربية ثم صيغت في أسلوب
مناسب ، مع أسئلة وتمارين مفيدة .

٤٨ — قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الرابعة)
عرض لجميع أبواب النحو العربي بطريقة تربوية سهلة
وخراسة واضحة لاهم أبواب الصرف

هذا الكتاب ضروري للمثقف العربي وغير العربي

كتب نفدت وان يعاد طبعها

- ٤٩ — في تصور الخلفاء العباسيين :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .
- ٥٠ — مصر في حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .
- ٥١ — الحكومة والدولة في الاسلام :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .
- ٥٢ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحي .
- ٥٣ — النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور واثار الفكر الاسلامي فيها .
وأكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .
- ٥٤ — الجهاد والنظم العسكرية في التفكير الاسلامي :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٩ من هذه القائمة .

كتب المؤلف

سادسا : المكتبة الاسلامية لكل الاعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ، ومن التاريخ ، والحضارة ،
وقصص القرآن للأولاد والشباب والسيدات والرجال
ظهر منها الاجزاء التالية :

المجموعة الاولى : السيرة النبوية العطرة : (١٦ جزءا)

- | | |
|------|--|
| ١ ج | محمد قبل البعثة |
| ٢ ج | من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام في مكة) |
| ٣ ج | الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات . |
| ٤ ج | الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها |
| ٥ ج | الرسول الداعية ومريى الدعاة |
| ٦ ج | (ا) الرسول في بيته : زوجات الرسول — اسباب تعدد الزوجات |
| ٧ ج | (ب) الرسول في بيته : مشكلات الزوجات وكيف عالجهما —
الحجاب — اولاد الرسول — اخفاده — خدمه |
| ٨ ج | الرسول بين اصحابه — الرسول يربى الفرد المسلم —
الرسول يربى المجتمع الاسلامى . |
| ٩ ج | الرسول يربى القضاء ، ويربى القوة العسكرية ، ويربى
الولاة والحكام |
| ١٠ ج | الرسول والشباب — الرسول والعمل |
| ١١ ج | توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرات للرسول —
الرسول والمنافقون |
| ١٢ ج | الرسول والنصارى — الرسول واليهود |
| ١٣ ج | الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة او بالدعوة —
غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — اهم احداث غزوة بدر |
| ١٤ ج | غزوة اُحد والهزيمة التى اخافت المنتصر — غزوة الاحزاب
وكلمة عن سلمان الفارسي |
| ١٥ ج | صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة
مؤتة وبداء الصراع ضد الروم . |
| ١٦ ج | فتح مكة — غزوة حنين والطفائف — غزوة تبوك —
الفترة الاخيرة في حياة الرسول |

الطبعة الثانية مع زيادات واسعة وتحسينات شاملة

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة : (٧ أجزاء)

- ج ١٧ (١) أبو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التي واجهها
ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع في عهده — عمر باتى الدولة
الاسلامية
ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان : حياته وأخلاقه والفتنة في عهده
ج ٢٠ (٤) علي بن أبي طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التي
واجهها
ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام
ج ٢٢ (٧) سعد بن أبي وقاص (٨) أبو عبيدة بن الجراح
ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمرو

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية : (٥ أجزاء)

- ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحي — نزول القرآن
وتدوينه — أسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل
القرآن — القرآن والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم
التطريب في أدائه والتكسب به .
ج ٢٥ خصائص القرآن والاصول التي جاء بها لخير الناس في الدنيا
والآخرة — اعجاز القرآن ومظاهر الاعجاز — معجزات
الرسول والمقارنة بينها .
ج ٢٦ غير العرب والاعجاز البلاغى للقرآن — وجوه الاعجاز في
القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار
في القرآن : أسرار وأعجازه .
ج ٣٤ و ٣٥ الأخلاق الاسلامية من القرآن الكريم
جمع الآيات القرآنية عن الأخلاق ، وتصنيفها ، وشرحها
شرحاً مبسراً .
(الترقيم مؤقت ، وفي الطبعة الثانية ان شاء الله سيأخذان
رقم ٢٧ و ٢٨ وتتسلسل الأرقام بعد ذلك) .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم : (٧ أجزاء)

- ج ٢٧ دراسات عن القصص في القرآن — قصة أصحاب الكهف .
ج ٢٨ قصة الرجلين والجنيتين — قصة ذى القرنين وإبليس
وماجوج .
ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة أصحاب الجنة .
ج ٣٠ قصة عزيز — قصة أيوب عليه السلام
ج ٣١ قصة قارون — قصة أصحاب الأخدود .
ج ٣٢ قصة إسماعيل عليه السلام .
ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج الي انصاف :

(٥ اجزاء)

ج ٣٦ تاريخ الدولة الاموية : الانحراف في تدوينه ومحاولة انصافه
معاوية الخليفة الاموى الاول : عام الجماعة — الدعاء —
الاصلاحات الداخلية — التوسع .

ج ٣٧ عبد الملك بن مروان :
احد غمحاء المدينة الاربعة .

ج ٣٨ البطولة — السياسة — الاصلاحات الداخلية — التوسع
نموذجان فريدان متعاصران :

ج ٣٩ الوليد بن عبد الملك . عمر بن عبد العزيز .
التوسع العظيم في العهد الاموى واهم ميادينه .
ج ٤٠ الشيعة ومدعو التشيع . قصة استشهاد الامام الحسين .

المجموعة السادسة : صراع وشهداء وانتصارات (٦ اجزاء) كالآتى :

ج ٤١ جزء عن « من شهداء الاسلام » : حمزة بن عبد المطلب —
جعفر بن ابى طالب — عمار بن ياسر — عمر المختار
ومحاكمته .

ج ٤٢ و

٤٢ و ٤٤ ثلاثة اجزاء في مجلد واحد عن :

الهجمات الصليبية : على العالم الاسلامى من مطلع الاسلام
حتى الآن .

ج ٤٥ و ٤٦ جزآن في مجلد واحد عن :

شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه .

انتصارات المسلمين في شهور رمضان على : قريش —
الروم — الفرس — القوط — الصليبيين — المفسول —
الصهيبة .

المجموعة السابعة : الاسلام والمرأة (٦ اجزاء) :

ج ٤٧ المرأة في الحضارات غير الاسلامية — ماذا قدم الاسلام للمرأة

ج ٤٨ نماذج من السيدات المسلمات (من بيت النبوة) :
السيدة زينب بنت الامام على — السيدة سكينة بنت الامام
الحسين .

ج ٤٩ نماذج من السيدات المسلمات (في تصور الخلفاء والملوك)
ام سلمة — الخيزران — زبيدة — شجرة الدر .

ج ٥٠ نماذج من السيدات (في مجالات الآداب والعلوم والفنون)
السيدة نفيسة — رابعة العدوية — الخنساء — ولادة —
زينب طبيبة بنى رد — علبه بنت المهدي — دنائير .

ج ٥١ زينبات شميرة في التاريخ : زبيدة — بوران — قطر الندى .

ج ٥٢ الميراث في الاسلام : دراسة شاملة .

كتب للمؤلف

سابعاً — التفسير الميسر للقرآن الكريم

الدكتور أحمد شاذي يسعده أن يعلن انه بدأ في كتابة تفسير ميسر للقرآن الكريم ، تفسير يهدف الى أن يفهم القارئ كلام الله وهو يقرؤه . وسيظهر الجزء الأول منه حالا إن شاء الله ، وادع الله معي أيها القارئ أن يوفقني لهذا العمل الجليل الذي أقوم به أملا في الثواب من الله ، واستجابة للكثيرين الذين استمعوا لما أذيعه من تفاسير في « مقدمة التلاوة » بالاذاعة المصرية أو لما أقدمه من تفاسير بالتلفزيون ، أو عن طريق الاذاعة البريطانية ، وطلبوا مني هذا النوع متسلسلا من جانب ، ومكتوبا من جانب آخر .

وأنا أستجيب لذلك ، فهو شرف لا يعدله شرف ، وأسألك اللهم أن تساعدني لأقوم بهذا العمل ، وان تنفع به كاتبه وقارئه ، انك سميع الدعاء .

محتويات الكتاب الاسلام والعلاقات الدولية

الصفحة	الموضوع
١٧	كلمة عن المصادر والمراجع
١٩	مقدمة
	العلاقات الدولية قبل الاسلام
٢٠	الحياة القبلية في الجزيرة العربية
٢١	حروب قبلية لانتفه الاسباب
٢١	حَفَسَر الجزيرة العربية
٢٢	اوربا والصراع فيها بين الدول
٢٢	الصراع بين زعماء الاقطاع
٢٣	الفرس والروم
٢٣	المغول
٢٣	روسيا
٢٤	الاستعمار الاوربي
	العلاقات الدولية كما يراها الاسلام
٢٥	هل كانت العلاقة بين المسلمين وغيرهم علاقة سيف ؟
٢٦	الاخلاق الاسلامية تراعى بين الافراد وبين الجماعات
٢٧	الاسلام دعوة حضارية
	العلاقات الدولية في مجال السياسة (مجال الدبلوماسية)
٢٨	هدف العلاقات السياسية الاسلامية ووسيلتها
	السفارات والمبعوث :
٢٩	سفير ورسول
٢٩	شروط السفراء
٣٠	الوثائق التي يحملها السفير
٣١	اغراض السفارات
٣١	استقبال السفراء وامكن اقامتهم
٣٢	امتيازات السفراء والتزاماتهم
٣٢	تأمين المبعوثين
٣٢	ماذا لو ارتكب المبعوث ما يستوجب العقاب ؟
٣٣	قتل المبعوث معناه اعلان الحرب

الصفحة

الموضوع

من تاريخ السفارات في الاسلام :

٣٥	حكيم بن حزام في غزوة بدر
٣٥	سفراء الحديبية
٣٦	عدي بن حاتم الطائي مع الرسول بالمدينة
٣٧	سفارة المقوقس لعمر بن العاص
٣٧	بين الوليد بن عبد الملك وامبراطور الروم
٣٨	سفارات في العصر العباسي
٣٩	سفارات في العهد الايوبي
٤٠	سفارات داخلية بين الدول الاسلامية
٤١	سفير خائن

الكتب والرسائل :

٤٢	لغة الرسائل
٤٣	الكتاب المرسل اليهم
٤٣	صناعات الكتاب
٤٣	دقة التعبير وجودة الورق

نماذج من الكتب والرسائل :

٤٤	كتب الرسول للملوك والرؤساء
٤٥	بين صلاح الدين وريتشارد
٤٥	من الظاهر بيبرس الى يوهينند

المعاهدات :

٤٦	الوفاء بالعهود
٤٨	الحكمة والحكمة في المفاوضات
٤٨	كتابة المعاهدة
٤٩	توقيع المعاهدة
٤٩	شروط المعاهدة

نماذج من المعاهدات في الاسلام :

٥٠	معاهدة المدينة عقب الهجرة
٥٢	معاهدة الحديبية
٥٣	العهد العبري
٥٤	معاهدة الظاهر بيبرس مع ملكة بيروت الصليبية

العلاقات الدولية في مجال الاقتصاد

٥٦	عون اسلامى اقتصادى لقريش
٥٧	مسلمون يعملون فى مزارع اليهود بالمدينة
٥٧	العملات الاجنبية فى العالم الاسلامى
٥٧	تجارة خارجية
٥٩	الامارات الصليبية والتجارة
٦١	تجارة مع الشرق الاقصى
٦١	صادرات اسلامية للخارج
٦٢	صناعة الورق وتصديره
٦٢	مصر والتجارة الخارجية
٦٣	الاسواق
٦٤	وظائف لغير المسلمين فى ارض الاسلام



العلاقات الدولية في المجال الاجتماعي

٦٥	تبادل الطعام وزواج المسلم من كفاية
٦٦	كون واحد ، له مخبر واحد
٦٦	الوحدة الانسانية
٦٧	الحرية أسس المنع الاجتماعية
٦٨	حقوق المرأة
٦٩	الحسبة على الاخلاق والاتجاهات
٦٩	الاخلاق الاسلامية تتبع مع الجميع
٦٩	الزكاة لكل الفقراء مسلمين وغير مسلمين
٧٠	التخمة والجوع بين الغرب والشرق
٧١	حرمة الربا بين كل الناس
٧١	المساواة بين البشر جميعا
٧٢	الهدايا بين المسلمين وغير المسلمين
٧٣	تكريم جنازة يهودى
٧٣	تسامح الرسول مع من اعتدوا عليه
٧٣	الاستدانة من غير المسلمين وحسن معاملتهم
٧٤	قبول الرسول لدعوة امرأة يهودية للطعام
٧٤	من يحذو حذو الرسول



العلاقات الدولية في المجال الثقافي

٧٥	موقف القرآن والحديث من العلم
	تأثير انعقيدة الاسلاميه على عقائد غير المسلمين :
٧٧	تأثير الاسلام في المسيحية
٧٨	تأثير الاسلام في الهندوكية
٧٩	الفكر الاسلامي بارز في ديانة السيخ
٧٩	تأثير المسيحية على بعض المسلمين
٨٠	العلم للجميع
٨٠	التقاء العلم بالدين
٨١	نشاط ثقافي اجنبي في العالم الاسلامي
٨٢	بيت الحكمة
٨٣	الاقتباسات تتطور
٨٤	المعارف الاسلامية الاصلية
٨٥	ملوك غربيون في المعاهد الاسلامية
٨٥	وفود ملكية للالتحاق بالمعاهد الاسلامية
٨٦	مبعوثون غربيون يستقرون في بلاد الاسلام
٨٧	الاخلاق الاسلامية واحترام المرأة هبة الشرق للغرب
٨٧	مسلمون يعلمون في معاهد الغرب
٨٨	من الفكر الاسلامي للفكر الغربي
٨٨	القانون الاسلامي
٨٩	في المجال الثقافي كان المسلمون أكثر عطاء
٩٠	نومة المسلمين طالعت غمتى يفيتون ؟

* * *

العلاقات الدولية في المجال العسكري

٩٧	ما الجهاد في التفكير الاسلامي ؟
٩٩	الدعوة للاسلام قبل الاذن بالقتال
١٠٠	عقبات في طريق الدعوة
١٠٢	اليهود خطر ضد الدعوة انضم لخطر العرب المشركين
١٠٤	السور المدنية والاذن بالجهاد
١٠٥	سورة البقرة ومعنى التهلكة
١٠٧	خطة الهجوم الدفاعي
١٠٨	الحرب الاسلامية تكون لاعلاء كلمة الله
١٠٩	الاسلام وحرية الاديان
١١٢	سورة الفتح ونعمة الأمن بعد الصراع

الموضوع	الصفحة
القرآن يسجل انهيار قريش	١١٤
اكرام المجموع من أجل بعض أفرادہ	١١٤
مشكلات ما قبل المعركة :	

الاسلام والسلام	١١٩
الاستعداد للجهاد	١٢٤
موالاة المسلمين ومعاداة الأعداء	١٢٤ -
تطهير الجيش من عناصر الخذلان	١٢٦
الاستعداد بالقوة	١٢٧
الذين يخافون القوة أكثر من خوفهم من الله	١٢٨
عون الله والصراع بين المسلمين وغير المسلمين	١٢٩
الجهاد المشروع وأسبابه	١٣١

مشكلات المعركة :

حكم الجهاد	١٣٩
المرأة والجهاد	١٤٣
فضل الجهاد والاستشهاد	١٤٦
الرباط	١٥٤
القلاع والحصون	١٥٦

اخلاق المجاهد :

الشجاعة والصبر	١٥٧
الخشونة والتتشف	١٥٨
صدق البلاء	١٥٩
انكار الذات	١٥٩
الايشار	١٦٠
صفات خاصة للقائد	١٦١

الاسلام وسياسة الحرب :

التعرف على أخبار العدو ومحاولة التجسس عليه	١٦٣
الخديفة في الحروب	١٦٦
الحرب لتحقيق العدالة لا للانتقام	١٦٧
الجانب الإنساني خلال المعركة ويعدها	١٦٨
لا ظلم ولا مثلة ولا تدمير	١٦٩

الصفحة

الموضوع

الثبات والفرار :

١٧٣	أولا - الثبات في المعركة ..
١٧٤	ثانيا - جريمة الفرار ..
١٧٥	ثالثا - الموت آت لا محالة ..
١٧٧	رابعا - الحياة هبة الاقتدام لا الاحجام ..
١٧٨	خامسا - هناك ما هو ادهى من الموت ..
١٧٨	العدد والفرار ..
١٨١	ابن حزم لا يبيح الفرار لغير ضرورة ملحة ..
١٨٢	هل يترك المسلمون أرضهم لعدو هاجمهم ؟ ..
١٨٥	القضاء والقدر في المعركة ..
١٨٨	التجسس والخيانة ..
١٩١	الموت أهون من افشاء أسرار الجيش ..

مشكلات ما بعد المعركة :

١٩٥	الامان والهدنة ..
١٩٨	الاسلام أو الجزية ، لماذا ؟ ..
١٩٨	استسلام العدو ..
٢٠١	الأسرى ..
٢٠٤	كلمة ختام عن الاسلام والجهاد ..
٢٠٦	وكلمة ختام عن العلاقات الدولية في الفكر الاسلامي ..

* * *

٢٠٧	مراجع البحث ..
-----	---------	----------------

* * *

الإسلام والعلاقات الدولية

كلمة من المصادر والمراجع :

موضوع « الإسلام والعلاقات الدولية » موضوع رائع ، يصور العلاقات التي ابتكرها الفكر الإسلامى لتسود بين المجتمع الإسلامى من جهة والمجتمعات غير الإسلامية من جهة أخرى ، أو بين الدولة الإسلامية والدول غير الإسلامية ، وكان هذا الموضوع بالنسبة لى امتدادا للصورة التي سجلتها في كتاباتى عن السيرة النبوية العطرة ، تلك الصورة التي تصف معاملة الرسول لغير المسلمين •

وشغلت بهذا الموضوع ذهنياً ، ورتبت له خطة ليشمل العلاقات التي نسميها الآن « دبلوماسية » أى السفارات والرسائل والمعاهدات ، ويشمل كذلك العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ثم ما ابتكره الإسلام لتخفيف ويلات الحرب إن قامت الحرب •

وبعد أن أعددت الخطة بدأت أبحث عن المصادر والمراجع ، ولكنى لم أجد أبداً ما يستفى الغلظة ، ولم أجد فى الدراسات الحديثة أى مرجع عن هذا الموضوع ، ولهذا زاد إصرارى على أن أكتبه خدمة لدينى ووطنى ، فكم أخذنا جاهاً ومالاً عن طريق الدين والوطن ، وما أسعدنا أن نقدم شيئاً للاعتراف بالجميل •

على أن هذا التعبير « العلاقات الدولية فى الإسلام » لفتَ انظارَ بعض الباحثين ، فوضعوه عنواناً لبحوثهم ، ولكن هذه البحوث لم تُحِطْ بالموضوع كما تخيلته ، فقد اتجهت هذه البحوث التي كتبها بعض الأعلام إلى شرح العلاقات العسكرية ، وهذا الجانب من العلاقات اهتمت به كتب الفقه ، فلم يخلُ كتاب منها من باب عن الجهاد ، وفي بعض البحوث عن هذا الموضوع تكلم الباحث الفاضل عن الأخلاق الإسلامية كالفضيلة والتسامح والعدالة ، ثم اتجه للعلاقات العسكرية ،

لا م ٢ . — العلاقات الدولية)

وقد تعمّدت ألا أذكر هنا أسماء هؤلاء المؤلفين إجلالاً لقدرهم حتى لا يظنّ أحدٌ أنّي أقف منهم موقف الناقد لأعمالهم .

وهناك بحوث أخرى كتبها بعض الباحثين الجُدد ، وكان أقصى ما عملوه أن اقتبسوا من الأعلام الذين أشرنا إليهم ، أو اقتبسوا من كتابي الذي أخرجته من عشرين عاماً عن « الجهاد والنشّط العسكري في الفكر الإسلامي » وأضافوا بعض اقتباسات وإضافات بسيطة .

وكانت النتيجة أن الدراسات الحديثة لم تقدم لي عوناً يذكر ، ومن أجل هذا كان لابدّ أن أرجع إلى المصادر الرئيسية ، وأن أتخذ الصبر وسيلة لي لأقرأ وأجمع الأفكار من هنا وهناك ، وكان عون الله معي ، جمعت قدراً من الاقتباسات يرسم صورة واضحة لهذا الموضوع من كل أطرافه .

والآن أقدم هذا الموضوع هدية متواضعة لكلّ مسلم وكلّ باحث متطلعا إلى الثواب من الله الذي أعلن وأعان منذ كان الموضوع فكرة وأملأ ، حتى صار حقيقة واقعة .

مقدمة :

من مفاخر الإسلام أنه قدّم للمجتمع البشرى أسس حياة تكفل السلامة لهذا المجتمع ، ومن الواضح أنه من الثابت في علم الله سبحانه وتعالى أن البشر لن يجتمعوا على الإسلام ، بل منهم من سيستجيب لداعي الله ، ومنهم من لن يستجيب ، والقرآن الكريم يعبر عن ذلك أدقّ تعبير في قوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » (١) ويقول المفسرون في شرح هاتين الآيتين : إن الله سبحانه وتعالى يبين لرسوله الكريم أنه لو شاء لجمع الناس على دين واحد ، وجعلهم مطيعين بطبيعتهم كالملائكة ، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك ، بل أبان لهم الخير والشر وتركهم يختارون ، ومن هنا جاء اختلافهم حتى في أصول العقائد التي كان ينبغي ألا يكون حولها خلاف كالإيمان بوحداية الله ، ولكن هناك جماعة رحّمهم الله لسلامة الفطرة عندهم ، فآمنوا بالله ورسوله وكتبه . . .

وكان من رحمة الله بالبشرية أنه جعل الإسلام (وهو خاتم الأديان) يشمل الوسائل التي تكفل حسن العلاقة بين الأهم بعضها والبعض ، وأن اختلفت تلك الأهم في العقائد والاتجاهات ، فقدّم للنظم للتعاون في مجال السياسة ، والاقتصاد ، والحياة الاجتماعية ، والثقافية ، بل قدّم النظم للتخفيف من ويلات الحرب إن قامت الحرب بين جماعة وأخرى ، وكان ما قدّمه الإسلام في هذا المضمار أول تعليمات من نوعها تعرفها البشرية .

ما هي تفاصيل هذه التعليمات التي كان الهدف منها تيسير الحياة لجماعة البشر وإن اختلفت أديانهم ومعتقداتهم ؟

(١) سورة هود : ١٨ — ١٩ .

ذلك ما سنتحدث عنه بالتفصيل ، بعد أن نورد دراسة ترفينا صورة الحياة قبل الإسلام ، حتى نستطيع أن ندرك مدى المنحة العظيمة التي قدمها الإسلام للمجتمع البشرى .

العلاقات الدولية قبل الإسلام

لو نظرنا الى دول العالم قبل الإسلام ، أو الى دول العالم بعد ظهور الإسلام وقبل أن يصلها هذا الدين أو قبل أن تشيع تعليماته وتصبح أفكارا حضاريا عاما ، ماذا نرى ؟

الإجابة في كلمات موجزة : صراع* ودماء ودمار ، يتبعها نهب وسلب وتسلط ، مما جعل كثيرا من الدول تعمل على أن تثقل عليها حدودها ، ولا تسمح لقدم أجنبي* أن تدب فيها .

وهذا الكلام الموجز يحتاج الى شيء من التفصيل لبيان طبيعة العلاقات بين الدول والجماعات قبل انتشار تعليمات الإسلام :

الحياة القبلية :

كانت الحياة القبلية منتشرة في الجزيرة العربية وفي كثير من البقاع الأخرى ، والحياة القبلية هنا وهناك متشابهة ، فالوحدة في هذه البقاع هي القبيلة ، وهي وحدة يربط بينها الدم والعصبية ، ويعتبر من أفراد القبيلة هؤلاء الضعاف أو العبيد الذين يلجئون للقبيلة ويعيشون في جوارها وحمايتها ، ولو لم تكن بينهم وبين القبيلة صلة دم .

وكانت القبيلة تخضع لدستور صارم نظمته التقاليد والعرف ، وخلاصة هذا الدستور أن يحس* الفرد برابطته القبلية ، ويلتزم بتأييد مصالحها والعمل لها بكل ما يملك من قوة^(١) .

(١) الميداني : مجمع الامثال ج ١ ص ١٧ .

فالتبيلة بذلك هي عالم كل فرد من أفرادها ، وجميع أفراد القبيلة متضامنون فيما يرتكبه أحدهم تضامنا حازما ، ومع تضامن أفراد القبيلة ، تعتبر القبائل الأخرى في عدااء مع هذه القبيلة بسبب أو بدون سبب ، فالحذر والروح العدوانية كانا دستير الحياة بين القبائل •

هروب قبلية لامتفه الأسباب :

ويقدم التاريخ العربى صورا مزعجة عن الصراعات بين القبائل العربية بعضها والبعض الآخر ، ومن الحروب الشهيرة في « أيام العرب » حرب « البسوس » وحرب « داحس والغبراء » وكانت أسبابها نافهة وفتائجها مريرة جدا ، فحرب البسوس كانت بين بكر وتغلب ، وقد استمرت أربعين سنة ، وهاجها مقتل كليب بن ربيعة من تغلب ، وسببها أن كليباً رمى بالنبل ناقة البسوس بنت منقذ التميمية ، والبسوس خالة جساس بن مرة من بكر فاستجارت البسوس بجساس فقتل جساس " كليباً " ، وكان كليب زوجا لجليلة أخت جساس ، وقامت الحرب التى دمرت الجميع حتى قال المهلهل أخو كليب : قد فنى الحيان ، وثكلت الأمهات ، وتيتم الأولاد ، دموع لا ترفأ ، وأجساد لا تدفن •

أما داحس والغبراء ففرسان ، وداحس ملك لقيس بن زهير العبسى ، والغبراء ملك لحمل بن بدر من ذبيان ، وكان هناك سباق بين الفرسين ، وكان السبق لداحس ولكن رجلا من ذبيان لطمه فشغله وأضاع عليه السبق ، وبدأ الصراع الذى طال وامتد ، وأهلك العديد من الناس والحيوان والمتاع (١) •

وماذا عن حفر الجزيرة العربية ؟

وإذا كانت هذه هي الحياة بين القبائل وبخاصة في الجزيرة العربية فماذا نقول عن دائر الجزيرة العربية الذى انقسم بالاجزاء الحضارى ؟

(١) اقرا أيام العرب والادب العربى وتاريخه للأستاذ محمد هاشم عطية ص ٤٨ وما بعدها .

ان الاتجاه الحضارى فى اليمن مثلاً ضمن له استقراراً داخلياً ولكنه
جمل اليمن فريسة للاستعمار من الخارج ، الاستعمار الحبشى ثم
الفارسى ، والاستعمار — كفاك الله — شر وبيل على الإنسان وعلى الديار
والأوطان ، وتحت وطأة الاستعمار عاش اليمن سنوات مريرة حتى أنقذه
الإسلام من هذا العدوان .

والذى يقال عن اليمن فى جنوب الجزيرة يقال عن الحيرة فى الشمال
الشرقى ، وعن الفساسنة فى الشمال الغربى ، فقد زحف نفوذ الفرس
للحيرة ونفوذ الروم للفساسنة .

وماذا عن أوروبا ؟

وإذا تركنا الجزيرة العربية وذهبنا الى أوروبا ماذا نرى ؟
يوأجهنا يوليوس قيصر الذى استطاع أن يقتحم فرنسا وجنوب
انجلترا وبلاد الراين وجمع عدداً هائلاً من الأسرى ثم باعهم فى سوق
الرقائق .

ثم يواجهنا الإقطاع فى أوروبا فى العصر الوسيط ، فماذا عن
الإقطاع ؟

الإقطاع :

والإقطاع هو شكل التنظيم الاجتماعى الذى كان سائداً فى أوروبا
الغربية عقب انحلال امبراطورية شارلمان (٨١٤) حفيد شارل مارتل ،
وعقب انهيار الأنظمة الرومانية فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ،
ويتسم النظام الإقطاعى بتقسيم المجتمعات الى طبقات اجتماعية ، تقوم
كل منها بذاتها ، ومن صفات الإقطاع الحروب التى لا تنقطع بين إقطاع
 وآخر ، ويذكر المؤرخون أن النظام الإقطاعى الذى كان سائداً فى أوروبا
قبل قيام الحروب الصليبية كان من أهم أسباب هذه الحروب ، إذ أن
الحروب التى كانت شبه مستمرة بين أفراد الإقطاع أنتجت فئة من

الأبطال والشجعان الذين احترقوا بالحروب حتى أصبحت ضروب الشجاعة هوية لهم ، وقد دفعهم ذلك الى الرغبة في اشعال نار الحروب في أرض جديدة حتى يظهروا قوتهم ويصبحوا أبطالاً عالميين (١) .

الفرس والروم وغيرهم :

وكانت الدول الكبرى في العالم في صراع مستمر ، تتبادلُ الانتصار والهزائم كما حدث بين الفرس والروم .

المغول :

وانفجر بركان المغول على العالم منذ وقت طويل وكان بركاننا يحب الدم والدمار ، يعادى الشرق والغرب .

روسيا :

روسيا دفعت حدودها للوراء في مختلف الاتجاهات بسبب ضعف جيرانها فابتلعتهم قواتها العاتية ، وبهذا ضمت أجزاء من بولندا والسويد وتركيا وفارس وغيرها ، كما ضمت بخارى وسمرقند .

ومن أجل هذا السعار الدولي قفلت الصين أبوابها في وجه التدخل الأجنبي ، وكانت اليابان حتى عام ١٨٥٣ من البلاد المقفلة في وجوه الأجانب .

والهند حَبَسَتْها الطبيعة جبالا وبحارا جعلتها تسمى البلاد المقفلة ولكنها لم تنج من العدوان من جهة الشمال ذلك العدوان الذي شنه الفرس والإفريق .

وكانت البحار تحت سلطة القراصنة الذين كانوا يستولون على السلع والسفن والبحارة .

(١) انظر الجزء الخامس من موسوعة التاريخ الاسلامي للمؤلف ص ٧١٩ (الطبعة السابعة) .

الاستعمار الأوربي :

وفي العصر الحديث انطلقت أوروبا لتستعمر العالم ، وامتد الاستعمار من أمريكا الى إندونيسيا ، وشمل فيما شمل العالم الإسلامي كله ، والاستعمار لعنة على الجنس البشري ، انه لا يعرف القيم والآداب ، والأخلاق ، وهو سرقة للمال ، واستعباد للإنسان ، وإذلال للمغلوب ، وعندما حققت الولايات المتحدة استقلالها بعد نضال مرير انضمت الى القوى المستعمرة فاحتلت الفيلبين ، وجعلت من المال والعلم وسائل للاستعمار اقتصادي فاق في قسوته ما عرفناه من استعمار الغرب .

وخلق الاستعمار الغربي اصطلاحات جديدة مثل ممتلكات التاج — مستعمرة تحت الحماية — تحت الوصاية — تحت النفوذ .

وبعد ، هذه لحظة سريعة عن قسوة العلاقات الدولية قبل الإسلام أو قبل أن ينتشر الفكر الإسلامي ، وهي لحظة قصدنا بها تقديم نماذج وليس الإحاطة ، وذلك لم نتكلم عن الهكسوس وزحفهم المدمر ولا عن الصليبيين الذين اندفعوا من الأطفال الى الملوك للهجوم على الإسلام والمسلمين ، ولا عن الصهاينة الذين تطيب لهم رؤية الدماء وتطابق الأثلاء ، والذين نقالوا ما نزل بهم من الآذنين فأنزلوه بالفلسطينيين ، أو ضاعفوا ما أنزلوه بهم عندما سيطروا على المغلوبين .

وهكذا كان العالم ، لا تتعرف فيه العلاقات الدولية التي تحمي الإنسان من عدوان الإنسان ، والتي تحاول أن تخلق من الدول المتعددة مجتمعا بشريا يسوده الوئام والسلام .

فماذا قدم الإسلام في هذا المجال ؟

والى أى حد انتقل الفكر الإسلامي ليصبح فكراً عالمياً أخذ يسود بخطا وثيدة في جنبات الكون ؟

فلك ما سنتحدث عنه فيما يلي :

هل كانت العلاقة بين المسلمين وغيرهم علاقة سيف ؟

في طريقنا للحديث عن العلاقات الدولية بين المسلمين وغير المسلمين نذكر أنه من الواضح للباحث المنصف في التاريخ الإسلامى أن الإسلام بدأ دعوة سلمية ، وهتف في الناس جميعا أن يدخلوا في السلم ، ولكن أعداء الإسلام بدعوا عداءهم للإسلام مبكرين ، وأنزلوا بالمسلمين صنوف العذاب ، وكان المسلمون إذا تخلصوا من عدو بطريق أو بآخر ظهر لهم عدو جديد ، حتى اضطروا أن يخوضوا سلسلة من المعارك ، تكاد تكون متصلة ، فقريش في مكة أسرفت في العدوان ، فترك المسلمون الوطن والأموال وهاجروا إلى المدينة ، ولكن قريشا لاحقتهم في غزوة بدر وأحُد ، وسرعان ما ظهر عدو جديد هو اليهود ، وقد شغل بهم المسلمون عدة سنوات ، ثم تحالفت الأحزاب ضد المسلمين ، ولما هزمهم الله ظهرت هوازن وثقيف في غزوة حنين والطائف ، ثم تدخلت القوى العظمى الفارسية والرومانية لضرب المسلمين .

ويمكن التأكيد أن المسلمين كانوا يكرهون الحروب ويخوضونها للضرورات القصوى ، ولذلك عبر القرآن عن حالتهم أدق تعبير في قوله تعالى « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ » (١) .

وفي وسط مراسف الحروب كان المسلمون دائما مستعدين للسلام « وكانوا يمدشون أيديهم للتعاون ، هكذا فعلوا مع اليهود عقب الهجرة » ومع قريش في الحديبية ، ومع هوازن وثقيف عقب انتصار المسلمين في غزوة حنين والطائف .

وعلى هذا فالادعاء أن علاقات المسلمين قامت على السيف ادعاء لا يقوم على أساس من الحق أو التاريخ ، وعلى العكس يحتتم الإسلام أن يتجه المسلمون للسلام ، وألا يلجئوا للحرب إلا إذا اعتدى عليهم قال تعالى :

(١) البقرة ٢١٦ .

— وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تمتدوا إن الله لا يحب المعتدين (١) .

وقال : وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله (٢) .

الأخلاق الإسلامية تراعى بين الأفراد وبين الجماعات :

وقد عنى الإسلام غاية كبيرة بتشجيع صفات الحب والرحمة والوفاء بالعهود والمدالة ... بين الأفراد ، وقد جاء في ذلك حشد هائل من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ، ولكن الذي فريد إثباته هنا هو أن الإسلام يلتزم أن تقوم هذه الصفات ليس فقط بين الفرد والفرد بل أيضا بين الجماعة والجماعة وبين الدولة والدولة ، فالصفات التي فرضها الإسلام تنظم علاقة الآحاد ، وتنظم أيضا علاقات الجماعات والدول ، فالإسلام يعنى بالوحدة الإنسانية ويهتم بكل بنى الإنسان ، وتقرر آية سورة الحجرات أن الناس يعودون إلى أصل واحد ، وأن تشعبهم إلى فرق وقبائل قصيد به خلق جو للتعارف والمودة ، ولم يكن للفرقة والخلاف ، وذلك ما يفهمه المفسرون من قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٣) وعلى هذا المنطسار الرسول والسلف الصالح .

ومن أجله ميث الإسلام للسلام من جانب ، وحقه على التعاون والحب مع الأمم الأخرى من جانب آخر لجأ المسلمون في حالات كثيرة للمفاوضات والمعاهدات مع الأعداء كما سنرى .

(١) سورة البقرة ١٩٠ .

(٢) سورة الأنفال ٩١ .

(٣) سورة الحجرات ١٣ .

الإسلام دعوة حضارية :

والإسلام ليس فقط دعوة دينية ولكنه أيضا دعوة حضارية ، ومن هنا فقد قدم للبشرية جميعاً أشعة من النور في مجالات مختلفة ، لتكون أساساً للتعاون وقاعدة للخير وإن اختلف الدين ، وتشمل هذه الأسس جوانب الحياة المتعددة من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ، ولم يقف تنظيم الإسلام للعلاقات الدولية عند السلام ، بل امتدت التشريعات الإسلامية لتنظيم العلاقات عند الحرب للتخفيف من ويلات هذه الحروب ، وستدارس فيما يلي ما قدّمه الفكر الإسلامي من توجيهات في الجوانب المختلفة للعلاقات الدولية •

العلاقات الدولية في مجال السياسة

في مطلع حديثنا عن الجانب السيلسي في العلاقات الدولية ينبغي أن نذكر أن المسلمين كانوا يلجأون للدبلوماسية كلما أمكن ذلك لتسوية مشكلاتهم مع الأعداء كما سنرى ، وقد سجلت المواقف المتعددة في هذا النطاق صورا مشرقة ، وإن كنا نعتقد أن الطبيعة السرية للعلاقات الدبلوماسية أخفت بعض المواقف والارتباطات ، على أن ما سجله التاريخ من صخور البعوث والمعاهدات يؤكد أن الدبلوماسية الحديثة لها جذور قديمة .

وتؤكد الدراسات التاريخية أن النظرة الإسلامية للدول متساوية : سواء أكانت الدولة صغيرة أو كبيرة ، وعندما بعث الرسول صلوات الله عليه كتبه لتي سنشير إليها يدعو الرؤساء للإسلام اهتم بالدول الكبيرة والصغيرة جميعا ، فكما أرسل إلى كسرى فارس وقيصر الروم أرسل كذلك إلى رؤساء القبائل وملك البحرين وملك عمان ... وهذا يختلف عن عصبية الأمم وهيئة الأمم المتحدة في العصر الحديث حيث لا يُسَمَح إلا للدول المستقلة بأن تكون أعضاء بها ، ولا يُسَمَح بمخاطبة رؤساء الدول غير المستقلة إلا عن طريق الدول الكبرى التي لها سلطان عليها .

هدف العلاقات السياسية الإسلامية ووسيلتها :

والعلاقات السياسية التي ابتكرها الفكر الإسلامي كانت ترمى إلى تحسين العلاقة بين دولة وأخرى أو بين مجموعة ومجموعة أخرى ، كما كانت ترمى إلى الدعوة لفكر جديد يكون خيرا وبركة للجميع ، وكانت الوسيلة لذلك أجمالا السفارات والبعوث التي تحمل دعوة الخير وحسن العلاقة ، وهي كذلك الكتب والمعاهدات التي ترمى لتحقيق نفس الغرض ، وسنحدث عن كل منها فيما يلي :

السفارات والبعث

سفير ورسول :

استعمل العرب كلمة سفير ورسول بمعنى واحد أى الذى يحمل رسالة تفاهم إلى قوم آخرين ، وتذكر المصادر أن عمر بن الخطاب كان سفير قومه اذا تأزمت الأمور بينهم وبين الآخرين (١) .

أما كلمة رسول فقيد استعمال أيضا منذ العهد المبكر ، ويذكر النووي (٢) عند حديثه عن حملة كتب الرسول إلى الملوك والرؤساء أن حاطب بن بلتعنة كان رسول النبي عليه السلام إلى المتوqس ، وكان دحية ابن حليف الكلبى رسوله إلى قيصر ، وعبد الله بن حذافة السهمى رسوله إلى كسرى ... ، وفى عهد المماليك كانت كلمة سفير شائعة الاستعمال لمن يقوم بهذه المهمة ، ويذكر الجبرتي (٣) أن الشيخ عمر الطحلاوى المالكى (١٧٦٧ م) كان رسول الأمراء المماليك إلى الأستانة كوسيط بينهم وبين الخلافة العثمانية ، وقد استقبل هناك أحسن استقبال ونجحت سفارته .

شروط السفراء :

وقد كان الاهتمام بالفا فى اختيار السفير أو الرسول ، فكان المسلمون يرون أن السفير يجب أن يتحلى بأسمى الصفات العقلية والجسمانية واللسانية ، فاشتراطوا فيه الخبرة ، والذكاء والإخلاص العميق ، وسرعة البديهة . كما اشتراطوا أن يكون وسيما لا تقتحمه العين ، ولا يزدريه الناظر ، ومن ناحية القدرة على الأداء كان ينبغى أن يكون السفير فصحا بليغا جيد اللسان حسن البيان عارفا بلسان القوم الذين سيكون سفيراً لهم .

(١) النووي : تهذيب الأسماء القسم الأول ج ٢ ص ٤ .

(٢) تهذيب الأسماء القسم الأول ج ٢ ص ١٥٠ .

(٣) تاريخ الجبرتي ج ١ ص ٢٨٨ .

ويضيف الفكر الإسلامى ضرورة روعة المظهر فالعامة ترمق الزى أكثر مما ترمق الكفاية والسمداد ، ويلزم ذلك أن تزاح عيلكته ، وأن تقتنى حاجاته المادية حتى لا تشتره نفسه إلى ما يبذل له ويخضع إليه (١) .

وقد تحدث القلقشندي حديثا طويلا عن شروط السفراء ، وفيما يلي اقتباسات من كلامه :

يذكر القلقشندي أنه يستدل على عقل المرسلة برسوله ويكتابه ومن هنا فإن من الضروري أن تشوَّجه عناية كبيرة لاختيار الرسالة والسفراء ، وينبغي أن يكون السفير صحيح الفكرة والمزاج ، ذا بيان وعارضة ، وأن يكون بصيرا بمخارج الكلام ، مؤديا للالفاظ عن الملك بدقة صدوقا بريئا من الطمع .

وحتى يطمئن الملك إلى صلاح سفيره يقرر القلقشندي أن الملك لا يرسل للملوك سفيرا إلا بعد اختباره في أمور مماثلة بداخل مملكته ، فإذا أدَّى الرسول سفارته بنجاح في الداخل ، وتكرر ذلك منه كان من الممكن أن يوجهه في سفارات للخارج .

ويقرر القلقشندي أن السفير ينبغي أن يكون دائما تحت المراقبة حتى لا تخوّل له نفسه الزلل أو الانحراف (٢) .

الوثائق التي يحملها السفير :

إن أوراق الاعتماد التي يقدمها السفراء اليوم لرؤساء الدول التي يرسلون إليها ، لها جذور تاريخية ، فقد كان السفراء في صدر الإسلام يحملون ما يسمى « تذكرة » وكانت هذه التذكرة تكتب بخط جميل ، وتفيد أن حاملها (.....) ينقل رسالة شفوية أو مكتوبة من ملكه إلى ملك

(١) انظر ابن الفراء : رسالة الملوك ص ٣٥ .

(٢) صريح الأعشى ج ١ ص ١٩٦ .

البلاد التي أرسل إليها ، وكانت هذه التذكرة تكتب على ورق جميل
مصقول من أجود أنواع الورق (١) .

أغراض السفارات :

كان من أغراض السفارات التفاوض لإنهاء حرب أو عقد صلح ، أو
التفاوض لعقد حلف عسكري ضد عدو مشترك ، أو رعاية المصالح المختلفة
ومنها المصالح الاقتصادية وبخاصة تنشيط التجارة وتأمينها . ويذكر ابن
شداد أن من أغراض السفارات التي اهتم بها صلاح الدين الأيوبي أن
يستطيع كشف الأخبار بتواتر الرسل (٢) .

استقبال السفراء وامكنة إقامتهم :

وضع المسلمون نظاما دقيقا لاستقبال السفراء ، وقد تحدث القلقشندي
عن ذلك بإفاسة ، وخلاصة ما ذكره أنه كانت هناك قواعد تراعى في هذا
المجال ، وكانت هذه القواعد ترمى إلى إبراز معالم العظمة والقوة في
العالم الإسلامي وإرهاب أعداء الإسلام والتأثير فيهم ، وكان هناك
جماعة تخصصوا في استقبال السفراء ، وإسكانهم حسب أقدارهم وأقدار
مرسليهم ، فمنهم من كان ينزل في جناح خاص بقصر السلطان ، ومنهم
من كان ينزل في دور الضيافة ، وتعد خطة للسفير ليلتقى بولى الأمر ،
وفي الموعده المحدد ينظمهم موكب فخيم ، ويسعى السفير إلى السلطان الذي
يجلس في إيوانه ، وذلك عندما أصبح لسلطين المسلمين قصور وإيوانات ،
أما قبل ذلك فكانت البسطة هي طابع استقبال السفراء كما سنرى .

وغالبا لم تكن هناك سفارات دائمة ، وإنما كان السفير يحضر لمهمة
من المهام التي ذكرناها آنفا ، ويعود لبلاده عقب تبليغها ، وبالتالي لم تكن
هناك دور لكل سفارة كما هو موجود الآن في دول العالم .

(١) صبح الاعشى ج ٢ ص ٤٧٦ .

(٢) ابن شداد ص ٢٣١ .

امتيازات السفراء والتزاماتهم :

من الامتيازات التي قدّمها المسلمون السفراء عدم دفع الضرائب
هما يحملون من أمتعة ما دامت للاستعمال الشخصي أو هدايا يقدّمونها
للمسلمين ، ويشتمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية على ألا يكون في
ذلك مساس بالعقائد الإسلامية أو تقليل من شأنها .

تأمين المبعوثين :

وحتى يستطيع المبعوث أن يحمل الرسالة ويقوم بدوره في السفارة
كان لابد من تأمينه ، وقد وصل المسلمون في تأمين المبعوثين إلى مدى
بعيد ، فيروى الشوكاني ^(١) أن مندوبيين جاء للرسول صلوات الله عليه
يحملان رسالة مسيلمة التي يدّعى فيها أنه رسول ، وقرأ الرسولان الرسالة
على الرسول فسألهما الرسول : وماذا تقولان أنتما في هذا الأمر ؟

فقالا : نقول كما قال مسيلمة .

فقال لهما الرسول : لولا أن الرّسول لا تقتل لضربت أعناقكما .

ويروى كذلك أن الرسول كان لا يجبرس^٢ عنده مندوبا من عند
عنه ^(٢) .

وتتفيذا لهذا الاتجاه قرر الفقهاء أن السفراء لا يحتاجون لعقد أمان ،
فوجود المبعوث في هذه المكانة يضمن له السلامة دون حاجة إلى عقد
أمان بشأنه .

ماذا لو ارتكب المبعوث ما يستوجب العقاب ؟

ولكن ما الحكم إذا ارتكب المبعوث ما يستوجب العقاب ؟ .

يقول الفقهاء إن المبعوث إذا ارتكب ما يستوجب التعزير جاز العفو
عنه لأن الحكم غير مقرر تحديداً ، فإذا ارتكب عقوبة لها حد قرأني

(١) نيل الأوطار ج ٨ ص ٢٩ .

(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ١٠٦ .

فإن مذهب أبى حنيفة يجيز الترخّص في الحدود التي ليس للعباد فيها حق ، أو كان حق الله فيها غالبا .

أما القصاص وهو ما يرتبط بالعدوان على شخص فلم يترخّص فيه أبو حنيفة ولا غيره ، ويتحمل المبعوث مسئوليته .

وإذا كان عدوان المبعوث على شيء مالى مملوك لشخص ، واقتضت قوانين العلاقات الدولية عدم مؤاخضة المبعوث ، فإن على الدولة الإسلامية أن تتحمل ذلك وأن تؤدي للمواطن تعويض ما يفقده (١) .

وكان المبعوث كما ذكرنا آنفا يحمل خطابا من دولته إلى الدولة التي أرسل إليها يحدّد مكانته والمهام التي أُسندت إليه ، وذلك الخطاب شديد الشبّه بما يُعرّف الآن بأوراق الاعتماد التي يحملها السفراء في العهد الصاخر .

وبناء على ذلك كان المبعوث يعتبر رمزا لدولته ، وبالتالي كانت له كافة الحقوق التي لرئيس دولته (٢) .

وعلى هذا كان الاهتمام يتجه لاختيار السفراء بحيث يكونون أهلا لهذه المكانة التي وُضِعوا فيها .

قتل المبعوث مضاه إعلان الحرب :

وإذا كان المبعوث له هذه المكانة ، ويستمتع بهذه الحقوق فإن العدوان عليه يعتبر بمثابة إعلان حرب على دولته ، ولعل أول تصرف في الإسلام في هذا النطاق كان قتل مبعوث رسول الله « الحارث بن عمير الأزدي » الذي أرسله الرسول إلى الغساسنة ، وكان هؤلاء تحت سلطان الروم ، فقتلوا مبعوث الرسول بإيعاز من سلطان الروم ، وكان ذلك عدوانا يستحق

(١) الشيخ محمد أبو زهرة : العلاقات الدولية في الإسلام من ٧٢ — ٧٢ بتصرف .

(٢) دكتور إبراهيم العدوي : الامويون والبيزنطيون من ٢٨٠ .

لا م ٣ — العلاقات الدولية (

التأديب ، وبسببه حدثت غزوة مؤتة التي كان من أهم أهدافها معاقبة هؤلاء الذين اعتدوا على مبعوث الرسول .

وفي تاريخ مصر حادثة مماثلة فقد أرسل المغول إلى قطز سلطان مصر رسالة ، ولكنها لم تكن تحمل الأدب اللائق بالرسائل التي يحملها المبعوثون ، بل كان فيها تهديد ووعيد وأوامر بالتسليم والاستسلام^(١) ، وكان من نتائج ذلك أن صدرت الأوامر من سلطان مصر بقتل الذين حملوا هذه الرسالة ، واستتبع ذلك قيام الحروب بين المغول ومصر ، وأشهر معارك هذه الحروب « عين جالوت » التي اندحر فيها جيش المغول وقُتِلَ قائده .

(١) اقرأ هذه الرسالة ونتائجها في الجزء الخامس من موسوعة التاريخ الاسلامي للمؤلف ص ٢٤٧ وما بعدها من الطبعة السابعة .

من تاريخ السفارات في الإسلام

حكيم بن حزام في فزوة بدر :

من أقدم السفارات التي يعرفها الفسّر الإسلامى تلك الجهود التي قام بها حكيم بن حزام ليمنع الحرب من أن تشتعل بين المسلمين وقريش في لقاء بدر ، وقد أوشكت سفارته على النجاح لولا العنجهية التي دفعت عتبة بن ربيعة أن ندفع ومعه أخوه وابنه يتحدّى المسلمين بطلب المبارزة ، وقد انتهت المبارزة ، كما هو معروف بقتل هؤلاء الثلاثة ، ثم دارت المعركة ، وهكذا كان فشل سفارة حكيم بن حزام نتيجة لعنجهية عتبة وذويه .

سفراء الحديبية :

وفي لقاء الحديبية نشطت السفارات نشاطا عظيما ، وأنت بنتائج طيبة هذه المرة ، فعندما وصل المسلمون بتجمعهم الهائل الى الحديبية ، وأعلنوا أنهم قادمون لزيارة البيت العتيق ، وذلك حق لكل الناس لا يحترّم منه أحد ، غدغذ أعلنت قريش انها تعتبر ذلك هجوما على مكة ، واقتحاما لديارهم ، وانها ستقاوم ذلك .

وقد أرسلت قريش بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة ليتعرفوا القصد الحقيقي من زحف المسلمين ، وسرعان ما تبين لهؤلاء أن المسلمين جاءوا معتمرين ولا يقصدون أى سوء ، فنقل بديل وأصحابه هذا الرأى لقريش ونصحوهم بأن يخلّشوا بين المسلمين وبين العمرة ، ولكن قريشا رفضت قبول هذا الرأى .

ثم أرسلت قريش حليفها الحليّس بن علقمة سيد الإجابيش لنفس الغرض ، فلما رآه الرسول أطلق الهدى أمامه ، وكان ذلك خير جواب قنع به الحليّس ، وعاد دون أن يقابل الرسول ليؤكد لقريش أن المسلمين ينوون العمرة لا سواها .

ولكن قريشا لم تأخذ أيضا برأى الحليس .

واختارت قريش في هذه المحاولة الثالثة رجلا عُرِفَ بالحكمة وبعد
الرأى وهو عروة بن مسعود الثقفى ولكنه عاد بنفس الرأى .

والتقط الرسول زمام المبادرة فأرسل خراش بن أمية الخزاعى .
ولكن قريشا همّت بقتله فاستطاع أن يفرّ منهم بمعونة الأحابيش ،
ثم أرسل الرسول عثمان بن عفان ذمهّد الطريق وعمل على تطمين قريش .
ولكن غيبته طالّت ، وأشيع أن قريشا عتكتّه ، فأدرك المسلمون أنه لا بد
من القتال دفاعا عن مبدأ سلامة المبعوثين وتمّت بيعة الرضوان التى
أشارت لها سورة الفتح (١) ، ولكن عثمان سرعان ما عاد واتخذت المفاوضة
طريقا لحل المشكلة ، ومثّل سهيل بن عمرو قريشا في هذه المفاوضة التى
انتهت بالاجاح (٢) . وسنتحدث عن معاهدة الحديبية عند الحديث عن
المعاهدات .

عدى بن حاتم الطائى مع الرسول بالمدينة :

ووفد على الرسول بالمدينة عدى بن حاتم الطائى ، وكان قد اعتنق
المسيحية ، وقد جاء عدى للرسول يمثّل قومه ، فأحسن الرسول استقباله
واحتفى به حفاوة بالغة ، ودعاه إلى بيته ، ودار بين الرسول وبينه
الحوار التالى :

الرسول : مرحبا بك يا عدى ، لقد كنت أترقب حضورك لى .

عدى : وأنا كنت أعيدّ نفسى من مدة لهذا اللقاء .

الرسول : يا عدى تعتنق النصرانية ولا تتبعها ؟

عدى : كيف ذلك ؟

(١) سورة الفتح الآية ١٨ .

(٢) اقرأ عنها فى الجزء الاول من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف

ص ٤١٧ وما بعدها .

الرسول : تسير في قومك بالمرباع ، وليس هذا من المسيحية في شيء .

عدى : هل أنت تعلم ديني أكثر مني ؟

الرسول : نعم ، فالقرآن الكريم فيه الكثير عن النصرانية الحقبة ،
وأما ما تتبعه فهو عادات عربية اختلطت بالدين ^(١) .

وانتهى هذا الحوار بأن أعلن عدى إسلامه .

ووفد على الرسول كذلك وفد نصارى نجران ، فأحسن الرسول
استقبالهم ، وفرش لهم عباءته وأجلسهم عليها ^(٢) .

سفارة المتوقس لعمر بن العاص :

ومن أهم السفارات التي دون التاريخ الإسلامي أخبارها سفارة
المتوقس حاكم مصر الى عمرو بن العاص ، وكان عمرو ذكيا ، فاستبقى
الوفد يمين ليتعرفوا بأنفسهم على أحوال المسلمين ... وعاد أفراد هذا
الوفد الى المتوقس يقدّمون وصفاً حبّب الإسلام للمصريين ، قالوا :
رأينا قوما الموت أحبّ إليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من
الرفعة ...

وهذا دفع المتوقس لعقد صلح مع المسلمين دون أن يرجع الى
إمبراطور الروم الذي كانت له السلطة على مصر ^(٣) .

بين الوليد بن عبد الملك وإمبراطور الروم :

كان الوليد بن عبد الملك قد حوّل إحدى كنائس دمشق إلى مسجد ،
إذ أن السكان المحيطين بها قد دخلوا الاسلام ، ولم يعد هناك عدد
كثير من المسيحيين ، وفي الوقت نفسه احتاج هؤلاء إلى مكان يعبدون الله

(١) انظر المكتبة الاسلامية لكل الأعمار ج ١٢ ص ١٩ .

(٢) انظر كتاب « الاسلام » من سلسلة «قارئة الأديان للمؤلف» ص ١٧٦ .

(٣) اقرا عن هذه السفارة في الجزء الأول من موسوعة التاريخ عند

الحديث عن فتح مصر .

فيه ، فكان طبيعيا في رأيه أن يحول هذه الكنيسة إلى مسجد ، وحينئذ أرسل له امبراطور الروم سفارة تحمل خطابا جاء فيه :

إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها ، فإن كان أبوك على حق فقد خالفت أباك وخالفت الحق ، وإن لم يكن أبوك كذلك فإنك تعترف أنه كان على باطل .

وردد عليه الوليد برسالة توضح أن الأحكام قد تتغير بتغير الظروف ثم إن الله سبحانه وتعالى قد يثبتهم أبنا بفكرة دون أن يثبتهم بها أباء ، وليس في ذلك نقص في الأب ، وأورد له في هذا المعنى قوله تعالى :

« وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان ، وكالا آيتنا حكما وعلما » (١) .

سفارات في العصر العباسي :

وفي العصر العباسي الأول قامت صداقات وتبادلات سفارات ورسائل وهدايا بين الخلفاء العباسيين وبين معاصريهم من ملوك الفرنجة ، بين المنصور و Pepin وبين المهدي و Charles Martel وبين الرشيد و Charlemagne وكثيرا ما تبادلوا الهدايا والسفراء ، وكان من هدايا الخلفاء الى ملوك الفرنجة كثير من التحف الشرقية الرائعة ، وفيل ، وساعة مائية دقيقة حسبها الفرنجة آلة سحرية أول ما رأوها (٢) .

وكان الدافع على هذه العلاقة يرتبط بالسياسة الداخلية للجانبين ، ولا يرتبط بالسياسة الإسلامية العامة ، أو بالسياسة المسيحية العامة ، فقد كان خليفة بغداد يكد بهذه الصداقة إلى أمير الأندلس المسلم ويهدده بإمبراطور الفرنجة ، كما كان إمبراطور الفرنجة يقوم بنفس الدور تجاه

(١) سورة الانبياء الآية ٧٨ والقصة أوردها ابن عساکر في الجزء الأول من التاريخ الكبير ص ٤١ وما بعدها .

(٢) انظر الجزء الثالث من موسوعة التاريخ الاسلامي للؤلف ص ٢٥٥ .

إمبراطور الدولة البيزنطية المسيحي ، فهو يهدده بالخليفة المسلم المجاور له .

ومن السفارات التي اتجهت لإنهاء الحرب ، أو غرض نزاع بين الدولة الإسلامية والدول المجاورة ، ما حدث بين الخليفة المأمون وإمبراطور الروم « إيتوفيل » فقد أرسل هذا إلى المأمون سفارة تحمل كتابا جاء فيه :

أكتب إليك داعيا إلى المسالمة ، راغبا في فضيلة المهادنة لنضع عنا أوزار الحرب ، ويكون كل واحد منا ، مواليا للآخر ، مع اتصال المرافق والتبادل في المتاجر ، وإطلاق الأسرى ، وأمن الطرق .

وقد رد عليه الخليفة المأمون قائلا :

أكتب اليك مستجيبا لدعوة المسالمة ، راغبا في فضيلة المهادنة ، لنضع عنا أوزار الحرب ، ولنفسح الطريق لاتصال المرافق وتنشيط التجارة (١) .

سفارات في العهد الأيوبي :

نشطت السفارة في العهد الأيوبي بين سلاطين مصر وملوك الفرنجة ، وقد كان الملك العادل سيف الدين شقيق السلطان صلاح الدين من أبرز مبعوثيه للملك الفرنجة وبخاصة إلى ريتشارد قلب الأسد ، وذلك لعقد الصلح الذي عرف بصلح الرملة سنة ١١٩٧ م (٢) .

وفي عهد الملك الكامل وصل إلى مصر رسول ملك الفرنجية بهدية سنية وتحف غريبة إلى الملك ، وكان فيها عدة خيول منها فرس الملك بمركب مرصع بالجواهر فأحسن الملك الكامل استقباله وأكرمه ، واهتم بتجهيز

(١) الدكتور إبراهيم الحديدي : السفارات الإسلامية إلى أوروبا في العصور الوسطى ص ١٤ و ١٨ .

(٢) انظر عن هذه السفارة في الجزء الخامس من موسوعة التاريخ المجلد ٦ ص ٢٦٢ .

هدية فاخرة الى ملك الفرنجة ، وسيّر الكامل هذه الهدية بصحبة سفيره جمال الدين بن منقذ الشيرازي (١) .

سفنارات داخلية بين الدول الإسلامية :

وتتحدث المصادر التاريخية عن سفارات كانت تتم أحيانا بين دولتين مسلمتين لتوثيق عرى الود والإخاء بينهما ، والمصادر التي تحدثت عن المذول الإسلامية جنوب صحراء افريقية تطنب في ذكر السفارات التي كان يبعث بها ملوك مالى إلى سلاطين العالم الإسلامى ، ومن بين هذه السفارات تلك التي بعث بها السلطان منسكا موسى سنة ٧٣٦ هـ إلى السلطان على بن عثمان المرينى ، وكانت السفارة تحمل الهدايا والطرف إلى زعيم بنى مرين ، بمناسبة انتصاره في بعض المعارك التي كان مشغولا بها (٢) ، وقد أحسن السلطان على بن عثمان استقبال هذه السفارة ، وأعد من جانبه مجموعة من الهدايا القيمة وبعث بها مع وفد من كبار رجال دولته وقد رافق هذا الوفد سفارة منسكا موسى في طريق عودتها إلى بلاد السودان .

وعن أحداث هاتين السفارتين يقول ابن خلدون : وكان بين السلطان منسكا موسى وبين ملك المغرب لعهد من بنى مرين مواصلة ومهاداة ، سفرت بينهما فيها الأعلام من رجال الدولتين ، واستجاد صاحب المغرب من متاع وطنه وتحف ممالكه مما يتحدث عنه الناس ، وبعث بذلك مع على بن غانم وأعيان من رجال دولته (٣) .

ويذكر العمري (٤) أنه كان من أهداف هذه السفارات التعرف على الأحوال بالبلاد التي ترسل لها السفارة ، وفي ذلك يقول : وكان من عادة

(١) المقريزى : السلوك : القسم الاول ص ٢٢١ — ٢٢٣ .

(٢) السلاوى : الاستقصا لآخبار المغرب الأقصى ج ٣ ص ٦٥١ .

(٣) ابن خلدون : المعبر ج ٦ ص ٤١٦ — ٤١٧ .

(٤) نسالك الأبصار ج ٢ ص ٥٠٠ — ٥٠١ .

ملك السودان (مالى = التكرور) أنه اذا علم اليه أحد ممن بعث به أن يسأله عن كل ما رأى وسمع من بدء الرحلة حتى العودة .

وكانت هناك سفارات وهدايا من هذا النوع بين سلاطين الممالك بمصر والدولة العثمانية وبخاصة عندما استطاع العثمانيون فتح القسطنطينية .

وهكذا وضع الرسول صلوات الله عليه مبادئ العلاقات الدولية في السياسة ، وسار المسلمون على هذا النمط عبر التاريخ ، فقدموا للبشرية هذا النوع من العلاقات بعد أن لم يكن له وجود ذو بال في المجتمع البشرى .

سفير خائن :

وقد ذكرنا من قبل أن من الضروري أن يستوثق الملوك من إخلاص سفرائهم ، فيحافظ هؤلاء السفراء على أسرار الدولة ولو أدى ذلك إلى التضحية بأرواحهم ، فإنه إذا خان السفير وقعت الكارثة ، ويقص التاريخ أن أبا مسلم الخراساني كان يقيم في خراسان سيدا مطاعا ، وكان الخليفة أبو جعفر المنصور حاقدا عليه ، لكنه لم يكن يستطيع مواجهته بالحق وهو (أبو مسلم) في عرينه بخراسان ، وكان لأبى مسلم سفير دائم بالأنبار عاصمة العباسيين آنذاك هو أبو الجهم بن عطية ، والمفروض أن هذا السفير عين " لأبى مسلم ولسان له في عاصمة الخليفة ، ولكن السفير خان الأمانة ، واستجاب لأبى جعفر المنصور ليقوم بمؤامرة دبرتها لاستقدام أبى مسلم بحيلة أو بأخرى من خراسان إلى الأنبار ونجحت الحيلة ، وكان أبو الجهم بن عطية وسيلة لخداع أبى مسلم والتغريب به ليحضر من العرين إلى أرض لا حول له فيها ولا قوة (١) . وعندما حضر أبو مسلم إلى الأنبار كان الفتك به يسيرا ، فسقط البطل نتيجة خيانة سفيره .

(١) اقرأ القصة وتسلسل الخيانة بالجزء الثالث من موسوعة التاريخ

الكتب والرسائل

كان المسلمون يلجئون للسفراء — كما رأينا من قبل — إذا كانت هناك مفاوضات ومباحثات ليقوم السفير باسم المسلمين بهذه المفاوضات ، وليُشَرِّح اتجاهها يكون قد خفى على الجانب الآخر كما حدث بالنسبة لسفيري الرسول في الحديبية •

ولكن إذا كان الأمر المطلوب ليس موضع نقاش ومحاورة ، فإن الكتب والرسائل تكون أدق وأجدى ، لأنها تحمل بدقة المعنى الذى يريده الرئيس •

وستحدث فيما يلى عن بعض نقاط مهمة تتصل بالرسائل :

لغة الرسائل :

كان المسلمون يستعملون اللغة العربية في رسائلهم للعرب ولغير العرب ، وكانت الرسائل من غير العرب تأتى بلغات مرسلها غالبا ، ونتيجة لذلك كان المترجمون هنا وهناك يقومون بدور كبير ، وكانت الدواوين الإسلامية حافلة بمن يعرفون اللغات اللازمة ، وكان يشترط في هؤلاء المترجمين الدقة الكاملة ، والإخلاص العميق ، حتى تكون الترجمة تعبيراً دقيقاً للرسائل غير العربية ، وعندما تصل رسالة غير عربية يقوم المترجم المسئول بترجمتها في ورقة خاصة ترفق بالرسالة الواردة •

وتذكر المصادر العربية انه منذ مطلع الإسلام حشده الرسول صلوات الله عليه على تعلم اللغات الأجنبية ، وينسب له قوله : مَنْ تَعَلَّمَ لُغَةً فَهُوَ أَمِنَ مَكْرَهُمْ • وفى كتبه عليه السلام التى أرسلها للملوك والرؤساء —

والتي سنتكلم عنها بعد قليل — حرص على أن يكون حاملوها ممن يعرفون لغة المرسل إليهم^(١) .

ألقاب المرسل إليهم :

ومن الأشياء التي حرص عليها المسلمون في رسائلهم لغير المسلمين . استعمال الألقاب التي يُلَقَّب بها المرسل إليهم ، ويقول القلقشندي إنه كان لدى الدواوين الإسلامية سجلات بألقاب رؤساء الدول الأجنبية وعظماؤها ، ويحذّر القلقشندي من نتائج عدم الالتزام بهذه الألقاب لأن عدم الالتزام بها يحدث صدعاً في العلاقات^(٢) .

وكانت هناك ألقاب للملوك الكفر ، وألقاب للملوك المسلمين وعظماهم^(٣) .

صفات الكاتب :

ويتحدث القلقشندي عن الكتاب الذين يكتبون عن الملوك ، ويقرر أن هذا الكاتب يجب أن يكون على دين الملك ومذهبه ، وكذلك أن يكون من علو الهمة ، وقوة العزم ، وشرف النفس ، بالمحل الأعلى . والكان الأرفع . فإنه يكتب عن ملكه : وكلُّ كاتب يجرئه طبعه وجبلته إلى ما هو عليه من الصفات . فكلما كان الكاتب أقوى جانباً وأشدّ عزيمة ، كان على التفخيم والتعظيم والتحويل والترغيب والترهيب أقدر^(٤) .

دقة التعبير وجودة الورق . . .

وسنتحدث بعد قليل عن « كتابة المعاهدة » حيث نبرز ضرورة الدقة فيما يكتب ، وضرورة الاهتمام بنوع الورق والحبر والخط . . . فهذا شيء لازم في الرسائل وفي المعاهدات على السواء .

(١) أبو عبيد : الأموال ، وعبد الحى الكنانى : التراتيب الادارية
د ١ هـ ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢) صبح الاعشى د ١ هـ ١٣٤ .

(٣) انظر صبح الاعشى د ٦ هـ ٩٥ و ١٠٦ .

وسنورد فيما يلي بعض نماذج من الكتب والرسائل :

كتب الرسول للذُلوِك والرؤساء :

من أهم نماذج العلاقات الدوائية التي برزت في التاريخ الإسلامي ، تلك الكتب والرسائل التي بعث بها الرسول صلوات الله عليه إلى الملوك والأباطرة حول الجزيرة العربية ، أو إلى رؤساء العشائر والإمارات بالجزيرة العربية ، يدعوهم فيها أن يدخلوا هم وأتباعهم وشعوبهم دين الله ، ويبيِّن لهم مبادئ هذا الدين وقواعده ، وتذكر المصادر العربية نصيصة كتب الرسول إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين ، وإلى ملكي عمان ، ولحاكم اليمن ، وإلى النجاشي ، وكسرى ملك الفرس ، وقيصر إمبراطور الروم ، وإلى المقوقس حاكم مصر ، وإلى ملك الحبشة ، وغيرهم ، وقد صيغت هذه الرسائل صياغة كلها حكمة ودقة ، فالرسول فيها يدعو ولا يهدد ، ثم هو لا يقلل من مكانة الملوك والرؤساء ، بل يكتب لهم بالتواضع ، ويعترف بمكانتهم ، ويقرّر أن سلطانهم في ظل الإسلام باقٍ لهم ، وهو بذلك يؤكد أنه ليس طالب ملك ، ثم يذكّر كذلك أن هناك زكاة في أموال الأغنياء ولكنه يؤكد أن الزكاة لا تحلّ لمحمد ولا لآل محمد ، وإنما تؤخذ من أغنياء المسلمين وترد على فقرائهم ، وهو بذلك يؤكد أنه ليس طالب مال .

والرسول يخاطب كل ملك حسب ظروفه ، فإن كان من أهل الكتاب أشار إلى ما بين الأديان السماوية من روابط ، وإن كان من غيرهم أشار إلى التزام البشرية بالعودة إلى الله وترك عبادة ما سواه (١) .

وكان من عبقرية الرسول أنه أحسن اختيار مبعوثيه ، فكان كل منهم يعرف لغة البلاد التي أرسل إليها ، كما كانوا معروفين بالرشد

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ١٣١ .

(٢) اقرأ نصوص هذه الرسائل في كتاب الاسوال لأبي عبيد ، وفي صبح الأعشى ج ٦ ص ٣٧٧ وما بعدها ، وفي المكتبة الإسلامية لكل الأعمال للمؤلف ج ١ ص ٢٤ وما بعدها .

والحكمة . وقد نجح أكثر هؤلاء المبعوثين في شرح الفكر التي تدعو له
هذه الرسائل .

بين صلاح الدين وريتشارد :

ومن الرسائل المهمة التي حفظها لنا التاريخ ، ذلك لرسائل التي
دارت بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا .
وقد أثبتتها ابن شداد ^(١) ونقتبس منه أهم ما جاء بها :

كتب ريتشارد إلى صلاح الدين يقول :

إن المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخرّبت ديارهم ، وتلفت الأموال
والأرواح ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب ، والقدس متعبدا
ما نزل عنه ، والصليب خشبة عندكم لا مقدار له ، وهو عندنا عظيم ،
فيمنّ به السلطان علينا ، ونستريح من هذا العناء .

فأجابه صلاح الدين قائلا :

القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، إنه مسرى
نينا ، ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن نزل عنه ، والبلاد لنا ،
واستيلاؤكم عليها كان طارئا لضعف المسلمين آنذاك ، وأما الصليب فهلاكه
عندنا قربة عظيمة ، فلا يجوز أن نفرط فيه إلا لمصلحة أوفى منه .

من الظاهر بيبرس إلى بوهيمند :

ومن الرسائل المهمة رسالة الظاهر بيبرس إلى أمير أنطاكية .
وقد كانت أنطاكية أقوى إمارات الصليبيين بالشام في مطلع عهد الظاهر
بيبرس ، ولكن بيبرس استطاع أن يذكها ويستولى عليها ، وقد حدث
ذلك في غيبة أميرها بوهيمند الذي كان آنذاك في إمارة طرابلس ، فأراد

(١) سيرة صلاح الدين ص ١٩٤ .

الظاهر أن يدمر نفسيته حتى لا يفكر في استرداد أمارته فكتب له رسالة طويلة جاء فيها :

« زلنا انطاكية في مستهل رمضان ، وخرج عساكرك للمبارزة فكسروا ، وتناصروا فما نصروا ، وفتحناها بالسيف رابع شهر رمضان ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والدفاع عنها .

« فلو رأيت خيالك وهم حمرى تحت أرجل الخيل ، وديارك والنهاية فيها تصول ، وأموالك وهى توزن بالقنطار ، وجواريك وكل أربع منهم تبعن بدينار ، ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد دسرت ، وقبور البطارقة قد بعثرت ... لتيقنت أن قوة الله أعادت انطاكية إلى أهلها إلى الأبد ، وتركتك بدون عون أو مدد .

ولو رأيت قصورك وأحوالها قد حالت ، وكنائسك وقد زالت ، لكنت نفسك تذهب من حسرتك ، ولحاولت أن تطفئ النيران بماء عبرتك .

ولنتعلم أننا أنزلنا أصحابك من الصيامى ، وفرقناهم فى الدانى والقاصى ، وقد وهبك الله السلامة لأنك لم تكن لك بانطاكية آنذاك اقامة ، ولو كنت فيها لكنت الآن إما قتيلًا أو أسيرًا ، وإما جريحًا أو كسيرًا (١) .

المباهدات

أشار القرآن الكريم فى كثير من آياته إلى ضرورة الوفاء بالمعاهد ، وأثنى على من يلتزم بما نصت المعاهد عليه ، وهاجم من نكث الوعد وخرق العهد ، قال تعالى :

— وأوفوا بعهدهم الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها (٢) .

(١) ملحق السلوك للمعريزى ج ١ ص ٩٦٦ وما بعدها .

(٢) سورة النحل : ٩١ .

- وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ^(١) .
- .. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون .. ^(٢) .
- الذين عاهدتم منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة ^(٣) .
- أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ^(٤) .

وهذه الآيات الكريمة واضحة الدلالة على جواز المعاهدات وعلى ضرورة الوفاء بها ، وهى فى الوقت نفسه تحذر المسلمين من غير المسلمين الذين دأبوا على نقض المعاهدات ، أو على الأقل اندفع فريق منهم لرفضها .

وبناء على هذه التوجيهات السماوية لجأ المسلمون للمعاهدات حقنا للدماء ، ومحاولة للوصول إلى الأهداف بدون صراع ، ومنذ مطلع الإسلام كان هناك كُتَّابُ الوحي ، وفى نفس الوقت كان هناك كُتَّابُ المعاهدات ورسائل الرسول ، وبانتشار الإسلام واتساع الحركة بين المسلمين وغير المسلمين وُجِدَ ديوان الإنشاء والرسائل الذى كان يتولى تسجيل هذه المعاهدات ، وكان الرسول نفسه وخلفاء المسلمين من بعده يشرفون إشرافاً مباشراً على هذا الديوان ، ويشتركون فى إعداد المعاهدات ، يساعدتهم جماعة فى مستوى رفيع من الكفاءة والثقافة والدراية ، وقد أفاضت الدراسات القديمة والحديثة فى بيان الصفات الشخصية والعلوم المتعددة التى كان على هؤلاء الكتاب أن يَلِمُوا بها ^(٥) ، وسنذكر فيما يلى بعض قضايا عن المعاهدات :

(٢) المؤمنون : ٨ .

(٤) البقرة : ١٠٠ .

(١) الاسراء : ٣٤ .

(٣) الأنفال : ٥٦ .

(٥) دكتور عمر كمال توفيق : الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السليبية

مع الصليبيين ص ١٢٧ .

الحنكة والحكمة في المفاوض :

وكانت المفاوضات التي تسبق المعاهدات شاقة للغاية ، فإنها تبدأ والهوة واسعة بين الطرفين ، ثم تحاول الجهود التقريب بين الاتجاهين بالتنازلات من هذا الجانب أو ذاك ، والمفاوضات تبرز بشكل واضح أو خفى صوراً من الترغيب والتهديد ، ولك يجب على من يقوم بالمفاوضة أن يتَّسم بالصبر والحنكة والحكمة ، ثم وجب عليه أن يستشير معاونيه ومشيريه ، والتاريخ يسجل لنا مفاوضات الحديبية التي سنشير لها فيما بعد ، وما كان فيها من عناء ، واستشارة الرسول لأصحابه ، ورفض عمر بعض مواد المعاهدة المقترحة ... ولكن الرسول أبرمها لحكمة رآها ؛ وكان خيراً ما فعل ، وإذا قفزنا الى البطل صلاح الدين الأيوبي نجد أنه لم يكن ينفرد باتخاذ القرارات خلال المفاوضات مع ريتشارد ، بل كثيراً ما كان يلجأ لخاصته ومشيريه يسأل رأيهم ويستشيرهم ، وقد كان هذا من الأسباب التي جعلت الغرب يتلقى من المسلمين درساً في الشورى فلم يكن لهم في الشورى دراية من قبل .

كتابة المعاهدة :

فاذا نجحت المفاوضة دُوِّنت نتائجها في معاهدة ، ويكون التدوين واضحاً غير محتمل لتفسيرات متعددة ، وقد اهتم المسلمون بكل ما يتصل بتدوين المعاهدات ، فذكروا أن من الضروري استعمال الورق الفاخر المعروف بالورق البغدادي ، وأن يكون أبيض اللون ، كما اهتموا بالحديث عن نوع الحبر والأقلام التي تستعمل في كتابة المعاهدات ، وامتد كلامهم للحديث عن نوع الخط ومقدار البعد بين السطور وشكل تدوين المعاهدة بوجه عام (١) .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٦ ص ١٩٠ — ١٩٦ .

توقيع المعاهدة :

وقد حدد الفكر الإسلامى مَنْ له الحق فى توقيع المعاهدات ، وتحدث القلقشندى عن ذلك بوضوح فقال : والأصل فى المعاهدات أن تكون بين ملكين مسلم وكافر ، أو بين نائبيهما ، أو بين أحدهما ونائب الآخر ، على أن تكون النيابة مرشقة أى أن يكون للنائب الحق فى هذا التصرف ، ويتحتم توقيع الحاكم المسلم أو نائبه فى الأمور العامة التى تكون بين دولة ودولة ، ولكن إذا كان الأمر مرتبطا بشئ جزئى له صلة بالقرى والأطراف فقط فإن ولاية هذا الإقليم يجوز لهم التوقيع ، على ألا تنص هذه المعاهدة حقا من حقوق المسلمين ^(١) .

شروط المعاهدة :

وتكلم الفقهاء عن شروط المعاهدة التى يتقبلها الفكر الإسلامى ، فقلوا إنها لا بد أن تكون فى صالح الإسلام والمسلمين ، كأن ترفع المعاهدة حقنا لدماء المسلمين ، أو ترغيبا فى دخول غير المسلمين دين الإسلام ، أو تحاشيا لأزمات اقتصادية أو اجتماعية لدى المسلمين .

ويشترط كذلك ألا يكون فى بنود المعاهدة ما يخالف الإسلام لقوله عليه السلام : المسلمون على شروطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا . ومن الشروط المرفوضة أن يترك بأيدى أهل الحرب أسير مسلم أو مال مسلم ، أو أن يدفع المسلمون الجزية من غير حاجة ملصة لذلك ^(٢) .

ويضيف القلقشندى شروطا أخرى ينبغى أن يعمل ولي الأمر المسلم على تحقيقها ، فمن ذلك أن يكون لوليه مواليا ولعدوه معاديا ، وأن يستتر على أن يفترح عن فى حوزته ممن أحاطت به رقبة الأسر ،

(١) مسيح الأعشى ٥ ١٤ ص ٣ و ٧ .

(٢) مسيح الأعشى ٥ ١٤ ص ٧ - ٨ .

ومن ذلك أن يشترط أن يسلم بعض الحصون والقلاع والسواحل مما وقع الاستيلاء عليه من المسلمين ، ثم عدم التعرض لتجار المسلمين بسوء ، وأنه إذا انقضى أمد الهدنة على أحد من الطائفتين وهو في بلاد الآخرين أن يكون له الأمن حتى يلحق مأمنه (١) .

ومن الحالات الملحة أن عبد الملك بن مروان دفع جزية لامبراطور بيزنطة أيام خانت البلاد تجتاحها الثورات في مطلع عهده ، فلما تغلب عبد الملك على الثائرين عليه من شيعة وخوارج وعبد الله بن الزبير قطع الجزية وحرر الاقتصاد كما حرر السياسة (٢) .

ويغلب أن تكون المعاهدة محددة المدة كمعاهدة الحديبية أو غير محددة المدة كالمعاهدة التي وقعها الرسول في مطلع عهده بالمدينة مع اليهود ومع العرب الذين كانوا لم يدخلوا الإسلام بعد ، وعندما تكون محددة يمكن تجديدها إذا اقتضى الصالح العام ذلك .

نماذج من المعاهدات في الإسلام

سجل التاريخ الإسلامي لنا مجموعة من المعاهدات التي كانت تابعة ، للفكر الإسلامي ، وفي مقدمتها معاهدتان أجراها الرسول صلوات الله عليه ، وسنذكر فيما يلي بعض نماذج المعاهدات الإسلامية :

١ — معاهدة المدينة عقب الهجرة :

كان سكان المدينة بعد الهجرة ثلاث طوائف هم :

- ١ — المسلمون من المهاجرين والأنصار .
- ٢ — اليهود من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة .
- ٣ — العرب الذين لم يكونوا قد دخلوا الإسلام بعد .

(١) صبح الاعشى د ١٤ ص ٩ — ١١ .

(٢) اقرا المكتبة الإسلامية لكل الاعمار للمؤلف د ٣٧ .

وقد أراد الرسول أن يخلق جوا من التعاون والتسامح بين هذه الطوائف وبخاصة مع اليهود الذين كانوا يمثلون عنصراً مهماً في المدينة . فتقرب لهم الرسول ووثق صلاته بهم ، وتحدث مع رؤسائهم ، وأثر عنه عطفه عليهم ونزل هذا مَهْد لعقد معاهدة بين المسلمين وغير المسلمين لتصبح المدينة وحدة واحدة تدافع عن كيانها ، وتواجه أعداءها ، وتتعاون تعاوناً كاملاً في داخلها ، وقد أورد ابن هشام نص هذه المعاهدة (١) ، قدم لها بقوله : «وَأَدَعَ الرسول اليهود في هذه المعاهدة ، وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم ، وخلاصة هذه المعاهدة هي :

١ - أن للجماعة شخصية دينية وسياسية ، ومن حق الجماعة أن تعاقب المنسدد ، وأن تؤمّن المطيع .

٢ - على سكان المدينة من مسلمين وغير مسلمين أن يتعاونوا مادياً وأدبياً وعسكرياً ، وعليهم أن يردثوا متساندين أى اعتداء قد يَؤْجِجُه لمدينتهم .

٤ - الرسول هو الرئيس الأعلى لسكان المدينة ، وتعرض عليه القضايا الكبرى وصوّرُ الخلاف بين طائفة وأخرى ليفصل فيها .

وعلى الرغم من موقف المسلمين السامح في هذه المعاهدة ، وعلى الرغم من حسن معاملة الرسول لليهود ، اتضح أن اليهود لم يكونوا مخلصين لهذه المعاهدة ، وأنهم قبلوها ريثما يدبرون أمرهم كما ظهر من انحراف تصرفاتهم بعدها .

(١) سيرة ابن هشام ٢ ص ١٥٦ وما بعدها ، وقرأها كذلك في الجزء الأول من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف ص ٢٧١ وما بعدها .

٢ — صالح الحديبية أو معاهدة الحديبية :

في العام السادس للهجرة اتَّجَّه المسلمون نحو مكة يقصدون العمرة ، وليس لأحد أن يمنع أحداً من العمرة وزيارة الكعبة • وساق المسلمون الهدى دليلاً على أنهم معتمرون وليسوا محاربين ، ولبس المسلمون ملابس الإحرام دليلاً على ذلك ، ولم يأخذوا من آلات الحرب إلا السيوف في القرب لحراسة أنفسهم ، ودعا الرسول بعض العرب من غير المسلمين ليصحبوهم في رحلة العمرة •

ولكن قريشا — على الرغم من ذلك — رأت أن اقتحام المسلمين لمكة ضربة قاسية لهم ، وتأزمت الأمور ، وبدأت السفارة بين قريش والمسلمين كما وضحا من قبل ، وكَوَضَّحَ الرسول أن أهم نقطة تعنى بها قريش هي عودة المسلمين هذا العام ، وأن تؤجل العمرة للعام القادم ، فوافق الرسول على ذلك ، وتمَّ عقد معاهدة تناولت كل العلاقات بين المسلمين وقريش ، وأهم شروط هذه المعاهدة كانت :

١ — ألا تتم عمرة هذا العام ، بل تؤجل للعام القادم ، وتخلى قريش مكة للمسلمين مدة ثلاثة أيام بلياليها في العام القادم ، ويدخل المسلمون مكة بدون سلاح إلا السيوف في القرب •

٢ — أن تكون هناك هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات •

٣ — من أراد أن يدخل في عهد المسلمين دخل فيه ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه •

٤ — يرُدُّ المسلمون من يأتيهم من قريش مسلماً بدون إذن وليه .

٥ — لا ترُدُّ قريش من يعود لها من المسلمين (١) •

(١) اقرأ هذه المعاهدات والمناقشات حولها في موسوعة التاريخ الاسلامي للمؤلف ص ١٦٦ وما بعدها .

٣ — العهد العمرية :

بعد أن انتصر المسلمون على الروم في موقعة اجنادين ودمشق واليرموك انقسم جيش المسلمين قسمين اتجه قسم منه الى الشمال بقيادة أبى عبيدة بن الجراح ، فاستولى على حمص وحماة والملاذقية وحلب ... واتجه القسم الآخر للجنوب بقيادة عمرو بن العاص فاستولى على عكا وحيفا ويافا ووصل الى بيت المقدس ، وقد دافع الروم عن بيت المقدس دفاعا عظيما ، ولكن جنود المسلمين صبروا ، ولعبت السياسة دورها ، فقد اتصل المسلمون بالمسيحيين في بيت المقدس ، وكان المسيحيون يعانون المتاعب من حكم الروم ، كما كان المسلمون يعظمون بيت المقدس ولا يريدون مواصلة الضحايا من الجانبين ، وأحس " أرطوبون " قائد الروم بهذه المناورات تدور حوله فهرب الى مصر ، وطلب المسيحيون بيت المقدس الصلح على أن يحضر الخليفة بنفسه لتسليم المدينة ويتمهد لسكانها بالحرية الدينية وبرعاية مطالبهم الأخرى ، فكتب عمرو الى عُمَرَ بذلك فحضر عمر وكتب بنفسه « العهد العمرية » وأهم نصوصها ما يلي :

— هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، سقيمها ويريثها ، وسائر ملكتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من خيرها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود (١) .

— على أهل إيلياء أن يخرجوا منها الروم واللصوص ، ومن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم .

(١) اقرأ عن هذه المعاهدة في كتاب الاسلام أهد سلسلة مقارنة الانبياء للمؤلف ص ١٧٧ — ١٧٨ .

— ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير الى الروم فله ذلك وهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه (١) .

وتعتبر « المعاهدة العمرية » معاهدة من أهم المعاهدات في التاريخ الإسلامي .

٤ — معاهدة الظاهر بيبرس مع ملكة بيروت الصليبية :

كان الظاهر بيبرس قد تمكن — كما سبق القول — من الاستيلاء على إمارة انطاكية أهم الإمارات الصليبية في عهده ، وقد أحس أن سقوط هذه الإمارة استدعى تعاوناً مع الصليبيين الذين كانوا لا يزالون في بلاد الشام ، لعل التعاون يحفظ عليهم وجودهم ، ومن أجل هذا اتجه الظاهر بيبرس الى التفريق بينهم فأجرى هذه المعاهدة مع ملكة بيروت .

ومن العجيب أن صاحبة بيروت هذه كانت تكتسب نفسها ملكة مع أن الملكة الوحيدة التي كانت للصليبيين بالشام هي ملكة بيت المقدس ، أما غيرها فكان يسمى إمارات ، وقد سقطت مملكة بيت المقدس في أيدي المسلمين في عهد صلاح الدين الأيوبي ، ولكن الفرنجة ظلوا — كما يقول الدكتور عمر كمال (٢) — يحتفظون بهذا اللقب ويتصارعون عليه باسم أية صلة كانت بين الإمارات المختلفة ومملكة بيت المقدس قبل سقوطها .

والملكة التي تمت المعاهدة معها هي ايزابيلا ابنة يوحنا الثاني ابلين ، وقد جاء في هذه المعاهدة ما يلي :

استقرت الهدنة بين السلطان الملك الظاهر بيبرس وبين الملكة المصونة ايزابيلا ملكة بيروت وجميع جبالها وبلادها ، وهذه الهدنة عشر سنوات كاملة ...

(١) الطبرى ٤ ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(٢) الدبلوماسية الإسلامية والملاقات السلمية مع الصليبيين

ص ٢٥٤ .

وعلى الملكة ألاّ تمكّن أحدا من الفرنجة على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ، وتدفع كل متطرق بسوء •

وبعد ، هذه دراسة عن العلاقات الدولية في مجال السياسة ، تلك التي ابتكرها الإسلام وسار في ضوئها المسلمون ، وننتقل بعدها الى الحديث عن العلاقات الدولية في مجال الاقتصاد •

العلاقات الدولية

في مجال الاقتصاد

لم يقف الإسلام حائلاً دون تعاون اقتصادي* بين المسلمين وأتباع الديانات الأخرى ، وكل ما حرّمه الإسلام في مجال التجارة مع غير المسلمين أن هؤلاء التجار لا يجوز لهم أن يبيعوا للمسلمين السلع المحرّمة عليهم كلحم الخنزير وكالخمّر (١) .

وفي ظل ما أباحه الإسلام في هذا المجال استمر جانب* مهم من النشاط التجاري الذي كانت اليمن* ومكة مركزاً له قبل الإسلام وشجّع الرسول صلوات الله عليه ما استلزمه عهده من صور النشاط الاقتصادي مع غير المسلمين ، فقد أباح التعامل مع التجار من أهل الكتاب واقترض مرة* من يهودي ، ومات عليه السلام ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام* اشتراه لأهله .

عون إسلامي اقتصادي لقريش :

ومن العلاقات الاقتصادية الدولية التي قام بها الرسول في المدينة ما روي أنه عليه السلام عرف أن قريشاً بمكة تعاني من ضائقة اقتصادية عقب صلح الحديبية ، فأرسل إلى أبي سفيان زعيم مكة خمسمائة دينار يسهم بها في تخفيف هذه الضائقة .

وكان ثمامة بن أثال زعيم منطقة اليمامة الخصبة قد دخل الإسلام وجاء إلى مكة معتمراً ، وطاف بالبيت العتيق ، وأعرض عن الأصنام ، فأدركت قريش إسلامه وتهكمت به ، ورشقه المتسرعون بمعارات جارحة ، فأقسم ألا يبيع قومه لقريش ما كانوا قد تعوّدوا بيعه لهم من القمح ، وكان توقّف بيع القمح لمكة معناه مجاعة قاسية ، فأرسل المكيون للرسول

(١) انظر كتاب الفراج لأبي يوسف ج ١ ص ١٨٨ .

يطلبون منه أن يطلب من ثمامة أن يستأنف قومه ببيع القمح لأهل مكة ، فاستجاب لهم الرسول ، ورغب إلى ثمامة أن يفعل ذلك ، ففعل .

وقد فعل الرسول ذلك مع أنه لم يكن قد نسي ما فعلته قريش معه ومع أهله وأتباعه حينما دفعتهم إلى الشعب ، ومنعت عنهم تلّ طعام ، وحرّمت التعامل معهم ، ولكن الإسلام هو الإسلام والرحمة هي الرحمة .

مسلمون يعملون في مزارع اليهود بالمدينة :

ومن التعامل الاقتصادي اذى كان نشطاً بين المسلمين وغير المسلمين أن عدداً من المسلمين عقب الهجرة عملوا في مزارع اليهود ، كما أن المسلمين سمحوا لغير المسلمين أن يزرعوا أرض الخراج التي كانت مملوكة لشاهات فارس ، وسادة البلاد المفتوحة ، وصارت غنم الفتح ملكاً للمسلمين .

العملات الأجنبية في العالم الإسلامي :

وكان السدرهم الفارسي والدينار الرومي مستعملين في العالم الإسلامي قبل الإسلام ، وعندما جاء الإسلام استمر ذلك ولم ير المسلمون بأساً من ذلك ، ثم ظهرت النقود الإسلامية على النمط البيزنطي ابتداءً من عهد عمر بن الخطاب ، وكانت هذه النقود حتى عهد عبد الملك بن مروان تسير في فلك النقود البيزنطية شكلاً ووزناً ، ولم تكن هناك سوى إضافة إشارة إسلامية للدينار البيزنطي ، ثم جدت ظروف في عهد عبد الملك بن مروان ألزمت بسك نقود إسلامية (١) .

تجارة خارجية :

إن التبادل التجاري بين المسلمين وغير المسلمين بدأ مبكراً ويحكى الإمام أبو يوسف قصة ذلك فيقول : إن أهل منبج وهم قوم من أهل الحرب وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقولون :

(١) انظر تفاصيل ذلك في المكتبة الإسلامية لطل الإعراب ، ص ٣٧ .

دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشروننا ، فشاور عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، فأشاروا عليه به فكانوا أول من عتسروا من أهل الحرب (١) .

ويروى يحيى بن آدم أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب يقول : إن تجار المسلمين إذا دخلوا دار الحرب أخذ منهم العشر . فكتب إليه عمر : خذ أنت من تجارهم كما يأخذون هم من تجار المسلمين (٢) .

وقد حدد الفكر الإسلامي السامع التي يدفع عنها العشر بأن تكون قيمتها تساوي مائتي درهم ، أو عشرين مثقالاً على الأقل (٣) . أما إذا قلت عن ذلك فلا عشر فيها ، لأنها لا تصب سلعاً تجارية بل هي للاستعمال الشخصي أقرب .

وفي مصر منذ عهد مبكر أعيد حفر خليج أمير المؤمنين الذي ربط النيل بالبحر الأحمر سنة ٢٣ هـ (٦٤٤ م) وسرعان ما أصبحت هذه القناة عاملاً مهماً في تنشيط التجارة بين القلزم (البحر الأحمر) والفسطاط على النيل ، فقد صار خليج أمير المؤمنين مسلكاً للتجار ، فكانت السفن تسير فيه بين شواطئ مصر النيلية وبين الجزائر واليمن والهند وموانئ البحر الأحمر ، وعن هذا الطريق توافرت بالسوق المصرية سلع الشرق الأقصى من الحرير والتوابل والفلل والقرقة والزنجبيل وغيرها من سلع الهند وشرقي أفريقيا (٤) .

وعندما رُدِّم خليج أمير المؤمنين في مطلع عهد المماليك (٥) انقضى النشاط التجاري الإسلامي للبحر المتوسط ، فقد كان هناك تبادل تجاري

(١) الخراج لأبي يوسف ص ١٦١ — ١٦٢ .

(٢) الخراج ليحيى بن آدم ص ١٧٣ .

(٣) الخراج لأبي يوسف ص ١٥٩ .

(٤) المقرئ : الخطوط ج ٢ ص ٢٢٦ وما بعدها .

(٥) انظر من ذلك الجزء الثالث من موسوعة التاريخ الإسلامي .

بين الاسكندرية والموانئ المسيحية بأوروبا ، فكانت الأخشاب تترد لمصر عن طريق البندقية ، وكانت بيزنطة تستورد ورق البردي من مصر ، وكانت الموانئ الإسلامية في سوريا ومصر والشمال الإفريقي على صلة بالموانئ بجنوب إيطاليا وفرنسا ، وبخاصة جنوة والبندقية وبروفانس ، كما كانت هناك تجارة مع شمال أوروبا وصلت إلى فنلندا والسويد والنرويج ، وقد عثر على نقود إسلامية يرجع تاريخها إلى العصر العباسي في الدول المذكورة .

ومن الواضح أن تجارة المسلمين مع الدولة البيزنطية كانت أكثر نشاطاً من تجارة المسلمين مع غربي أوروبا ، وقد استمر ذلك عدة قرون ، إذ كانت دول أوروبا الغربية يغلب عليها الاقتصاد الزراعي ، ولكن بمرور الزمن لعبت جنوة وبروفانس دوراً كبيراً في ربط العالم الإسلامي تجارياً بكل دول أوروبا مما يوضحه ما أشرنا إليه آنفاً من العثور على نقود إسلامية في دول شمالي أوروبا الغربية كالسويد والنرويج ، وكان اهتمام الأوروبيين شديداً بالتوابل الشرقية والبحار كالقرفة والقرنفل والزنجبيل ، وكذلك بالعطور والعقاقير والبخور أما العالم الإسلامي فقد كان يستورد الأخشاب والحديد والنحاس والرقيق الذي كان يجلبه التجار الأوروبيون .

الإمارات الصليبية والتجارة :

وعندما أقام الصليبيون سلطانهم في بعض نواحي الشام عقب نجاح الحملة الصليبية الأولى اتجه أمراؤهم لتكوين مراكز للشراء في الشرق ، فتخلصوا من كثير من الجنود ، وغلب عليهم الحرص الاقتصادي ، ولكنهم أدركوا أنهم ليست لهم بحرية تحمي حدودهم الغربية المطلّة على البحر المتوسط ، أو تربط بينهم وبين أوطانهم في أوروبا ، فمقدوا معاهدات مع المدن التجارية في جنوب أوروبا وبخاصة جنوة وبيزا والبندقية وبروفانس وتقضى هذه المعاهدات بأن يشارك للمدن التجارية أجزاء من المدن الساحلية بالشام يكون لها شبه استقلال سياسي واقتصادي وتجاري ، فأصبح لهذه الجاليات ما تحتاجه من كنائس

وأسواق ومخابز ومخازن بالإضافة إلى القضاء الخاص وعدم دفع مكس وضرائب ، مما جعل الإمارات الصليبية لا سلطان لها على هذه التجمعات المرتبطة بالمدن التجارية .

وفي كثير من الأحوال عثيت هذه الجاليات بنشاطها الاقتصادي أكثر من عنايتها بالدفاع عن الإمارات الصليبية ، فكانت هذه الجاليات على صلة طيبة بالمسلمين ، وطالما عكّدت مع المسلمين مآهات تجارية ، ثم إن هذه الجاليات كثيرا ما تنافست بعضها مع بعض مما أثار حروبا بينها ، وكل هذا أضعف البنيان الصليبي ، وهى الانهيار للإمارات الصليبية (١) .

على أن الدراسة السابقة توضح أن الجانب الاقتصادي غلب على الجانب الدينى عند المسيحيين الغربيين ، وكذلك عند الصليبيين إبان وجودهم في الشام ، وزاد المسيحيون اهتماماً بالتجارة مع المسلمين عندما رأوا أن العائد المالى لهذه التجارة وفير ، ويذكر الدكتور عمر كمال أن المؤرخ الصليبي وليام الصوري الذى كان من كبار رجال الكنيسة سجل في تاريخه أن من تهوَّج « المكابرين » من الصليبيين اندفاعهم أن يقوموا بعدوان على مصر ، فإنهم بذلك يجهلون مصلحة الفرنجة التى كانت مرتبطة إلى حد كبير بالسلام والتجارة مع المسلمين (٢) .

وهذا الاتجاه يقرره ابن جبير كذلك ، فيتحدث عن التجارة الدائمة بين دمشق وعكا مع أن الحرب مستمرة كذلك بين المنطقتين ، ويختم ابن جبير كلامه متمجِّباً من ازدواجية العلاقات بين السلم والحرب ، وبين المسلمين والصليبيين ، فيقول ابن جبير في ختام كلامه عن هذا التبادل التجارى : وشأن هذه البلاد أعجب من أن يستوفى الحديث عنه (٣) .

(١) دكتور عمر كمال : الدبلوماسية الإسلامية من ٨٥ - ٨٦ بتصرف .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٦١ .

تجارة مع الشرق الأقصى :

كان هناك أيضا نشاط تجارى بين العالم الإسلامى ودول الشرق الأقصى وكان هذا النشاط يتخذ طريق البرّ في شمالي سوريا والعراق وإيران إلى الهند والصين أو يتخذ طريق البحر بواسطة البحر الأحمر والخليج العربى إلى الهند والصين أيضا ، وكانت الأخشاب والفيلة والتوابل أهم ما يستورد ، كما كان النسيج والحبوب أهم ما يصدر لهذه البلاد .

وكانت هناك تجارة واسعة بين العالم الإسلامى وبين قلب افريقية ، وكان الذهب والأبنوس والعاج تستورد من هذه المناطق عن طريق زيلع وعدن في مقابل النسيج والملابس ، وبعض الصناعات الدقيقة التي كانت تصدر لهذه المناطق ، وكان الأسطول الإسلامى هو الذى يقوم بحمل الصادرات ويعود حاملا المستوردات .

صادرات إسلامية أخرى للعالم :

وصلت بعض الصناعات في العالم الإسلامى إلى درجة عظيمة من الرقى ، وكانت هذه تصدر لأوربا ، ومن شدة إعجاب الأوربيين بها أخذوا يقلدونها ، وبخاصة فيما يتعلق بالملابس والجلود وقد حفظت لنا اللغات هذا التصرف ، فإن الأوربيين عندما اقتبسوا هذه الصناعات اقتبسوا اسمها أيضا ، وفيما يلى نموذج من هذه الصناعات كما حفظتها اللغات الأوربية : Cordovan : جاد ، وقد جاء في Oxford Dictionary في تفسير هذه الكلمة ما يلى : جلد منسوب إلى Cordova (قرطبة) لشهرتها في صناعة الجلود في العمور الوسطى .

Morocco : جلد لين سُمى كذلك لصلة صناعته الأصلية بمراكش .

Domask : قماش مشجر اقتبست صناعته من دمشق .

Fustat : قماش ناعم اقتبست صناعته من القسطنطينية (١) .

وكانت دمياط والاسكندرية والفيوم والبهنسة مشهورة بصناعة أرقى أنواع السيج الذي يصدر للخارج ، وفي متحف برلين قطعة من السيج المصرى باسم الخليفة المعتمد على سنة مؤرخة ٢٧٨ هـ وقطعة أخرى باسم الخليفة المكتشى والأمير هارون بن خملوية مؤرخة سنة ٢٩١ هـ (٢) .

صناعة الورق وتصديره :

ومن أهم الصناعات التى أجادها العرب فى وقت مبكر صناعة الورق ، وقد أخذ العرب هذه الصناعة عن الصينيين وسرعان ما انتشرت مصانع الورق فى العالم الإسلامى ، فأنشئ مصنع للورق فى بغداد سنة ٧٩٤ م ثم فى مصر سنة ٨٠٠ م وانتقلت هذه الصناعة مع المسلمين إلى اسبانيا ، وصدر العالم الإسلامى الورق الى أوروبا حتى انتشرت مصانعها بأوروبا بعد ذلك (٣) .

مصر والتجارة الخارجية :

استقلت مصر استقلالاً تاماً عن الخلافة العباسية ابتداء من عهد الفاطميين ، وبدأت صلات وثيقة بين مصر وأوروبا ، وبخاصة أن مصر فى العهد الفاطمى امتد سلطانها لتشمل الشمال الغربى أى كانت لمصر كل شواطئ البحر المتوسط الجنوبية تقريباً ، وامتد سلطان الفاطميين الى الشام مما جعل أكثر شواطئ البحر المتوسط الشرقية تابعة لمصر أيضاً ، ومن هنا فقد قامت حركات تجارية واسعة بين موانئ مصر الفاطمية (دمياط ورشيد والاسكندرية) وبين الشواطئ الشمالية للبحر المتوسط ، فظهر نشاط واسع بين الموانئ المصرية وبين جنوة والبندقية وبيزا وبروفانس ،

(١) املة كثيرة أوردها Prof. Sharif فى كتابه Muslim Thought

(٢) دكتور حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ١٧٤ .

(٣) قصة الحضارة المجلد الرابع .

كما كانت مصر معبراً لأوروبا لتصل بتجارها الى آسيا ، وقد ظل ذلك حتى اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح في عهد المماليك .

ومما يذكر أن مصر والشام حللتا محل المراكز الصليبية التي كانت موجودة قبل سقوط الصليبيين ، ومما زاد من أهمية ذلك أن الطرق البرية بين أوروبا وآسيا عبر الأناضول كانت قد دمرتها تحركات المغول ، مما استلزم أن تصبح التجارة بحرية بين أوروبا وآسيا عبر مصر والشام ، وهكذا كانت سواحل مصر الشمالية أسواقاً يَرِدُ لها الأوربيون من حين الى آخر لبيعوا من حاصلاتهم وليبتاعوا من حاصلات مصر ، ومن حاصلات الهند والصين والهند الصينية واندونيسيا التي كانت ترد الى الموانئ المصرية ، وقد ظل ذلك حتى اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح في أواخر القرن الخامس عشر .

الأسواق :

كان للعرب قبل الإسلام معرفة بالأسواق ، فقد كان عندهم سوق مجنة وذى المجاز وغيرهما ، وعندما جاء الإسلام اتسعت الأسواق وزادت نظاماً ودقة واتسعت للمسلمين وغيرهم ، وأصبحت مراكز مهمة من مراكز التبادل الاقتصادي ، ومما زاد في أهميتها وجود بعض الخبراء الموظفين فيها لضبط التعامل بها ، فقد كان فيها موظف اسمه « الناقد » وكان عمله تمييز الدراهم والدنانير والتأكد من سلامتها ، كما كان هناك « المحتسب » وهو موظف شديد الخطورة وهو مسئول عن نظام الأسواق وترتيب طرقها ، ومسئول عن محاربة الغش فيما يعرض بالسوق من سلع ، ومسئول عن المكايل والموازين ودقتها ، ومسئول عن سلامة الحيوانات التي تعرض بها للذبح ^(١) .

(١) ابن تيمية : الحسبة في الاسلام ص ١٢ و ١٣ .

وظائف لغير المسلمين في أرض الإسلام :

كان الرسول صلوات الله عليه واصله واضع هذا الدستور حينما جعل فدية بعض أسرى بدر أن يعطوا أطفال المسلمين القراءة والكتابة ، ويعتبر هذا التصرف قريبا من الوظيفة أو هو وظيفة ، فالفدية تكون مالا ، والتعليم مقابل " للفدية فكأنه مال دفع للمسلمين ، أو كأن المسلمين دفعوا بعض المال لهؤلاء نظير تعليم أطفال المسلمين ، المهم أنه كان نوعا من التعامل والتبادل .

وقد امتد هذا في عهد عمر بن الخطاب ، فيرى أنه استعمل بعض أسارى قيسارية ككتبه له ووظفهم في الدولة .

واتخذ أبو موسى الأشعري كاتباً نصرانيا ، وفي عهد الدولة الأموية توسع الخلفاء الأمويون في هذا النطاق ، فاتخذ معاوية طبيباً نصرانيا ، وأصبح يوحنا الدمشقي مستشاراً لعبد الملك بن مروان .

ويقرر التاريخ أن المسلمين فتحوا باب الخدمة في الدولة لكل السكان على اختلاف أديانهم ونحلهم ، فلما عرّجت الدواوين كان لزاماً على هؤلاء أن يعرفوا اللغة العربية ، ليحتفظوا بوظائفهم (١) .

ومكذا كانت هناك مجالات كثيرة لنشاط اقتصادي عظيم بين المسلمين وغير المسلمين ، مما عاد بالرفاهية على الجميع في ظل القيم الإسلامية .

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي للمؤلف د ه ص ٥٤ .

العلاقات الدولية

في المجال الاجتماعي

هكذا نتحدث عن العلاقات الدولية التي ابتكرها الاسلام في المجال الاجتماعي يجب أن نبدأ بعرض الآيات القرآنية التي تتحدث عن العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين ، وأول آية نوردتها هي قوله تعالى « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » ^(١) وواضح أن هذه الآية تتحدث عن نقطتين ترتبطان بالعلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأهل الكتاب ، وهاتان النقطتان هما :

١ - للمسلم أن يأكل من طعام الكتابي ، وللكتابي أن يأكل من طعام المسلم ، وتبادل الطعام والضيافة يؤكد البرّ وحسن المعاملة .

٢ - للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب ، والإسلام بذلك يقرّر مبدأً لم يسبق إليه وهو أن الإيمان بالله يمكن أن يصبح دعامة تقام الأسرة عليها ، وهدف الإسلام من ذلك خلق لون من الترابط بين الذميين والمسلمين ، والعمل على أن تنتشر المحبة والألفة بين هؤلاء وأولئك ، وواضح أن الذمية في ظل الإسلام ستبشر بتعاليم دينها دون اعتراض من الزوج ، وستجد أن الزوج يحترم نبيّها ويحترم الكتاب الصحيح المنزل عليه لأن الإسلام يحتّم ذلك عليه ^(٢) .

وقد يقال : لماذا لا يجوز للذمي أن يتزوج مسلمة ؟

والجواب أن غير المسلمين لا يعترفون بمحمد نبيا ، ولا يتجاسون القرآن الكريم ، ولا تشريعات الإسلام ، ولا شك أن زواجا كذلك لو تمّ لأحدث ضررا كبيرا للزوجة ، وسيجعلها تعاني من معاشرّة زوج لا يحترم

(١) المسألة : الآية الخامسة .

(٢) انظر الحياة الاجتماعية في الفكر الاسلامي للمؤلف ، الطبعة الخامسة

ص ٤٤ لدراسة بعض التفاصيل المهمة .

عقيدتها ولا كتابها المقدس ، ولا التزاماتها الشرعية ، مما يجعل الحياة الزوجية مستحيلة الاستمرار . ومن أجل هذا منعها الإسلام .

كَوْنٌ واحد ، له مدبرٌ واحد :

وبعد الحديث عن الآية القرآنية التي أباحت تبادل الطعام وأباحت أن يتزوج المسلم من أهل الكتاب ، بعد هذا نتجه الى نقطة أخرى تعتبر قمة النظم الاجتماعية ، تلك النقطة هي أن هذا الكون له ملكٌ واحد ، هو خالقه ومدبره ، والأثر الذي يترتب على هذه العقيدة هو أن العالم كله تابعٌ لمركز واحد ، وبالتالي فإن بين أجزائه الكثيرة ترابطاً قوياً يجذبه لهذا المركز الواحد ، وأية محاولة لخلق هوة اجتماعية بين سكان هذا الكون ليست إلا تمرداً على حقيقة واضحة .

الوحدة الإنسانية :

والعالم في واقعه مقسم الى شعوب وقبائل ، وكان الوضع قبله الإسلام يتجه الى اعتبار هذا التقسيم دليل فرقة ، وبالتالي سبب صراع وتنافر ، فلما جاء الإسلام أعلن القرآن الكريم أن هذا التقسيم يجب أن يذفع الناس للتعارف والود ، وليس للخلاف والقطيعة ، قال تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوياً وقبائل لتعارفوا » (١) .

وأيد الرسول صلوات الله عليه هذا الاتجاه فقال في حجة الوداع : أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى . فالرسول في هذا الحديث يؤكد الوحدة الإنسانية أولاً ثم — ثانياً — يدعو الناس للتواضع عندما يذكرهم بأن أباهم من تراب ، وثالثاً يسوّي بينهم ويوضح أن السبيل للتفريق هو العمل الصالح ، وهذا الاتجاه من أهم الأسس لتوثيق العلاقات الاجتماعية وربط الناس بعضهم ببعض .*

(١) الحجرات : ١٣

والإسلام بهذا الاتجاه يضع حداً للنظم الطبقيّة التي كانت شائعة في المجتمعات ، والتي كانت تقطع الصلات الاجتماعيّة بين البشر ، سواء كانوا في دولة واحدة كالهند التي كانت مركزاً لتفاوت طبقي خطير ، أو كانت في دول متعددة كالقوى الكبرى التي كانت تسيطر على القوى الصغرى وتعتبرها من الأتباع الذين تنحدر درجتهم عن درجات الغزاة •

الحرية اسمى المنح الاجتماعيّة :

وكانت العبوديّة شائعة في كثير من الجماعات البشريّة ، والطبقات في الهندوسية مثلاً نصّت على أن « الملك إله في صورة إنسان فوق الأرض وإن كان طفلاً رضيعاً » وألزمت طبقات الشعب أن تقدّم له أعماق الإجلال ، ولم تسمح بنقده أو التخليق على تصرفاته ، وقد جاء في شرائع « منو » ما يلي : ويأمر الملك بصبّ زيت حار في فم الشودرا (أدنى طبقات المجتمع الهندي) ، وفي أذنيه إذا ما بلغ من الوقاحة ما يثبّدري به رأياً للبراهمة في أمور وظائفهم (١) •

وأعلنت اليهودية أن اليهود شعب مختار ، وأنهم طبقة خاصّة بين شعوب الأرض ، وأعطتهم الحرية دون سواهم •

واستغلت الكنيسة المسيحية الشعب المسيحي أسوأ استغلال وحرّمت عليه قراءة آلاف الكتب • • •

وجاء الإسلام فمنح البشريّة حرية الفكر والبحث وحرية التدين ، والحرية السياسيّة ، وصرخ عمر بن الخطاب صرخته الشهيرة مستنكراً أية محاولة للضغط والقهر قال : كيف استبعدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً •

وفي ظل الحرية تعامل المسلمون مع غير المسلمين في هدى النور الذي قدّمه الإسلام للمجتمع البشري •

(١) انظر اديان الهند الكبرى للمؤلف ص ٥٩ •

حقوق المرأة :

كانت المرأة في العالم كله مهضومة الحقوق ، والمرأة نصف المجتمع تقريبا ، فقدّم الإسلام لها حقوقها كاملة ، ولعبت المرأة دورا كبيرا في تنظيم العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين ، فالمرأة المسلمة بعد أن انطلقت من عقالها أصبح لها رأى في تصريف الأمور ، والمرأة بطبيعتها فيها صفاء وسماحة فأضفت طبيعتها على العلاقات يسرا وخيرا ، ومثل ذلك ما فعلته المرأة في كثير من الأحوال في المجتمعات غير الإسلامية عندما تسربت أفكار الإسلام لغير المسلمين .

ثم إن حقوق المرأة وحريتها انعكست على أولادها وعن طريق الأولاد عندما صار الزمام في أيديهم اتسع نطاق العلاقات الدولية ، وحلّ الوثام محل الخصام ، ولا شك أن الهوان والذلة والاهمال وغيرها من الصفات التي كانت نصيب المرأة قبل الإسلام قد انعكست على هذه المجتمعات نارا ولهبيا ، لأن حنان المرأة كان قد غاب وأفل عن المجتمعات ، وانطلقت القسوة والشراسة والدم بدل هذا الحنان الذي يتفجر من ينباع الجنس اللطيف .

والمرأة عندما تكون لها حريتها وحقوقها يكون لها صوت في مجتمع الأسرة وفي العلاقات الأسرية والدولية ، وهو صوت أميّل للبر ، ولكن عندما كان هذا الصوت معدوماً فتكدت العلاقات وسيلة مهمة من وسائل الارتباط والتعاون .

أما مدى التعاسة التي كانت تعيشها المرأة قبل الإسلام ، ومدى ما قدّمه الإسلام لها فقد دوّنناه في مكان آخر من بحوثنا وكتبنا ^(١) .

(١) انظر كتاب الاسلام وكتاب الحياة الاجتماعية في الفكر الاسلامي والمكتبة الاسلامية لكل الاعمار — المؤلف .

الحسبة على الأخلاق والاتجاهات :

وهناك نقطة مهمة يثيرها الأستاذ أبو الحسن الندوي ^(١) فيذكر أن القرآن الكريم ألزم المسلمين برعاية سلوك الأفراد والأمم ، وقرر أن المسلمين يحاسبون إذا قصروا في هذا الواجب الذي أعلنته الآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » ^(٢) .

وبناء على هذا التوجيه تلتزم الأمة الإسلامية بواجب اجتماعي خطير هو رعاية الالتزام بالسلوك الحميد للفرد والجماعة ، ونصر المظلوم ومنع الظالم من الظلم ، وذلك قمة العلاقات الدولية السليمة .

الأخلاق الإسلامية تتبّع مع الجميع :

وننتقل الى آيات الأخلاق وهي كثيرة جدا في القرآن الكريم ، والمسلم ملتزم باتّباعها مع المسلم ومع غير المسلم ، فالصدق والوفاء بالوعد ، والصبر والحلم ، والعدل ، والدعوة الى الخير ، وحق الجار ، ثم محاربة الرشوة ، والكبر ، والغرور ، والحسد ، كلها وغيرها صفات ألزم الإسلام كل مسلم أن يتمسك بها في جميع تعامله مع المسلم ومع غير المسلم ^(٣) وقد أشرنا لذلك من قبل .

الزكاة لكل الفقراء مسلمين وغير مسلمين :

ولننتقل الى الآية الكريمة التي تحدد مستحقي الصدقات ، وهي قوله تعالى « إنمّا الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » ^(٤) وعندما

(١) الإسلام : اثره على الحضارة وفضله على الانسانية ص ١٠٣ .

(٢) المائدة : ٨ .

(٣) اقرأ الآيات الكريمة من هذه الموضوعات وشربها في المكتبة

الإسلامية للمؤلف ج ٢٤ و ٣٥ .

(٤) التوبة : ٦٠ .

رأى عمر بن الخطاب شيخا يهوديا يسأل الناس ، سألته عمر : ما الذى حملك على السؤال ؟ فأجاب : الحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب به الى منزله حيث أعطاه عطاء سخيا ، ثم أرسله الى خازن بيت المال مع رسالة قال فيها : انظر هذا وضرياءه ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم خذلناه عند الهرم . إنما الصدقات للفقراء والمساكين وهذا من مساكين أهل الكتاب .

التخمة والجوع بين الغرب والشرق :

ونتوقف قليلا لننطق على هذا الموقف الرائع فإن الإسلام لا يقبل أن يبيت إنسان شعبان وجاره جائع وهو يعلم ، فما بالك أن توجد تخمة وترف في جانب ، وجوع وفاقة في جانب آخر ، وقد شاهد جيلنا مجاعات قاتلة انتشرت بإفريقية نتيجة الاستعمار والجفاف ، ولكن الغرب الذى أعماه الفنى أعرض عن هؤلاء المساكين وتركهم يبحثون عن الفتات في القمامة ، أو تركهم يموتون جوعا .

كم أخذ الغرب من المواد الخام التى تزخر بها أرض افريقية * ولكن الغرب لم يهبى لإفريقية وسائل للحياة الكريمة قبل أن يتركها ، فلما أرغم الغرب على ترك افريقية تركها للمجاعات والحرمان ، وقنع بأن ينشر على العالم صور الجوع والمحرومين كأنها صور ينلها بها السادة في الغرب ، أرض الترف والرخاء .

ولم يكف الغرب بهذا بل راح يطالب دول إفريقية بتسديد الديون وفرائدها ، ويهدد بأن أى تقصير فى ذلك سيستلزم مزيدا من التعذيب والتنقيب ، ونؤكد أنه لو انتشر الفكر الإسلامى بين جماعات المثقفين لما وجدنا هذا المظهر على الكرة الأرضية ، فلم تعد الكرة الأرضية مترامية الأطراف كما كان يُعتقد من قبل ، بل تضاملت هذه الدنيا أمام المخترعات الحديثة التى قربت بين المسافات ، وينبغى أن تقرّب بين الأفكار .

لقد قدّم عمر بن الخطاب منذ أربعة عشر قرنا الى هذا الشيخ ما يكفيه من زكاة مال المسلمين ، وقرر عمر أن هذا الشيخ وأمثاله

يستحقون نصيباً من هذه الزكاة ، وفسّر عمر دلمتى « الانقراء والمساكين »
الواردين فى الآية التى تذكر مستحقى الزكاة بالشمول الذى يضم
فقراء المسلمين وفتراء أهل الكتاب على السواء .

ما رأى المفكرين فى هذا الموقف ؟

وماذا يقول تقدّمهم العظمى بعد أربعة عشر قرناً ؟

وماذا نرى لو وضعنا عمر فى كفة ووضعنا زعامات اليوم فى كفة
أخرى ؟

أغلب الظن أن من يقرأ هذا الكلام من الغربيين سيحسّ بخجل ،
وسيدرك أن التقدّم العلمى الهائل الذى يشهده جيلنا لم يصاحبه تقدّم
روحى ، بل خلق جواً أقرب إلى البلادة والجهود .

حرمة الربا مع كل الناس :

وإذا جئنا إلى آيات الربا وجدنا الإسلام يحرم الربا على كل
الناس مهما اختلفت ديّارهم وأديانهم ، وليس الإسلام كاليهودية التى
تحرم الربا بين اليهودى واليهودى ولا تحرمه بين اليهودى وغير اليهودى
وقد جاء فى التلموذ : غير مصرح لليهودى أن يقرض الأجنبى إلا بالربا
ولأخيك اليهودى لا تقرض برى (١) .

المساواة بين البشر جميعاً :

ذكرنا آنفاً أن الإسلام يقرر المساواة بين البشر ، وأن التفاضل
بينهم يكون بالعمل الصالح وفى ذلك يقول تعالى « يا أيها الناس إنا
خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم
عند الله أتقاكم » (٢) .

وهذا الاتجاه فى الإسلام يخالف اتجاها اليهود الذين يرون أنهم
الشعب المختار وأنهم أفضل البشر مستمدين على بعض الخرافات
أو الفهم المنحرف لبعض النصوص ، ومن النصوص التى انحرفوا فى

(١) الكنز المرصود ص ٥٦ و ٦٥ والتلموذ شريعة اسرائيل ص ٢٢ .

(٢) الحجرات : ١٣ .

فهما قوله تعالى « وفضلناهم على العالمين » فقد التقطوا هذه الجملة دون أن يربطوها بما قبلها وما بعدها من كلمات الله ، ولو وضعنا أمامنا الآيات كاملة لا تضح تحريفهم لما أراد الله سبحانه وتعالى ، يقول تعالى « ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ، وزرقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ، وآيتيناهم بينات من الأمر ، فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ^(١) » والمعنى أن الله منحهم منا لم يمتحه غيرهم من مجموع التوراة والحكم (السلطة) والنبوات الكثيرة ، وهو بذلك أعطاهم ما لم يعط سواهم ، ومع هذا ضلوا ، وتقرر. الآيات شيئا عجيبا هو أن ضلالهم ظهر بعد أن جاءهم العلم والنور ، فبدل أن ينتفعوا بالعلم ضلوا به ، فكان ذلك بغيا وطنيانا ^(٢) .

وحتى المسيحيين أنكروا ادعاء اليهود ففى أهرام الجمعة ١٣ فبراير ١٩٨٧ يقول البابا شنودة : أنه لا يمكن أن يخص الله سبحانه وتعالى بضعة ملايين من خلقه بمكانة خاصة دون سائر البشر ، فالخلق عند الخالق سواء يتفاضلون بالعمل الصالح .

تلك هى بعض توجيهات القرآن فى المجال الاجتماعى ، فلنتجه للرسول صلوات الله عليه لفرى تصرفاته الواقعية فى هذا المجال :

الهدايا بين المسلمين وغير المسلمين :

لعل من أبرز الهدايا التى جاءت للرسول من دولة أجنبية تلك الهدية التى أرسلها إليه المقوقس حاكم مصر ، وكانت تشمل مارية المصرية واختها سيرين وأشياء أخرى ، وقد قبل الرسول هذه الهدية وأعتق مارية وتزوجها ، كما قدم سيرين هدية منه لسان بن ثابت .

ومما يرتبط بالهدايا أيضا قوله تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم أن الله يحب المقسطين » ويقول المفسرون إن هذه الآية نزلت فى أسماء بنت

(١) سورة الجاثية : ١٥ — ١٦ .

(٢) انظر كتاب الاسلام للمؤلف ص ٣٩ .

أبى بكر الصديق من زوجته التى طلقها قبل الإسلام واسمها « قتيبة » فقد جاءت هذه الأم لزيارة ابنتها أسماء ومعها بعض الهدايا التى تشمل قرطا ذهبيا وأشياء أخرى ، وكانت قتيبة لم تدخل الإسلام ، فترددت أسماء فى قبول هدية أمها وذهبت للرسول تستشيريه فنزلت هذه الآية ، وبها قبلت أسماء هدية أمها التى جاءت من أرض الكفار •

وواضح فى الآية أيضا أنها توصى المسلمين بأن يكونوا برّرة وعدولا مع غير المسلمين ما دام هؤلاء لم يعتدوا على المسلمين •
تكريم جنازة يهودى :

ويروى أن الرسول رأى جنازة فوقف إجلالا للموت وهيبة له ، فقيل له : إنها جنازة يهودى • فقال : أليست نفسا ؟

تسامح الرسول مع من اعتدوا عليه :

وتعرض الرسول لألوان من العدوان من قريش ومن غيرهم من سكان الجزيرة العربية والروم والفرس ، ولكن لم يُعترف عنه قط ميل للانتقام ، بل كان تسامحه واسعا ، ويقول عنه واشنجتون أرفنج : إن من أبرز صفات محمد التى حققت فوز الإسلام تسامحه مع خصومه ، ولسنا نعرف فى التاريخ رجلا كمحمد فى هذا المضمار ، لقد تسامح فى أوقات كان الزعماء فى أمثاليها ينكثون بمن كانوا معارضى لهم تنكيلا بشما ، ولكن تسامح محمد مع خصومه ومع معارضيه حقق له سيادة وتفوقا على كل الزعماء والقادة عبر القرون •

الاستدانة منهم وحسن معاملتهم :

من الواضح أن اليهود فى الجزيرة العربية كانوا يكرهون تجمعات أخرى غير تجمعات المسلمين ، سواء كانوا فى المدينة المنورة أو خارجها ، ومع هذا فقد كان الرسول يحسن معاملتهم ، ويتودد اليهم ، ومما يروى أنه كان يحضر ولائهم ويعود مرضاهم ويشيع جنازاتهم ، وكان يقترب منهم حتى أنه توفى ودرعه مرهونة عند يهودى نظير طام أخذه منه •

وعندما حضر له نصارى نجران أحسن استقبالهم وفرش لهم

عباءته ، وعندما زاره عدى بن حاتم الطائى وكان الرسول يجلس آنذاك بالمسجد أحسن الرسول استقباله ، ودعاه الى منزله ، وأعطاه الحشيشة الوحيدة الموجودة عنده ليجلس عليها •

قبول طعام زينب بنت الحارث اليهودية :

وفى غزوة خيبر سنة ٥٧ هـ حدث حادث خطير ، فبعد الانتهاء من الاتساق مع يهود خيبر الذين كانوا فى الشمال من الجزيرة العربية ، دعت امرأة يهودية اسمها زينب بنت الحارث الرسول الى طعام عندها ، واستجاب الرسول ، ولكن المرأة كانت خائفة فوسّمت السم فى لحم الشاة التى أعدتها للطعام ، ووضعت الشاة أمام الرسول ، وأخذ قطعة من لحمها وسرعان ما لفظها وقال : ان هذا اللحم ينبئننى أن الشاة مسمومة • وكان يأكل معه بشر بن البراء ، ولكنه تعجل وأبتلع قطعة من اللحم فمات مسموما واعترفت المرأة بهذا الاثم الكبير •

وهكذا نرى الرسول منفذا لتوجيهات الإسلام بل مضيها إليها من سماحته وبره ، لخلق روابط اجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين •

همر يخذو خذو الرسول :

واتسع العالم الإسلامى ابتداء من عهد عمر اتساعا كبيرا وشمل أجزاء من الأرض غير الإسلامية ، وبالتالي اتسع نطاق التصاون فى مجال العلاقات الدولية الاجتماعية •

وأول ما نذكره ما يرويه مجاهد ، قال : كنت عند عبد الله بن عمر و غلام له يساخ شاة ، فقال له عبد الله : يا غلام ، إذا ذهبت توزع بعض لحوم الشاة فابدأ بجارنا اليهودى •

وكان تصرف عبد الله امتدادا لتصرفات أبيه وتصرفات الرسول الكريم •

وعلى هذا النطاق استمر التعاون فى المجالات الاجتماعية بين المسلمين وبين الدول غير الإسلامية والأفراد غير المسلمين ، وكان ذلك من هبات الإسلام للبشرية •

العلاقات الدولية في المجال الثقافي

وضع القرآن الكريم وأحاديث الرسول أساساً قوياً للعلاقات الدولية في مجال الثقافة ، وهذا المعنى هو ما قرره Deutsch في قوله :
بدافع القرآن رَمَحَ المسلمون لواء الحكمة ، وخدموا العلم والمعرفة ،
وأحيوا علوم السابقين ، وعلموا الفلسفة والطب والفلك ، وفنَّ البناء
في أسنى صورةٍ بالغرب والشرق على السواء ، مما أتاح لنا أن نصل
إلى النهضة العلمية الحديثة ، ولهذا يجدر بنا ألا نكفَّ عن البكاء كلما
تذكرنا اليوم الذي سقطت فيه غرناطة » (١) .

أما الآيات القرآنية التي كانت الدافع لهذا النشاط فنثبت
منها ما يلي :

— وقل رب زدني علماً (٢) .

— هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (٣) .

— ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون
بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك
كألاً نعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون (٤) .

— يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً
كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب (٥) .

والآيتان الأوليان تحدثتا باطلاق عن العلم ، ولم تخصَّ المعلوم

(١) نقلاً من الفكر الاسلامي : متابعة وآثاره الذي ترجمه المؤلف من
الانجليزية ص ٣٢ .

(٢) الزمر : ٩ .

(٣) طه : ١١٤ .

(٤) البقرة : ٢٦٦ .

(٥) الامراء ١٧٦ .

الدينية ، وفهم من ذلك تفضيل العلم النافع للبشرية أيا كان اتّجاهه ،
ويؤيد هذا ما ورد في الآيتين الأخيرتين اللتين مدحتا العقل السليم
وهاجمت العقول التي لا تفقه ولا تعى .

ومشت أحاديث الرسول في هذا النطاق ، ولعلّ أول ما نذكره
هنا أن الرسول — كما ذكرنا آنفاً — طلب من عارف القراءة والكتابة
من أسرى بدر أن يعلم كل منهم عشرة صبيان من صبيان المسلمين القراءة
والكتابة ، فذلك يعادل الفدية التي كان عليهم أن يدفعوها حتى يُطْلَقَ
المسلمون سراحهم .

والرسول صلوات الله عليه هو القائل : الحكمة ضالة المؤمن
حيث وجدها ، فهو أحق بها ، وهو المائل : من غادر أهله في طلب العلم
فهو سائر في سبيل الله . وينسب له أيضا قوله اطلبوا العلم
ولو في الصين ، ولم يكن في الصين علوم إسلامية مما يدل على
أن العلوم التي دعا لها الإسلام أوسع نطاقا من العلوم الإسلامية ،
وفي ذلك يقول Prof. Sharif ^(١) إن الآيات والأحاديث خلقت أول ينبوع
من ينباع الفكر الإسلامي وقد سار هذا ينبوع قويا متدفقا ، فتحدث
المسلمون وهم يعرضون الآيات والأحاديث عن رأي الإسلام في السياسة ،
ورأي الإسلام في الاقتصاد وفي التربية وغير ذلك مما يسمى الحضارة
الإسلامية الأصيلة ، وسارت بجانب ذلك ثقافت الأمم السابقة التي
حث الإسلام على رعايتها ، والتي وضعت جذور ما أسميناه الحضارة
الإسلامية التجريبية .

وفي ضوء ذلك حصل تبادل ثقافي هائل اقتبس المسلمون عن طريقة
بعض ما كان للسابقين من معارف ، ثم هضموها وشرحوها وأكفوا
في نطاقها ، ودفنوا هذه المعارف إلى الأمم الأخرى ، فالعلم عند
المسلمين لم يكن له وطن ولا صاحب ، وهو لا يعرف الحدود ولا يسيطر
على المعارف إنسان .

وقد كان القرآن والحديث مصدرى* الحضارة الإسلامية الأصيلة
أى التى قدمها القرآن والحديث للمجتمع البشرى ، وكانت هذه المصادر
هى المصادر الوحيدة التى علمت البشرية الشورى والعدالة الاجتماعية
والأخلاق الإسلامية وانطلاقة التعليم ... أما الحضارة التجريبية
كالطب والرياضة والفلك ... فقد اقتبسها المسلمون وطوروها ودفعوها
لغير المسلمين على ما ذكرنا آنفا .

وعلى هذا فقد انفسح المجال لعرض تبادل الثقافات بين المسلمين وغير
المسلمين .

تأثير العقيدة الإسلامية على عقائد غير المسلمين :

انذى يدرس العقائد المختلفة فى علم مقارنة الأديان يدرك التأثير
الواسع الذى أحدثه الإسلام فى عقائد الجماعات التى اتصل بها ،
ونثبت فيما يلى بعض صور من هذا التأثير .

تأثير الإسلام فى المسيحية :

كان تأثير الإسلام على عقيدة المسيحيين واسعا ، فمنذ عهد بولس
اتجه المسيحيون الى القول بالتثايت ، فلما جاء الإسلام وقال بالوحدانية
المطلقة ودلل على هذه الوحدانية بأدلة حاسمة عقلية ونقلية (١) لجأ
المسيحيون الى تحوير عقيدتهم بما يقرب من الإسلام ، فقالوا بوحدة
فى تثليث أو تثليث فى وحدة ، أى أن الله واحد له ثلاثة جوانب أو أقانيم ،
وكان هذا تأثيرا كبيرا للإسلام فى العقيدة المسيحية .

ووجدت* من بين النصارى طائفة* أنكرت ألوهية المسيح عليه
السلام (٢) . وفى مصر طائفة كبيرة من المسيحيين المثقفين تستنكر
ألوهية المسيح وترفض القول بالتثليث .

وفى القرنين الثانى والثالث الهجريين ظهرت فى جنوب فرنسا

(١) انظر هذه الأدلة فى كتاب « الإسلام » من سلسلة مقارنة الأديان

للمؤلف .

Haine's Christianity and Islam in Spain p. 116

(٢)

حركة تدعو الى إنكار الاعتراف أمام القسس ، وأن يتجه المسيحي الى الله وحده يرجو منه غفران ذنوبه ، ويرى الأستاذ أحمد أمين أن ذلك كان تأثيراً بالإسلام ، إذ ليس في الإسلام قسيسون ورهبان ، ثم إن جنوبفرنسا كان على صلة بالإسلام الذي امتد من أسبانيا الى جنوب فرنسا في فترة من الفترات (١) .

وفي نفس الوقت تقريباً ظهر مذهب نصراني يرفض تقديس الصور والتماثيل ، فقد أصدر الامبراطور الروماني « ليو الثالث » أمراً سنة ٧٢٦ م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل ، وأمراً آخر سنة ٧٣٠ م يعمد ذلك وثنية (٢) ، ووصل هذا الأمر غايته على يد كلوديوس (Claudius) أسقف تورين سنة ٨٢٨ م ، فقد أحرق الصور والصلبان ونهى عن عبادتها في أسقفيته ويربط بعض الباحثين ذلك بنشأة كلوديوس ، إذ كان قد ولد وتربى في الأندلس الإسلامية (٣) . وتأثر باتجاه بعض علماء المسلمين الذين لا يبيحون الرسم والتصوير والنحت .

وقد حملت البروتستانتية بعض آثار الإسلام ، فالأفكار التحررية التي تبيح المسيحي أن يفكر ويفهم الكتاب المقدس بنفسه ، وتعدّه مسئولا أمام الله وليس أمام الكنيسة ... كل ذلك كان تأثيراً بالإسلام من قريب أو بعيد (٤) .

تأثير الإسلام في الديانة الهندوكية :

في الهندوكية آلهة لا يحصى عددها ، وعندما اختلط الهندو بالمسلمين ، ظهر تأثير الإسلام في الهندوكية ، فبدأ الهندو يتكلمون عن

(١) ضحى الاسلام ج ١ ص ٣٦٤ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) أبو الحسن الندوي : الاسلام : اثره في الحضارة ونفسه على الانسانية ص ٢٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٧ بتصريف .

رب الأرباب وإله الآلهة ، وفي هذا التعبير إهمال للكثرة وارتباط بالإله الواحد الأحد (١) .

ويقول الباحث الهندي Panikkar : إن تأثير الإسلام في الديانة الهندوكية كان عميقا ، وإن قادة الفكر من الهنود الذين ظهروا في العصر الإسلامي قد صرّحوا بأن الإله واحد ، ودعوا لعبادته دون سواء (٢) .

الفكر الإسلامي بارز في ديانة السيخ :

أما منشيء ديانة السيخ (بابا نانك) فقد تربى بين المسلمين وتعلمذ على كثيرين من العلماء المسلمين ، فلما أنشأ ديانتَه ظهرت بها تعاليم الإسلام كالتوحيد والمساواة بين البشرية ، واجتناب عبادة الأصنام ومحاربة الوثنية (٣) .

تأثير المسيحية على بعض المسلمين :

وللاسف تسرّعت لبعض المسلمين بعض المعتقدات المسيحية ، ويشير السيد محمد رشيد رضا الى ذلك ، فيذكر أن بعض المسلمين يقولون برفع عيسى عليه السلام جسما وروحا عقب نجاته من الصلب ، وكلماته هي : ليس في القرآن نص صريح على أن عيسى رفع بروحه وجسمه الى السماء ، وليس فيه نص صريح بأنه سينزل من السماء ، وإنما هي عقيدة أكثَر النصارى ، وقد حاولوا في كل زمان منذ ظهور الإسلام بثها في المسلمين (٤) .

وهكذا نجد علاقات ثقافية ، وتبادل أفكار ثقافية في أخطر الأمور .

(١) محمد عبد السلام الرامبوري : غسلة الهند القديمة (مجلة ثقافة الهند : مارس ١٩٥٢) .

(٢) A Survey of Indian History p. 132

(٣) أبو الحسن الندوي : المرجع السابق ص ٢٤ - ٢٥ .

(٤) انظر كتاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف ص ٦٥ - ٦٦ الطبعة الثانية .

العلم للجميع :

من ميزات الاسلام أنه جعل العلم عامّة بعد أن كان خاصاً بالكهنة ، وأن الآيات الأولى من القرآن الكريم هتفت بالقراءة والفكر ، ففتحت الباب للعلم ثم للتأليف والتعليم ، فانتقل العلم من فرد الى فرد ، ومن أمة الى أمة ، ومن عصر الى عصر ، وهكذا بواسطة الاسلام لم يعد العلم لموطن محدد ، ولا مالك خاص ، بل أصبح العلم للجميع وفي خدمة الجنس البشرى كله .

التقاء العلم بالدين :

كانت اليونان مركز العلوم والفلسفة والرياضة عدة قرون ، وكان علماءها أقرب للإلحاد ، إذ كان العلم في جانب والدين في جانب آخر ، بل كانت هناك حرب وخصومة بين العلماء ورجال الدين ، وكانت كل طائفة من دوائن الطائفتين تتعدى الطائفة الأخرى خطراً عليها ، وطالما حكمت الكنيسة على أحد العلماء بالإعدام لأنه قال قولاً يعارض ما عليه الكنيسة ، ومن أخف الأضرار التي ألحقتها الكنيسة بالعلماء والكتّاب أنها كانت تصدر قرارات بتحريم قراءة كتبهم . . .

وقد ظل هذا الوضع أو ما يقرب منه حتى الآن في بعض البلاد غير الإسلامية : ولم يتم نوع من المصالحة بين الدين والعلم بانجلترا إلا حديثاً وقد نشرت صحيفة OBSERVER البريطانية في مايو ١٩٨٧ أن بعض القسس وبعض العلماء قادوا معركة ناجحة لاتحاد العلم والدين والتقاء على الخصومة القديمة في تاريخ الكنيسة ، وأقيمت بالكنيسة الانجليزية جمعية للتوفيق بين العلم والدين ، وأصبح بعض العلماء أعضاء في الكنيسة ، ويقول الدكتور Canoon Irich قس ليفربول والذي كان يعمل خبيراً بهيئة الطاقة النووية البريطانية إنهم في ليفربول يديرون سلسلة من الحلقات الدراسية للبحث في المسائل العلمية التي كانت تعدّ من قبيل من « المنزعجات » في الكنيسة مثل العلوم والآداب والتقاء والتندر .

أما في الإسلام فالتقاء العلم بالدين تمّ من أول يوم ، وقد رغب الإسلام شأن العلماء وجعلهم أقدر الناس على معرفة الله والخضوع له

قال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ^(١) ، وحث القرآن الناس على طلب العلم كما ذكرنا من قبل ، وعُدَّ من أهمل ذلك مخطئاً قال تعالى : « وكأين من آية يمرون عليها وهم عنها معرضون » ^(٢) وفي هذا المعنى يقول أيضاً « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب انسير » ^(٣) ويقول موضحاً مسئولية الإنسان تجاه حواسه وعقله « ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ^(٤) ويقول دافعاً الإنسان ليستعمل عقله « فاعتبروا يا أولى الأبصار » ^(٥) .

وفي هذا الجو نما العلم ، ونمت المعرفة ، وتكاملت العقول ، وارتبط العالم ، فاذا وصل إنسان في بلد الى فكرة علمية سليمة استلها آخر وأضاف اليها ، وكان ذلك من دواعي تطور المعارف ، وقد وضع الإسلام أساس ذلك .

نشاط ثقافي أجنبي في العالم الإسلامي :

كانت الاسكندرية منذ نشأتها تمثل مركزاً فكرياً عظيماً ، وكان موقعها بين الشرق والغرب يمنحها مكانة تجذب لها علوم مصر والعراق والشام واليونان ، وقامت بها مدرسة الاسكندرية التي يقول عنها Guge تقابل الشرق والغرب في شوارع الاسكندرية وفي قاعات الدرس بها ، وفي معابدها ^(٦) ، وعلى طراز الاسكندرية وكامتداد لها قامت مدرسة أخرى في « قيسارية » و « انطاكية » و « نصيبين » ثم قامت مدارس أخرى في بلاد فارس أهمها مدرسة جند يشابور .

وعندما جاء الإسلام سمح لهذه الأنشطة بالبقاء ، وكانت مدرسة الإسكندرية تباشر دراسات في الطب والكيمياء بالإضافة الى دراسات في اللاهوت .

(١) سورة فاطر : ٢٨ . (٢) سورة يوسف : ١٠٥ .

(٣) سورة الملك : ١٠ . (٤) الاسراء : ٣٦ .

(٥) الحشر : ٢ . (٦) قصة الفلسفة اليونانية ص ٢٣٨ .

(م ٦ — العلاقات الدولية)

وفي عهد الدولة الأموية كان هناك نشاط لهذه الثقافات بالعالم الاسلامي ، فقد سمح الأمويون لهذه المدارس بالاستمرار في نشاطها الثقافي ، وبدأت ترجمات بعض الكتب للغة العربية من عهد مبكر وكان ذلك تنبية^(١) لرغبة خالد بن يزيد بن معاوية الذي كان شديد العناية بالعلوم والكيمياء ، والذي طلب ترجمة بعض الكتب من اليونانية والقبطية الى العربية في الصنعة وتحويل المعادن ، وكان لخالد هذا أستاذ^(٢) يوناني يدرس له الكيمياء .

وجاءت الخلافة العباسية ففتحت مزيداً من الأبواب للثقافة الخارجية لتنمو وتترعرع في العالم الاسلامي ، فالخليفة المنصور عقب تأسيس بغداد جمع صفوة من العلماء في مختلف نواحي الفكر ، وشجعهم على ترجمة كتب العلوم والآداب من اللغات المختلفة للغة العربية ، فاستجاب كثير من العلماء لهذه الرغبة ، ودفعهم التشجيع الأدبي والمادي للإجادة والإكثار ، وكان أغلب هؤلاء من أتباع الديانات الأخرى أو من حديثي العهد بالاسلام ، ومن أبرز هؤلاء عبد الله بن المقفع الذي ترجم كلية ودمنة من الفهوية للعربية ، وقد فقد أصله ، وترجم فيما بعد من اللغة العربية الى اللغات العالمية .

ومن الكتب التي ترجمت للعربية في هذا العهد كتاب^(٣) في علم الفلك اسمه « سند هانتا » وقد قام بترجمته عالم هندي ، وكذلك فعل هذا الرجل بالنسبة لكتاب آخر في الرياضيات .

ومن مشاهير المترجمين في عهد المنصور الطبيب النسطوري جورجيس ابن بختيشوع ، وكان المنصور قد استدعاه من جند يشابور ليكون طبيبه الخاص ثم اشتغل بالترجمة ، ومن المترجمين كذلك بختيشوع بن جبريل تلميذ بختيشوع .

بيت الحكمة :

ثم أنشئ أعظم معهد في الإسلام قام بدور كبير في الترجمة للغة العربية وهو بيت الحكمة ، وقد كتبنا عنه كثيراً ، وإلى هذا

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٣٣٨ .

المعهد جُلِبَت أعداد ضخمة من الكتب التي كتبت بلغات متعددة وجُلِب العلماء لترجمتها ، وكانت موضوعات هذه الكتب متعددة وكان مؤلفوها عمالقة العصور الماضية ، واشتغل بالترجمة نخبة من المفكرين أكثرهم من غير المسلمين مثل يوحنا بن ماسويه وحنين بن اسحاق ، وحبيش ابن اخت حنين وثابت به قرّة (١) .

وكان الخلفاء المسلمون يحرصون على استدعاء مشاهير العلماء والمفكرين من الخارج للانتفاع بعلمهم في المعالم الإسلامية ، ويروى أن الخليفة المأمون سمع عن أستاذ بيزنطي برع في الرياضيات اسمه « ليو » فكتب الخليفة إلى الامبراطور البيزنطي ثيوفيل يطلب منه السماح لهذا العالم بالحضور إلى بغداد ، وذكر الخليفة أن ذلك يعتبر عملا وديا ، وأنه يرغب في توقيع صلح دائم مع بيزنطة لهذا الغرض ، ويعرض مكافأة للدولة أو للعالم قدرها ألفا قطعة ذهبية .

ولكن سادة بيزنطة لم يكن عندهم روح الخلفاء المسلمين في قضية الثقافة ، فرفض الامبراطور عرض الخليفة مخافة أن يكون نقل الفكر عن طريق هذا العالم مما يرجح كفة المسلمين في الصراعات الفكرية والعسكرية التي كانت دائرة بين الجماعتين (٢) .

الاقتراسات تتطور :

اقتبس المسلمون كما ذكرنا آنفا جوانب من الفكر الأجنبي في العلوم التجريبية ، ولكن المسلمين لم يقنعوا بما اقتبسوه بل أعملوا فيه فكرهم ومواهبهم ، فنقلوه من طور إلى طور ، وقد أثبتنا في مكان آخر مراحل هذا التطور (٣) . فقد استكمل المسلمون تلك الكتب التي استوردوها ، إذ كانت قد فقدت عددا من صفحاتها وسطورها ، ثم ترجموها هذه الكتب للغة العربية ، وعلقوا على هذه الترجمات ، ثم راحوا يدرسون

(١) اقرأ عن بيت الحكمة كتاب « الفكر الإسلامي : منابعه وآثاره » وكتاب « التربية الإسلامية » للدكتور أحمد شلبس .

(٢) د . ابراهيم العدوي : السفارات الإسلامية إلى أوروبا ص ١٧ .

(٣) كتاب المناهج الإسلامية للمؤلف .

هذه المواد في المعاهد الإسلامية ، وأخيرا استطاع المسلمون أن يؤثروا في هذه المواد كتباً كانت أعمق وأوسع مما اقتبسوه في نطاق هذا الفكر التجريبي الذي شمل الطب والرياضة والموسيقى والكيمياء وأمثالها •

وفي ذلك يقول Welfred Cantwell : كان انتصار المسلمين في المعارك الحربية التي خاضوها انتصارا لفكرهم أيضا ، فهم لم يحققوا النصر في ميدان القتال وحده ، ولم يؤثروا على جوانب مختلفة في الحياة فحسب ، بل انهم حققوا النصر في توجيه الحياة بصورة عامة توجيها جديدا ، وطبعها بطابع خاص ، وهو ما يعرف بالحضارة ، وقد ساهمت في تكوين هذه الحضارة الإسلامية عوامل متعددة وثقافات مختلفة ، ولكن تجلت عبقرية المسلمين في تنسيق هذه العوامل وصهرها في بوتقة جديدة بدون أن تفقد هذه العوامل خصائصها الذاتية ، بل على العكس تطورت بهم تطورا مطردا (١) •

المعارف الإسلامية الأصيلة :

وبالإضافة الى تطوير العلوم التجريبية المكتسبة ، دوعن المسلمون الفكر الإسلامي الأصل الذي أشرنا اليه آنفا ، وكان القرآن والحديث مصدره ، فلم تمض مدة حتى كان لدى المسلمين ذخيرة من المعارف في نطاق الشورى والعدالة الاجتماعية والنظم التشريعية في مختلف الموضوعات ، وكان عندهم منهج في نطاق حقوق المرأة والقضاء على الرق وغيرها •

وعندما استكمل المسلمون مكانتهم في نطاق العلوم التجريبية والعلوم الأصيلة أصبحوا سادة الدنيا في العلوم والمعارف ، وجاء دورهم للبقاء ، فقدموا بسخاء للمجتمع البشري صورا واسعة في هذا النطاق ، نسجل فيما يلي بعضها :

ملوك غربيون درسوا في المعاهد الإسلامية :

يذكر التاريخ أن بعض الذين تولوا الملك في أوروبا كانوا في شبابهم طلابا في المعاهد الإسلامية ، ومن هؤلاء : الملك ألفونس السادس الذى كان قد التحق بمعاهد المسلمين بالأندلس وارتوى من معينها ، وعشق ثقافتها .

ومنهم كذلك فريديريك الثانى الذى أصبح امبراطورا لروما سنة ١٢١٥ م ، وقد سبق أن التحق هذا الامبراطور بجامعة بالرمو بصقلية ، وتلقى علومه على يد المعلمين العرب .

وفود ملكية للاتحاق بالمعاهد الإسلامية :

وتطلع ملوك أوروبا الى معاهد العلم بالأندلس وحرصوا على أن ينالوا منها لذويهم قسطا من الفكر والمعرفة ، وقد توافد على هذه المعاهد أعداد كبيرة ، بعضهم اتجه لها بدافع ذاتى ليزود نفسه بالحكمة والمعرفة ، وبعضهم أرسل من قبل الملوك والرؤساء ليغتربوا من هذه المعاهد العلمية ، ومعنا نموذج واضح أرسله ملك انجلترا جورج الثانى إلى الخليفة هشام الثالث يستأذنه في قبول مجموعة مختارة من الطلاب الانجليز ليلتحقوا بالمعاهد الاسلامية بقرطبة ، وكان هذا الوفد تحت اشراف أميرة من أميرات البيت الملكى هى ابنة شقيقة الملك ، والخطاب واضح الدلالة على ما كان لدى المسلمين من علو شأن وعلى رغبة الغربيين في الاعتراف من هذا المعين ونصر الخطاب هو (١) :

من جورج الثانى ملك انجلترا والسويد والنرويج الى الخليفة ملك المسلمين فى مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام .

بعد التعظيم والتوقير فقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم والصناعات فى بلادكم الماهرة ، فأردنا لأبنائنا اقتباس هذه الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم فى بلادنا .

(١) المستشار عبد العظيم الجندي : المنهج الإسلامى ص ١١٢ .

وقد وضعنا ابنة شقيقتنا (دويانت) على رأس بعثة من بنات أشراف الانجليز لتتشرف بلثم أهداب العرش والتماس المطف لتكون مع زميلاتنا ، موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة ، وحذب من لدن معلماتهن ، وقد بعثت مع الأميرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل ، أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص •

امضاء

المطيع جورج

وفي هذا الخطاب ايضاح لحالة المسلمين العالمية والجهل الظاهر في بلاد أوربا ، وللحرص كذلك على تلقي العلم حتى بالنسبة لبنات الأشراف ، مع ما في ذلك من مشقة بالنسبة اليهن ، ومن أجل هذا وضعهن الملك تحت رعاية الخليفة نفسه •

وردّ الخليفة هشام الثالث على خطاب الملك بخطاب يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين • ويعد •••

الى ملك إنجلترا جورج الثاني ، لقد اطلعت على التماسكم فوافقت بعد استشارة من يعينهم الأمر على طلبكم ، وعلى هذا فإننا نعتزكم بأنه سينفق على هذه البعثة من مال المسلمين دلالة على مودتنا ورغبتنا في نشر العلم ، أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد وأبعث اليكم ببعض الطنافس الأندلسية ، وهى من صنع أبنائنا أبعث بها هدية اليكم ، وهى تحمل المغزى الواضح للتدليل على محبتنا • والسلام •

خليفة رسول الله على ديار الأندلس

هشام

مبعوثون غربيون يستقرون في بلاد الإسلام :

وقد فتحت هذه البعثة الباب لكثيرين وكثيرات من بلاد الغرب المختلفة ، فوفدوا على معاهد غرناطة واشبيلية لينهلوا من الحضارة الإسلامية • والعجيب أن كثيرين من المبعوثين والمبعوثات لم يعودوا الى

بلادهم ، بل طاب لهم العيش في البلاد الإسلامية ، وبعض المبعوثات ارتبطن بزيجات مع بعض المسلمين ، ومن هؤلاء الأميرة ماري وهي بلجيكية الأصل ، وقد تزوجت من الأمير حسن بن المهدي ، بل ان راهبة انجليزية كانت مرافقة لإحدى البعثات أعانت اسلامها وتزوجت أحد المسلمين بالاندلس •

الأخلاق الإسلامية واحترام المرأة هبة الشرق للغرب :

ومن الأشياء التي اندفعت للغرب من الشرق الإسلامي ما يوضحه غوستاف لوبون بقوله : أخذ الغرب عن المسلمين أخلاق الفروسية واحترام المرأة ، وإذا فليست المسيحية كما يظن بعض الناس من الغرب هي التي أنصفت المرأة بل الإسلام ^(١) •

مسلمون يعلمون في معاهد الغرب :

ولم يقتنع الغربيون بالوفود يرسلونها الى المعاهد الإسلامية • بل حاولوا أن يفتحوا المدارس والمعاهد وأن يجلبوا لها مدرسين من بلاد الإسلام ليكون نشر العلم على نطاق أوسع ، ومن الذين فعلوا ذلك الملك الفرنسي العاشر اذى فتح مدرسة للترجمة في طليطلة جعل فيها علماء المسلمين ينقلون الى الأسبانية واللاتينية كتب المسلمين •

وفعل مثل ذلك رئيس الأساقفة في شمال أسبانيا الذي استدعى علماء المهرة في اللغات لترجمة التراث العربي ، ليكون في متناول طلاب العلم الأوروبيين ، واستمرت حركة الترجمة من اللغة العربية الى اللغة اللاتينية عدة قرون ابتداء من القرن الثاني عشر •

وفي صقلية حدث مثل ذلك النشاط في ترجمة كتب المسلمين للغة اللاتينية ، فقد عين النورمان عقب استيلائهم على صقلية بعض علماء المسلمين ليقوموا بهذه الترجمة ، كما رحب النورمان بالعالم المسلم الكبير الشريف الإدريسي ليواصل جهوده في بلادهم في علم الجغرافيا •

(١) حضارة العرب : ص ٣٢٨ •

وهكذا يتضح أن المسلمين غرسوا حب الفكر والعلم في نفوس الأوروبيين ، فلما أحس الغربيون بمتعة العلم وأقبلوا على رعايته وتحصيله عاونهم المسلمون في ذلك أجل معاونة •

ومن المفاخر التي تنسب للمسلمين أنهم استمروا في خدمة العلم بعد الهزيمة والتراجع في أسبانيا وصقلية بنفس النشاط الذي كانوا يبذلونه في أوقات انتصارهم ، فالضعف السياسي لم ينل من حماسهم للعلوم والفنون •

من الفكر الإسلامى للفكر الغربى :

ويمكن أن نشير اشارة سريعة الى الفيض الواسع الذى قدمه المسلمون للغرب ، وهذا الفيض قد ورد مفصلا الى حد ما في كتاب *Muslim Thought, its Origin and a Chievements* • الذى ترجمته من اللغة الانجليزية الى العربية بعنوان « الفكر الإسلامى منابعه وآثاره » هو يشمل جوانب متعددة من مختلف الثقافات ، كالجغرافيا والفلك وعلوم الرياضة والموسيقى ، الكيمياء ، العلوم الطبيعية (الصوت والضوء) والطب ، والصيدلة ، وبخاصة الطريقة التجريبية التى هى بلا شك من صنع المسلمين ، فليرجع الى هذا الكتاب من يشاء •

القانون الإسلامى :

من جوانب التفوق العظيم في الفكر الاسلامى ذلك الجانب المرتبط بالقانون والفقہ الإسلامى ، ومن الواضح أنه كما يقول Edmund Burke يمتاز بأنه يطبق على جميع المسلمين لا فرق بين الملك المتوج والخادم الفقير ، وقد نيك القانون الإسلامى أبرع حياكة وأحكمها ، حتى أصبح بحق أعرق وأسطع قانون عرفته البشرية •

ومن المعروف أن مذهب الإمام مالك انتشر في الشمال الافريقى وفي الأندلس وتسرب الى المناطق الجنوبية من فرنسا التى امتد لها حكم المسلمين فترة ما أو التى تأثرت بالوجود الاسلامى بالأندلس •

وكان الأوروبيون في العصور الوسطى يتحاكمون الى قوانين مصدرها العرف ، وكانت متغيرة حسب هوى سادة الإقطاع ، ولهذا عندما أرادت بعض الدول الأوروبية وضع قانون عام اقتبست كثيرا من مذهب مالك الذي كان موجوداً في أسبانيا الإسلامية ، وظل الاقتباس حتى العصر الحديث ، ويلاحظ الدكتور سيد عبد الله حسن (١) أن القانون الذي وضعه نابليون قد تأثر تأثراً واضحاً بالتشريع الإسلامي ، بل وجد فيه تشابه كبير بالقانون الإسلامي ، ويذكر لذلك أمثلة نظام العقود والملكية وعقد الإيجار .

وهناك عدد كبير من المفكرين الغربيين يعترفون في صراحة ووضوح بفضل الإسلام على أوروبا والعالم ، ويذكرون فيض الفكر الإسلامي الذي غمر العالم بوجه عام وغمر أوروبا بوجه خاص ، ومن هؤلاء Hearnshaw و Gosiph Calmith و Kirk و Emerton و Richard Coke و Gourge Sarton وغيرهم كثيرين (٢) .

في المجال الثقافي كان المسلمون أكثر عطاء :

تحدثنا من قبل عن العلاقات الدولية التي ابتكرها الإسلام في مجال السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية والثقافية ، وقد أعطى المسلمون وأخذوا ، ولكن الذي يجمع عليه الباحثون أن عطاء المسلمين في المجال الثقافي كان أوسع وأعمق ، ونقتبس فيما يلي بعض اعترافات الغربيين في هذا المجال :

يقول Gasiph Ca'mith : في اللغات بين المسلمين والأوروبيين قدّم المسلمون عنصر التأثير والانتاج ، ينلقى العالم المسيحي الأثر والفكر . ويقول العالم الفرنسي فورريل : إن الإجماع يعزو الى العرب كل ما كان يبدو خليقا بالإعجاب في الفنون والعلوم . وكثيرون من الباحثين الغربيين اعترفوا بذلك .

(١) المقارنات التشريعية في عدة امكنة .

(٢) اقرأ كلمات هؤلاء في كتاب « المناهج الإسلامية » للمؤلف .

نومة المسلمين طالمت فمتى يفيقون ؟ :

ونختتم هذه الدراسة بلمحة رائعة لشاعر الإسلام محمد اقبال ، يعلق فيها على الفكر الإسلامى الأصيل الذى يُلْقَى على الأمة الإسلامية — باعتبارها خير أمة أخرجت للناس — مسئولية توجيه العالم ، والحسبة على الأخلاق ، وعلى سلوك الأمم ، وأنها مسئولة عن مدى قيامها بهذا الواجب ، وهذا المعنى مقتبس من قول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » (١) .

وقد التقط الشاعر العظيم هذا المعنى ووضعه فى قصيدة عنوانها « برلمان إبليس » ويتصور الشاعر وجود برلمان من الأبالسة ويرأسه إبليس الكبير الذى يوصى أتباعه ببذل الجهد حتى يبقى المسلمون فى غفوتهم وسباتهم ، لأنهم لو تيقظوا وقاموا بدورهم فى رقابة العالم وتوجيهه للخير ، لخسر الأبالسة كثيرا ، وفيما يلى ترجمة لهذا الجزء من القصيدة الرائعة ، وهو الجزء الذى يحوى خطاب إبليس الكبير لأعوانه :

اضربوا على آذان المسلم ، فإنه رَحده الذى يستطيع أن يكسر الطلائع
ويبطل قوتنا لو تيقظت فيه معانى الأذان للصلاة والتكبير لله ، اجتهدوا أن
يطول ليله ، ويبطئ سحره ، اشغلوه عن الجدِّ والعمل ، فمن الخير لنا
أن يبقى المسلم عبداً لغيره ، ويهجر العالم ويعترله ، ويتنازل عنه للآخرين
زهداً فيه واستخفافاً لخطره • أوقعوا الخلافات بين المسلمين ، وصوّروا
لكل طائفة منهم أنها وحدها التى تمشى على الصراط المستقيم ، ومن عداها
يعتبرون من الملحدين • يا ويلتنا يا أخوانى ويا شقرتنا لو انتبهت هذه
الأمة لحالها ، وأدت دورها الذى يحتمه عليها دينها فى رقابة العالم
وتوجيهه (٢) .

ليت المسلمين ينتبهون لهذه المعانى ويخيّبون أمل إبليس فيهم •

(١) سورة المائدة : ٨ .

(٢) الترجمة بتصرف من كتاب الإسلام وأثره فى الحضرة للأستاذ
أبو الحسن النووى .

العلاقات الدولية في المجال العسكري

إذا كانت دراستنا عن العلاقات الدولية في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي جديدة ، فإن دراستنا عن العلاقات الدولية في المجال العسكري ليست جديدة ، إنها ترجع الى الوراء عشرين سنة عندما عُنِدَت ندوة علمية في جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان في المدة من ٢٤ فبراير الى أول مارس سنة ١٩٦٨ بمناسبة مرور أربعة عشر قرنا على بدء نزول القرآن الكريم ، ولذلك كان العنوان العام للندوة هو :

« القرآن الكريم »

وقد اشتركت في هذه الندوة ، وكان الموضوع الذي خُصَّص لى فيها هو « القرآن والجهاد » وقد وجد الموضوع آنذاك كثيرا من الاهتمام ، وبخاصة أنه جاء بعد الهزيمة القاسية التي بلّينا بها ضمن هزائم عهد عبد الناصر .

ومنذ ذلك التاريخ البعيد وأنا أفكّر وأعمل لأبرز العلاقات الدولية في جميع مجالاتها ، حتى لا يبقى الجانب العسكري وحيدا ، لأنه وحده لا يملأ الفراغ الذي قدّمه الاسلام لجوانب العلاقات الدولية .

ويسرنى الآن أن أضُم هذا الجانب الى أخواته الجوانب الأخرى وذلك عندي يشبه تلاحم أسرة كان بعض أفرادها مجهولين ، فالتكّمت وبدأت مسيرة حياتها وهي متكاملة رشيدة ، والله أدعو أن ينفع المؤلف والقارئ بهذا الكتاب الذي استغرق إعدادُه هذا الوقت الطويل .



وفيما رواه أنس أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « جاہدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم » (١) وإذا لم يكن في المال سعة

(١) أخرجه النسائي .

يُعْتَدُّ بِهَا فِي الْعَيْنِ ، وَإِذَا قَصُرَتْ الْأَيْدَى عَنْ حَمَلِ السِّلَاحِ ، فَإِنِّي أَطْلُقُ لِسَانِي وَقَلَمِي أَجَاهِدُ بِهِمَا لَخْدْمَةِ قَضِيَّةِ هَذَا الْجِيلِ وَالْأَجْيَالِ الَّتِي تَلِيهِ ، فَاللَّهُمَّ اقْبَلْ جِهَادِي بِهِمَا ، وَبَارِكْهُ ، وَاجْعَلْ لَهُ أَحْسَنَ النَّتَاجِ •

مصر بين الهزيمة والنصر :

وَإِذَا كَانَتْ مِصْرُ قَدْ عَانَتْ الْهَزَائِمَ سَنَةَ ١٩٥٦ وَفِي الْيَمَنِ بَيْنَ سَنَتَيْ ١٩٦٢ وَ ١٩٦٧ وَفِي سَنَةِ ١٩٦٧ فَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَهْدَ كَانَ عَهْدَ هَزَائِمٍ ، وَلِأَنَّ وَلِيَّ الْأَمْرِ الزَّائِفَ اسْتَجَبَ بِجَبْرُوتِهِ لِلشَّعْبِ الْأَعْزَلِ وَأَذْنَهُ ، فَانْتَقَمَ اللَّهُ لِلشَّعْبِ مِنْ وَلِيِّ الْأَمْرِ ، وَأَرْسَلَ لَهُ قُوَّةً تَجْرِفُهُ وَتَذِلُّهُ ، وَصَدَّقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي يَقُولُ « وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (١) •

وَالْمَهْمُ أَنَّ هَذِهِ الْفَتْرَةَ الْكَالِحَةَ قَدْ وَلَّتْ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ بِفَضْلِ اللَّهِ ، وَعَادَتْ مِصْرُ تَحُلُّ حَاضِرَهَا بِمَاضِيهَا ، فَاسْتَعَادَتْ النِّصْرَ الَّذِي حَقَّقْتَهُ فِي الْعُصُورِ الْقَدِيمَةِ عَلَى يَدِ أَحْمَسَ وَتَحْتَمَسَ ، وَفِي الْعُصُورِ الْمَوْسِيطَةِ ضِدَّ الْمَغُولِ وَالصُّلَيْبِيِّينَ ، وَفِي الْعُصُورِ الْحَدِيثَةِ بِالْأَنَاصُولِ وَالْإِفْرِيقِيَّةِ وَالْيُونَانِ ، وَاسْتَرَدَّ الْمِصْرِيِّينَ كِرَامَتَهُمْ ، وَخَطَّوْا نَحْوَ النِّصْرِ خُطْوَةً كَبِيرَةً نَرْجُو أَنْ تَتْلُوَهَا خُطُواتٌ وَخُطُواتٌ •

وَلَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ نَسْأَلَ : لِمَاذَا انْتَصَرْنَا فِي حَرْبِ الْعَاشِرِ مِنْ رَمَضَانَ (أَكْتُوبَرِ ١٩٧٣) ؟ لَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ نَسْأَلَ هَذَا السُّؤَالَ لِأَنَّهُ شَيْءٌ طَبِيعِيٌّ أَنْ نَنْتَصِرَ ، وَلَكِنْ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ نَسْأَلَ لِمَاذَا انْهَزَمْنَا فِي الْفَتْرَةِ الْكَالِحَةِ السَّابِقَةِ ، وَإِذَا كُنَّا لَمْ نَعْرِفِ الْجَوَابَ الْحَقِيقِيَّ بَعْدَ ، أَوْ إِذَا كُنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ مَا نَعْرِفُ أَوْ كُلَّ مَا نَعْرِفُ ، فَإِنَّ الْأَيَّامَ سَتُكْشِفُ مَا لَا يَزَالُ حَتَّى الْآنَ مَكْنُومًا •

فاللهم أسألك أن تجز قولك الحق « ليجزى الذين أساءوا بما
عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » ^(١) فليكن للمسيء نتيجة إسماءته
ونتيجة الدماء التى قدّمها بحماقة للسفك ، والكرامة التى أراقها ،
وليكن الخير كل الخير لمن أحسن التدبير ، وأعدّ العدة وثأر لنا من
أعداء الله وأعداء الإنسانية .

والآن نسير خطواتنا فى الحديث عن العلاقات الدولية فى المجال
العسكرى :

(١) سورة النجم الآية ٣١ .

ما الجهاد في التفكير الإسلامى ؟

الجهاد في التفكير الإسلامى هو بذل الجهد في مدافعة الشر واستجلاب الخير ، وعندما يطلق الجهاد يتجه الى الجهاد في المعركة بالنفس أو المال ، وسنقدم دراسة تفصيلية لهذا النوع ، ولكن قبل الأخذ في ذلك ينبغى أن نذكر نوعين من الجهاد هما ضد النفس والجهاد بالكلمة :

فالجهاد ضد النفس هو مصارعة الإنسان نفسه إذا مالت الى السوء ، والشر ، والإنسان يحاول بهذا الجهاد أن ينتصر على وسوسة الشيطان ونزعات الباطل ، وقد سمي الرسول صلى الله عليه وسلم هذا النوع من الجهاد « الجهاد الأكبر » إذ قال لأصحابه وقد عادوا مظفرين من إحدى الغزوات : عدتم من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر • قالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ • قال : جهاد النفس ^(١) :

وقد عُدَّ هذا الجهاد جهاداً أكبر لأن النفس التى نجاهدها كثيراً ما يختفى بها الشيطان ، وهو عدو كثير الخداع ، طويل الوسوسة ، لا يعلن عداوته ، بل إنه يتظاهر بمظهر الصديق الذى يحاول أن يجلب للإنسان اللذة والنعيم • وهو فى الحقيقة يجلب له الوباة ويجرئه الى سوء المآل •

وقد سمي هذا الجهاد « جهاداً أكبر » لأنه تهييب للنفس ، وتوجيه لها تجاه الخير ، حتى تستعد لجهاد العدو فى المعركة ، أما النفوس التى انحرفت وغلبتها الرذيلة وسارت مع الهوى فإنها لا تستطيع أن تواجه العدو ولا أن تصارع المعتدين •

(١) يرى بعض المفكرين أن هذا ليس حديثاً عن سيدنا رسول الله . بل هو قول ينسب لبعض العلماء ، وإذا صح ذلك فإن هذا القول جدير بالتدبر كحكمة ، ويكون شرحنا له على هذا الأساس .

أما الجهاد بالكلمة فيشمل كلمة حق يتولاها الانسان أمام سلطان لا يجب أن يسمع كلمات الحق ، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » ويعتبر ذلك أفضل الجهاد لأن هذه الكلمة قد تجر على هائلها قليلا أو كثيرا من المتاعب وقد يزعج بسببها السلطان الجائر ، ويشمل هذا النوع من الجهاد كذلك حث الناس على الجهاد وتعليمهم وسائله وأفضاله بالكلمة المقولة أو الكلمة المكتوبة ، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : جاهدوا المشركين بأبدكم وأموالكم وألسنتكم •

والهدف الأسمى من الجهاد هو إقامة مجتمع خير ، يسوده القانون والنظام •

تلك مقدمة سريعة عن ألوان الجهاد نعود بعدها للجهاد المسلح الذي خصصنا له هذا البحث :

الدعوة للإسلام قبل الإذن بالقتال

جاء الإسلام والدعوة للخير هدفه ووسيلته ، إنه يسعى لشرف الناس وإسعادهم في معاشهم ومآلهم ، وهو كذلك يتخذ الرحمة والفكر السليم واليسر وسائمه لتحقيق هذه الدعوة ، والقرآن الكريم يصور لنا هذا الهدف وتلك الوسيلة أدق تصوير .

قال تعالى في تصوير هدف الدين :

- وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (١) .
- يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا (٢) .
- ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (٣) .

وقال في تصوير وسائل الوصول لهذا الهدف :

- ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة (٤) .
- يا أيها المدثر ، قم فأندر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر (٥) .
- ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون (٦) :

(١) سورة الانبياء الآية ١٠٧ . (٢) سورة النساء الآية ١٧٤ .
(٣) سورة الاعراف الآية ٥٢ . (٤) سورة النحل الآية ١٢٥ .
(٥) سورة المدثر الآية ١ - ٧ . (٦) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

— ولو كنت غطاءً غليظ التلب لا نفضشراً من حولك ، غاعف عنهم ،
واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر (١) .

— لقد جاءكم رسول من أنفسكم . عزيز عليه ما عنتم ، حريص
عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم (٢) .

وفي ضوء هذه التعليمات سار محمد صلى الله عليه وسلم يدعو
الناس الى الاسلام متخذاً آداب الاسلام وتعليمات القرآن وسيلة له
الى قلوب الناس ، وقد بدأت دعوته في مكة بطبيعة الحال ، فاستجاب
له من استجاب ، وأعرض عنه من أعرض ، ولكنه سار حثيث الخطا ،
فتبعه مجموعة من عظماء الرجال . من أمثال أبي بكر ، وعلى بن أبي
طالب ، وعثمان . وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن
ابن عوف ، وأبي عبيدة بن الجراح ، والأرقم بن أبي الأرقم الذي
اتخذت داره لتكون مقراً للدعوة للدين الجديد ، ثم عمر بن الخطاب
وحمزة بن عبد المطلب ، ودخل مع هؤلاء مجموعة من الضعفاء منهم ياسر
وابنه عمار وزوجته سمية ، وبلال ، وخباب بن الأرت (٣) .

عقبات في طريق الدعوة :

وعندما تنامت دعوة الإسلام في مكة في طريقها السلمي المهادي ،
قابلها كبار قريش بالعدوان والقسوة البالغة ، أتت شملت السب ،
والضرب والتدبير للقتل ، بل القتل فعلاً لبعض أتباع الإسلام وقد صور
القرآن الكريم بعض هذا العدوان بقوله :

— تبّت يدأ أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيمضى
ناراً ذات لهب ، وأمرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من
مسد (٤) .

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩ . (٢) سورة البقرة الآية ١٢٨ .

(٣) ابن هشام ج ١ ص ١٦٥ . (٤) سورة المسد .

— وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم ، لا نبغى الجاهلين ^(١) .

— وإذا يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ^(٢)

واتجهت قوى الشر بمئة ألى تهذيب المسلمين حتى اضطرب كثير منهم الى ترك ديارهم وثرواتهم والهجرة الى الحبشة فراراً بدينهم من الظلم والعدوان ، وتجمعت هذه القوى ضد بنى هاشم ، من أسلم منهم ومن لم يسلم ، لأن بنى هاشم دافعوا عن محمد وعملوا على حمايته ، وراح الرسول يدعو الى الإسلام خارج مكة ، واتخذ وجهته الأولى نحو الطائف فدعا فريقاً من أشرفها الى وحدانية الله ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، ولم يردوه رداً كريماً ، بل أغروا به أحداثهم وسفهاءهم يسبونهم ويمسحون به ويرمونهم بالحجارة ^(٣) .

واتجه الرسول بدعوته نحو يثرب وساعدته عوامل متعددة ^(٤) على نجاح الدعوة بهذه المدينة العظيمة ، ففتح الله صدور أهلها لهذا الدين ، وعاماً بعد عام ، ولقاء بعد لقاء انتشر دين الله في يثرب بين الأوس والخزرج ، وبدأ المسلمون يهاجرون الى يثرب ، وتوقعت قريش أن يلحق محمد بأصحابه وأتباعه في هذه المدينة ، فقررت القضاء عليه ، ولكن هجرته تمت على كل حال .

ولم تشمل الهجرة كل المؤمنين ، بل إن قريشا منعت كثيرين من المسلمين من الهجرة وحبسهم بمكة ، وأنزلت بهم صوراً من الايذاء والتعذيب ، وكان من هؤلاء عبد الله بن العباس وأمه وأخوه الفضل .

(١) سورة القصص الآية ٥٥ . (٢) سورة الأنفال الآية ٢٠ .

(٣) ابن هشام ج ١ ص ٢٦٠ .

(٤) انظر هذه العوامل في « موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية » للمؤلف ج ١ ص ٢٥٠ وما بعدها من الطبعة الثانية عشرة .

ثلاثة عشر عاماً مرت على المسلمين بمكة قبل الهجرة ، ذاقوا فيها ألواناً من الاضطهاد والتعذيب ، لا شيء إلا أنهم أسلموا ، وكانوا كلما همّت نفوسهم برد الظلم أو تلذعت الى إيثاف العدوان والى القصاص من المعتدين ردهم رسول الله عن ذلك ودعاهم الى الصبر وهتف بهم في حزم : لم أؤمر بقتال . لم أؤمر بقتال . والتزم المسلمون بالسياسة التي اتبعها محمد لنفسه ، فإنه طالما أودى وبخاصة من أبى جهل ، ولكنه لم يرد قط على مكروه أبى جهل . وهكذا نجد أن الناس لم يخضعوا للسيف ليدخلوا الإسلام ، ولكنهم تعرضوا للسيف لأنهم أسلموا واحتملوا السيف في سبيل الله (١) .

اليهود خطر آخر ضد الإسلام :

وعندما انتقل الإسلام الى المدينة واجه عدواً جديداً ذلك هو اليهود ، وقد كان هؤلاء يعارضون كل حركة دينية لا تنبع من مجتمعهم ، ولهذا كانوا يتابعون بحق دعوة الإسلام منذ مطلعها ، وكانوا يظنون أن قريشاً ستقضى على هذه الدعوة في مهدها ، ولكن الدعوة اقتحمت عليهم مدينتهم فواجهوها بالعدوان من أول يوم ، على الرغم من معاهدة التعاون التي عقدها الرسول معهم ، ضامنة الحرية الدينية للجميع ، والتعاون لخير المجتمع الجديد (٢) ، ويصور القرآن الكريم عدوانهم بمجموعة كبيرة من الآيات نورد منها :

— ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين ، بثسما اشترىوا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباعوا بغيض

(١) انظر عبقرية محمد للاستاذ عباس العقاد ص ٤٨ .

(٢) انظر هذه الوثيقة في كتاب الأموال لأبى عبيد ص ٢٠٣ — ٢٠٥ وانظر

ألوان قدرهم وعدوانهم بالجزء الأول من « موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » للبولف .

على غضب ، وللكافرين عذاب مهين ، وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ، قالوا نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه ، وهو الحق مصدقاً لما معهم ، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين (١) .

— ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق (٢) .

— الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهودهم في كل مرة وهم لا يتقون (٣) .

— يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ هم قوم أن يسلطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم (٤) .

وبالإضافة إلى اليهود أدركت قريش أن يثرب — وقد أصبحت مركزاً جديداً للمسلمين — ستهدد تجارتهم الصاعدة إلى الشام والهاطقة لليمن ، وفي ذلك قضاء على اقتصادهم ، بالإضافة إلى ما يحقته من القضاء على وثنييتهم وأديانهم ، فقررت قريش أن تهاجم ذلك العقل الجديد وتقضى عليه .

وهكذا عند مطلع الهجرة نجد أمامنا صوراً تلاحقت : عدوان من قريش على المسلمين الذين تخلعوا بمكة ، وتفهمز يقوم به قريش ويتجهوا له اليهود على المسلمين بالمدينة ، وظهر بوضوح أن حرية انتدين اتجاء لا تعرفه وثنية قريش ، ولا تقبله طوائف اليهود ، وكان لابد من سياسة جديدة يتبعها الإسلام غير سياسة المسالمة الطوية التي كانت دستور الحياة بمكة ، وقوام هذه السياسة الجديدة الدفاع عن النفس ضد أى عدوان ، والدفاع عن المظلومين والمغلوبين على أمرهم بمكة ، والدفاع عن حرية الأديان ، وجاءت بهذا الدستور الجديد سور القرآن الكريم التي نزلت بالمدينة بعد أن خلت السور المكية من أى إذن بالقتال .

(١) سورة البقرة الآيات ٨٩ — ٩١ . (٢) سورة البقرة الآية ١٠٥ .

(٣) سورة الانفال الآية ٥٦ . (٤) سورة المائدة الآية ٩١ .

السور المدنية والإذن بالجهاد

رسمت السور المدنية صورة المجتمع الإسلامي الذي بدأ يتكوّن في المدينة ، فحفلت بالتشريعات في مختلف الشئون ، وكان الجهاد أحد الأمور التي عُنيت بها هذه السور حتى يعيش المجتمع في أمن ، وحتى يؤدي رسالته على مر التاريخ في حرية وانطلاق ، ولنتجه الى هذه السور المكتبة لنرى خطة الجهاد التي رسمتها * والسور المدنية هي كما يلي بترتيب نزولها (١) .

١ — البقرة	٢ — الأنفال
٣ — آل عمران	٤ — الأحزاب
٥ — الممتحنة	٦ — النساء
٧ — الزلزلة	٨ — التحدية
٩ — القتال (محمد)	١٠ — الرعد
١١ — الرحمن	١٢ — الإنسان
١٣ — الطلاق	١٤ — البيّنة
١٥ — النحر	١٦ — النور
١٧ — الحج	١٨ — المنافقون
١٩ — المجادلة	٢٠ — النجرات
٢١ — التحريم	٢٢ — التّماين
٢٣ — الصف	٢٤ — الجمعة
٢٥ — الفتح	٢٦ — المائدة
٢٧ — التوبة	٢٨ — النصر

(١) هذا الترتيب تبعاً للروايات التي نرى رجحانها ، وفي رواية الماوردي والنيسابوري التي اعتمد عليها الفيروز آبادي اختلاف طفيف ، انظر « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » ج ١ ص ٨٩ :

ونظرة عامة في هذه السور ترىنا أنها حفلت بالحديث عن الجهاد ، وحثت على الاستعداد له ، وبينت أسبابه ومقاصده وآدابه ، وأهاليته بالصلافة والتضحية ، ونفرت من الفرار ، وأفاضت في بيان جزاء المجاهدين والشهداء ، وذكرت أحكام الأسرى والغنائم ، وقد وضعت سورة البقرة وهي أولى السور المدنية أسس الجهاد ونظمه ، فقد وردت بها مجموعة من الآيات الممتة بالمسائل الكبرى المتصلة بالجهاد :

ففيها حديث عن السلم وأنه هو الأمل الذي ينبغي أن تنعم به البشرية إذا خلت الدنيا من أسباب الفتن والمكاره ، يقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة » (١) .

وفيها بيان لقسوة القتال وصعوبته ، ولكنه مع ذلك يصبح ضرورياً أحيانا ، ويجلب في ركابه الحرية والخير ، أما السلم الذي تحبه النفس فربما جلب الخزي والعار والخسران ، قال تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ » (٢) .

سورة البقرة ومعنى « التهلكة » :

ويتصل بهذا المعنى آية أخرى وردت بنفس السورة تحذر من أن يتلقى المسلمون بأنفسهم في التهلكة ، وذلك بحرصهم على سلامة النفس فلا يشتركون في الجهاد ، وحرصهم على سلامة المال فلا يقدمونه لشراء السلاح وعون الجند ، وستكون نتيجة هذا الحرص الهلاك وفقدان الأنفس والأموال جميعا على يد العدو . وإي فُتت بعض الأموال

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٨

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٦

وبعض الأنفس في ساحة الشرف لضمينت المسلمة لباقي الأموال والأنفس ،
قال تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعندوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ،
وانفقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ، وانفقوا في سبيل الله ، ولا تلقوا
بأيديكم إلى التهلكة » (١)

وقد روي تفسير هذه الآية عن الصحابي أبي أيوب الأنصاري رضي
الله عنه ، ففي سنن أبي داود عن أسلم قال :

غزونا من المدينة نريد القسطنطينية ، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن
خالد والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل على العدو ، فقال
الناس مه مه (أي كفف كفف) ثم قالوا متعجبين منه : لا إله إلا الله ،
يلقى بيديه في التهلكة !!

فقال أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه :

إنما نزلت فينا معشر الأنصار ، لما نصر الله نبيه صائى الله عليه وسلم .
وأظهر الاسلام قلنا : علم نقيم في أموالنا نصلحها ، وندع الجهاد . فأنزل
الله تعالى : « وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »
فالإناء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد .

وفي سورة محمد آية تقرر بوضوح أن من لم يستجب ندعة الإنفاق
في سبيل الله فإن ضرر ذلك مبعيد عليه . قال تعالى « ها أنتم هؤلاء ،
تدعون لتنفقوا في سبيل الله ، فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل
عن نفسه » (٢) ومن أجل هذا ذكر البخاري أن التهلكة هي ترك النفقة
في سبيل الله .

ومن تأدب بهذا الأدب السامي صلاح الدين الأيوبي الذي قيل له :

(١) سورة البقرة الآية ١٩١ — ١٩٥ وانظر تفسير الآيتين في القرطبي
والفخر الرازي .

(٢) سورة محمد الآية ٢٨ .

لماذا لا تدمر بعض المسال لأولادك وذويك ؟ فأجاب : إن بقيت الديار لنا ، فلنا كل ما فيها ، وإن ضاعت منا ضاع ما يملكه كل فرد واستولى عليه العدو ^(١) ومات هذا السلطان العملاق ولم يذف إلا سبعة وأربعين درهما وقطعة واحدة من الذهب ^(٢) ولكنه بهذه السياسة وهذا الإيثار حفظ البلاد من أعدائها ، وأنزل بهم أكبر الهزائم ، واسترد منهم أكثر ما كانوا قد سلبوه من أرض الإسلام ، ثم سجل لنفسه ذكراً خالداً دونه كل مال وكل ثراء ^(٣) .

خطة الهجوم الدفاعي :

وفي سورة البقرة كذلك وضع خطة الجهاد في الإسلام ، بأن يكون دفاعاً ورداً للعدوان ، وبيان بأن ما تسببه الفتن من تدمير أقصى مما تسببه الحروب من جراح ، قال تعالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تحسدوا ، إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقتهم وهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم » ^(٤) .

وقد ظل المسلمون يتبعون سياسة الدفاع المحض حتى جاءت غزوة الأحزاب ، ولم يخرج المسلمون فيها للملاحقة العدو ، واكتفوا بالوقوف موقف المدافع من داخل المدينة ، ولكن المسلمين عانوا في هذه الغزوة ألواناً من العناء والجوع من أثر الحصار الطويل ، ولذلك نجد المسلمين يغيثون من خططهم الحربية ، فلا يكتفون بالدفاع المحض ، لأن الاكتفاء به أوشك أن يقضى على المسلمين ، ولكنهم في الوقت نفسه لم يستطيعوا أن يلجئوا لسياسة الهجوم والعدوان فتلك سياسة لم يؤذن بها ، ولذلك

(١) شاهنشاه بن أيوب : ذيل النوادر ص ٣١٠ .

(٢) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج ٨ ص ٩ .

(٣) انظر سيرته في الجزء الخامس من « موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية » للمؤلف .

(٤) سورة البقرة الآيات ١٩٠ — ١٩٢ .

اتخذوا سبيلاً وسطاً هو ما يسميه العسكريون « الهجوم الدفاعي » أى أن يهجموا — مدافعين — على تكتلات الأعداء التى تستعد للزحف على المسلمين ، وكانت هذه هى خطة المسلمين بعد ذلك فيما قاموا به من حروب (١) .

الحرب الإسلامية تكون لإعلاء كلمة الله :

وفى سورة البقرة تكرار لجملة كبيرة الأهمية وهى « فى سبيل الله » وقد ارتبطت هذه الجملة بالقتال « وقاتلوا فى سبيل الله » (٢) وارتبطت بالإنفاق على المعركة « وأنفقوا فى سبيل الله » (٣) وسنرى هذا المعنى متكرراً فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، وقد حددت أحاديث الرسول مكانة الذى يحارب أو ينفق على الحرب لإعلاء كلمة الله ، وحددت مكانة الذى يفعل ذلك يلتبس الغنيمة أو الصيت والذكر ، وفيما يلي بعض الأحاديث الشريفة عن ذلك :

— عن أبى موسى قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله (رواه الخمسة) .

— عن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من غزاة تغزو فى سبيل الله فيصيبون غنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم ، ويبقى لهم الثلث فى الآخرة ، وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم عند الله .

وعن أبى أمامة قال : جاء رجل إلى النبی صلى الله عليه وسلم فقال له : أرايت لو أن رجلاً غزا يلتبس الأجر والذكر ، ماذا له ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا شيء له ، فأعادها الرجل ثلاث مرات والرسول

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للمؤلف ج ١ ص ٤٩١ من الطبعة الثانية عشرة .

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٠ والآية ٢٤٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٥

يقول : لا شيء له • ثم قال : إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه (١) •

فال مطلوب أن يكون الباعث الحقيقي على الجهاد هو قصد إعلاء كلمة الله سواء حصل غير الإعلاء ضمناً أو لم يحصل ، وهذا ما عليه أكثر العلماء ويؤيده ما جاء في الطبري عند قوله تعالى « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم » (١) فإن فضيلة الحج لا تتعارض مع التجارة فيه (٢) .

الإسلام وحرية الأديان :

وفي سورة البقرة حث المسلمين على حماية حرية الأديان ، وعلى مناهضة كل من يريد أن يحرم الناس هذه الحرية ، ويفرض عليهم ديناً معيناً ، وفي السورة كذلك بيان أن غير المسلمين يتبعون سياسة مغايرة ، هي سياسة محاربة التدين ومحاولة منع الناس من الدخول في الإسلام وردّ الذين دخلوه عن الاستمرار فيه ، قال تعالى :

— وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين (٣) .

— لا إكراه في الدين (٤) .

— ولا يزلون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا (٥) .

وفي سورة البقرة حث على التضحية والفداء وامتداح " لأوليئك الذين يحبون أنفسهم لمرضاة الله وإعلاء كلمة الحق ، قال تعالى « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله : والله رعوف بالعباد » (٦) .

(١) الشوكاني : نيل الأوطار ج ٧ ص ١١٩ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٨ .

(٣) الشيخ عبد الله غوشه : الجهاد طريق النصر (من أبحاث مجمع البحوث الإسلامية) .

(٤) نفس السورة الآية ٢٥٦ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٩٣ .

(٦) نفس السورة الآية ٢٠٧ .

(٧) سورة البقرة الآية ٢١٧ .

وهكذا في هذه الدراسة الموجزة عن السورة المدنية الأولى « سورة البقرة » رأينا سياسة الإسلام عن الجهاد تتضح ، وخطته تظهر بكل جلاء ، ولسنا نستطيع في هذا البحث الموجز أن نمير مع السور المدنية الأخرى واحدة واحدة نبرز اتجاهات كل سورة في موضوع الجهاد ، ولذلك نشفضل أن نسرف تعريفاً قصيراً بالسور المدنية التي اهتمت اهتماماً خاصاً بالحرب والجهاد ، ثم نعود إلى دراسة موضوع الجهاد من مجموع هذه السور .

وأول ما يلاحظنا بعد سورة البقرة سورة الأنفال ، وهي السورة المدنية الثانية ، وكثير من آياتها نزلت بمناسبة غزوة بدر والصراع المير الأول الذي خاضه المسلمون ضد قوة أكثر منهم عدداً وعدة ، وكيف كان الله معهم ، وكيف نصرهم مع قلة العدد وضعف العتاد ، وفي السورة آيات كثيرة تحت على الاستعداد وعلى الثبات والتعاون لمواجهة العدو ، وحديث طويل عن الأسرى والغنائم ، وهي بذلك ثروة كبيرة لمن أراد أن يدرس موضوع الجهاد بشرح وتفصيل .

وفي سورة آل عمران وهي السورة المدنية الثالثة سبع آيات تتصل بنظريات الجهاد (١) . وفي بعضها حث لأهل الكتاب أن يعودوا إلى الرشد ويبعدوا عن تعدد الآلهة ، وهتاف بهم أن يجيئوا إلى نقطة اللقاء مع المسلمين وهي عبادة الإله الواحد (٢) ، وتتهم هذه السورة كذلك بحث المسلمين على أن يكونوا منهم أمة واحدة معتصمة بحبل الله ، لا تعرف الفرقة ولا الخصام وألا يوالوا الكفار وأعداء الإسلام (٣) ، وتتهم السورة بإبراز المال الطيب لمن يموتون شهداء في سبيل الله (٤) .

(١) هناك آيات أخرى في سورة آل عمران غير هذه الآيات السبعة نتحدث عن غزوة أحد .

(٢) سورة آل عمران الآية ٦٤ .

(٣) نفس السورة الآية ٢٨ و ١٠٣ .

(٤) سورة آل عمران الآيات ١٥٧ - ١٥٨ - ١٦٩ .

أما السورة المدنية الرابعة (سورة الأحزاب) فقد نزلت كثير من آياتها مرتبطة بالفزوة الحسنة باسمها . ولا عجب أن تكون كالأفعال كثيرة الحديث عن الجهاد والحرب الدينية .

ومن بين السور المدنية سورة القتال « محمد » وبها مجموعة من الآيات تتحدث عن الحرب والصراعة فيها ، وفيها وعد من الله بأن ينصر الذين ينصرون . فيه ويثبت أقدامهم ، وفيها كذلك حديث عن شروط الجنة والصلح

ومن بين السور المدنية سورة الاحشر ، وأكثر آياتها تتحدث عن غدر بنى النضير وما آل له أمرهم ، كما أن بها الآيات الكريمة التي احتج بها عمر رضى الله عنه أمام من حكمهم من الأنصار ليجعل أرض السواد وأرض الشام ومصر أرض خراج لا أرض غنيمة (١) .

ومن بين السور المدنية سورة الحج التي تبرز بها الأسباب التي من أجلها منح الله المسلمين الإذن للدفاع عن أنفسهم قال تعالى : « أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنْ اللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بغير حق إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ » (٢) .

وننقل إلى سورة الصف وهي سورة اتخذت اسمها من آية كريمة ترسم للمسلمين صورة التكتل الحازم أمامهم . قال تعالى « إِنْ شَاءَ اللَّهُ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بَيْنَانٌ مَرصُوفُونَ » (٣) .

ونصل إلى سورة الفتح وهي التي نزلت عقب صلح الحديبية ، وقد سمى ذلك الصلح فتحاً لأن الدعوة عندما سارت في سلام بعد هذا الصلح فتحت لها الآفاق وانهاled عليها المسلمون ، وكانوا يخافون قريشاً قبله هذا الصلح ، فلا يستطيعون إعلان إسلامهم ، ويقول المؤرخون إن من

(١) سورة الحشر الآيات ٧ - ١٠ وانظر « الاقتصاد في الفكر الإسلامي » للمؤلف ص ١٨٠ وما بعدها من الطبعة السادسة .

(٢) سورة الحج الآيات ٣٨ - ٣٩ .

(٣) سورة الصف الآية الرابعة .

دخل الإسلام في السنتين اللتين تَلَكَّتا صلح الحديبية أكثر ممن دخلوه في المدة التي تقرب من عشرين عاما ، والتي تبدأ من مطلع الإسلام وتمتد حتى ذلك الصلح ، وهذا يدل على أن انتشار الإسلام يتبع العلم ولا يبيع الحرب .

من الصراع ... لنعمة الأمن :

وسورة الفتح يمكن أن تعطينا في هذا المجال معلومات أوسع ، فلنلقِ عددا وقفه أطول ، وأول ما يستلفت النظر أن سورة الفتح تتلو في ترتيب السور بالمصحف سورة محمد التي تسمى أيضاً سورة القتال ، وبين السورتين في تاريخ النزول حوالي ثلاث سنوات ، وهي مدة ليست بطويلة ، ومع هذا فسورة القتال طابعها الصراع المير من أجل الحياة ، ثم تبدلت الأمور في تلك السنوات الثلاث ، فلما جاءت سورة الفتح اتضح منها أن النعمة والأمن واليسر قد أصبحت طابع الحياة عند المسلمين .

— ونجىء بعد ذلك الى آيات السور فنقتبس منها ونعلق عليها :
قال تعالى : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) ^(١) وفي تفسير هذه الآية يتجه أكثر المفسرين الى أن الفتح هو صلح الحديبية الذي كان بعيد النتائج وكان فتح مكة أحد نتائجه .

وينتسب الفتح الوارد في الآية — كما يرى المفسرون — الى فتح في النفوس وفتح في الدعوة ، وفتح في الأرض ؛ فقد كشف الموقف في الحديبية عن تردد المنافقين وهاجم نفوسهم المريضة ، ودفع المسلمين الى بيعة الرضوان وبها استمداد للتضحية دون حدود ، وقد أوضحت آيات السور اعتذارات المنافقين من الأعراب لأنهم لم يلحقوا بركب الرسول وهو قاصد مكة للعمرة ، ومع أنهم كانوا كاذبين في اعتذارهم فإن نفوسهم بدأت تعرف طريقها الى الحق والنور ، أما نفوس المؤمنين فتدغمها السرور حين عاهدت الرسول على الصمود مهما كانت النتائج .

(١) سورة الفتح الآية الاولى .

وأما الفتح في الدعوة فيتضح من أن الدعوة الإسلامية سارت بعد الحديبية سيراً هيناً سلساً ، وانهارت كل العقبات من طريقها .

وأما الفتح في الأرض فإن المسلمين بعد الحديبية لم يَبْتَغُوا محصورين في المدينة بل ذهبوا ففرضوا على قوة اليهود في خيبر وتيماء ووادي القرى ، وكانوا من قبل قد قضوا على يهود المدينة ، وبانهيار قوة اليهود وتوقف الصراع مع قريش فتحت الآفاق للدعوة الجديدة ودخلت دعوة الإسلام بقاءً واسعة في الأرض .

— في سورة الفتح آيات ثلاث (١) تصف حال قريش وحال المسلمين عندما تأزمت الأمور وظهر شبح الحرب ، وعندما كانت المفاوضة تدور ، فقد كان معسكر الكفار تسيطر عليه حمية الجاهلية وأنفتحت ، تلك الحمية التي لا تعتمد على منهج أو عقيدة ، وكانت جماعة المسلمين تسيطر على قلوبهم السكينة والطمأنينة ، يبايعون الرسول في ثقة وإيمان ، فهم يستعدون للحرب والتضحية بكل شيء ، ولكن في هدوء واستقرار وطاعة كاملة للقائد ، وتقوى شاملة لله العلى العظيم .

وهذه الآيات هي :

* هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم والله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً .

* لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً .

* إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً .

(١) الآيات رقم ٤ و ١٨ و ٢٦ .

القرآن يسجل انهيار قريش :

— في سورة الفتح آية كريمة كشفت أسرار قريش ، هي قوله تعالى :
(ولو قاتلكم الذين كفروا لَوَكَّلُواْ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيْراً)^(١)
ويتضح من هذه الآية أنه لم يكن لدى قريش أى أمل فى النصر ، وأن
الانهيار كان متفجعاً فى أنفسهم ، ولم يعد فى طاقتهم أن يواجهوا المسلمين
وأن يصمدوا أمامهم .

إكرام المجموع من أجل بعض أفرادہ :

— وآية أخيرة نقتبسها من هذه السورة الكريمة توضح لنا السبب فى
عدم حدوث الحرب مع رجحان كفة المسلمين ، وهذه الآية هي قوله تعالى :
(ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم
منهم معرة بغير علم ، ليدخل الله فى رحمته من يشاء ، لو تزيَّنوا لعذبنا
الذين كفروا منهم عذاباً أليماً)^(٢) فقد كانت هناك جموع من رجال مكة
ونسائها دخلوا الإسلام سراً ، ولم يستطيعوا أن يعلنوا إسلامهم وسط
عناد قريش وقسوتها ، ولو اشتعلت الحرب لكان من الممكن أن يصاب
هؤلاء بسوء — لأن المسلمين لم يعرفوا خبر إسلامهم ، ولو أنزل بهم
المسلمون بعض الأذى ثم عرفوا فيما بعد خبر إيمانهم فإن المسلمين
يجسبون بالعمار والألم ، ولو تميَّز هؤلاء لكان من الممكن أن تقوم الحرب
يسلط الله فيها المؤمنين على الكافرين وهكذا شاء الله أن يكرم المجموع
من أجل بعض أفرادہ .

ولنختتم عرضنا للسور المدنية بالكلام عن سورة التوبة ، وهي آخر
سورة مدنية فيما عدا سورة النصر ، وفي سورة التوبة أحاديث طويلة عن
غزوتى حنين وتبوك .

وهكذا نجد السور المدنية ترسم فكرة الجهاد الإسلامية وتضعها فى

(١) الآية رقم ٢٢ .

(٢) الآية رقم ٢٥ .

صورة واضحة ، وتتمشى مع الغزوات غزوة غزوة ، منذ غزوة بدر وهي أولى الغزوات الى غزوة تبوك وهي آخرها ، ومن أجل هذا فالباحث يجد في هذه السور ثروة واسعة تنير له الطريق ، وتمدده بأدق العناصر عن موضوع الجهاد الذي احتاجه المسلمون منذ الهجرة ، ولا يزالون يحتاجونه حتى كتابة هذه السطور ، وسيظلون يحتاجونه أبداً ليحمروا أنفسهم وأهلهم وأوطانهم من عناصر الشر ما بقيت هذه الحياة • فلنسر في دراسة الجهاد في ظل هذه الآيات البينات نفصل ما عممنا ونشرح ما أوجزنا •

دراسات تمهيدية

الفكر الإسلامي

ومشكلات ما قبل المعركة

الإسلام والسلام

جاءت دعوة الإسلام البشرية دعوة هدى ويسر ، كما أشرنا من قبل ،
اتجهت الى الناس عامة تدعوهم لعبادة الله الواحد الأحد ، واتخذت البيان
والمنطق والحكمة وسائل لها لتوصيل هذه الدعوة ، قال تعالى :

— يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم
تتقون ، الذى جعل لكم الأرض غراسا والسماء بناء ، وأنزل من
السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا
وأنتم تعلمون ، وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا
بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم
صادقين (١) .

— يا أيها الناس إن وعد الله حق ، فلا تفرنكم الحياة الدنيا
ولا يفرنكم بالله الغرور ، إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ،
إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير (٢) .

وخص القرآن الكريم أهل الكتاب بدعوة فيها تقرش " وتعاطف قال
تعالى :

— قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد
إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من
دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (٣) .

— ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هى أحسن إلا الذين ظلموا
منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم
واحد ونحن له مسلمون (٤) .

(١) سورة البقرة الآيات ٢١ — ٢٣ . (٢) سورة فاطر الآيات ٥ — ٦ .
(٣) سورة آل عمران الآية ٦٤ . (٤) سورة المائدة الآية ٦٤ .

وكانت مهمة الرسول ومهمة أتباعه من بعده توصيل الدعوة للناس وإقامة البرهان على صحتها ، وللتناس بعد ذلك أن يختاروا دون إرغام أو إكراه ، قال تعالى :

- ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة (١) .
- فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر (٢) .
- فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب (٣) .
- لكم دينكم ولي دين (٤) .

ولكن الطغاة هبثوا في وجه الدعوة يقاومونها ويريدون القضاء عليها كما ذكرنا ، واشترك في ذلك الوثنيون من قريش ، ويهود الجزيرة العربية ، وقادة الباطل في إمبراطوريات الشمال ، وحاول الرسول أن يوقف هذا العدوان بالحنى ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح ، وكان الرسول في محاولته هذه يتبع فلسفة الإسلام التي تدعو إلى السلم وتكر العدوان وتكره إراقة الدماء ، وتدعو إلى التعاون مع المسلمين أيًا كانت أديانهم ، قال تعالى :

- يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين (٥) .
- وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله (٦) .
- لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلكم في الدين ولم يفرجسوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (٧) .

-
- (١) سورة النحل الآية ٢٥ .
 - (٢) سورة الفاشية الايتان ٢١ و ٢٢ .
 - (٣) سورة الرعد الآية ٥٢ .
 - (٤) سورة الكافرون الآية السادسة .
 - (٥) سورة البقرة الآية ٢٠٨ .
 - (٦) سورة الانفال الآية ٦١ .
 - (٧) سورة الممتحنة الآية الثامنة .

— فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا (١) .

وقد اتبّع المسلمون في جميع العصور فلسفة الإسلام ، فلم يلجئوا للسيف إلا إذا كان ذلك ضروريا ، وينبغى لنا هنا أن نبرز بعض النقاط التاريخية التي تزيل بعض الأخطاء الشائعة وتثبت أن المسلمين في جميع العصور اتبعوا سياسة المسالمة ما لم يكن هناك عدوان عليهم ، وأن لانتشار الإسلام ارتباط بالسلم ولم يرتبط بالحرب :

أولا : بدأ تخرش الروم بالمسلمين في حياة الرسول ، يروى أنه في سنة ٦٢٧ م (السادسة للهجرة) أسلم عمرو بن عبد الجذامي عامل الروم على عمان ، وأرسل مع مسعود بن سعد الجذامي بغلا أثهب وفرسا وحمارا ، وأقمصة كتانية وعباءة حريرية هدية للنبي ، ولما بلغ الرومان ذلك حاولوا إقناعه ليرتد ، فأبى ، فما كان منهم إلا أن ألقوا القبض عليه وسجنوه ثم صلبوه على ماء يقال له (عفرى) بفلسطين .
ثم أمر هرقل بقتل كل من أسلم من أهل الشام :

وفي سنة ٦٢٩ - (٨ هـ) أوفد النبي جماعة قوامها خمسة عشر رجلا إلى حدود شرق الأردن ليدعوا الناس إلى الإسلام ، وليستطلعوا أخبار الروم فخرج عليهم جمع غفير في مكان يقال له (طلة) بين الكرك والطفيلة وقتلهم كلهم إلا واحدا لاذ بالفرار (٢) .

وكانت تجمعات الروم تهدد المسلمين حتى كان المسلمون يتوقعون هجوم الروم عليهم كل لحظة ، ومما يدل على ذلك أن مصعبيا في أثناء حياة الرسول دق باب عمر بن الخطاب في ليلة وعمر نائم ، فهب عمر من نومه مذعورا وهو يقول : ما هو ؟ أجابت غسان ؟

ثانيا : في السنة السابعة للهجرة أرسل الرسول — اجتماعا لسياسة

(١) سورة النساء الآية ٩٠ .

(٢) كولونيل ترويك : تاريخ شرق الأردن وقبلها ص ٨٥ نقلا من

« الرسالة الخالدة » لعبد الرحمن مؤام ص ٢٢٨ .

الدعوة السلمية — كتاب دعوة الى ملك الفساسنة مع الحارس بن عمير الأزدى ، ولكن هؤلاء قتلوا رسول محمد وسخروا بمن أرسله ، وهددوا بالزحف على الجزيرة العربية والقضاء على الدعوة الناشئة ، فأعد لهم الرسول جيشاً بقيادة زيد بن حارثة ولكن الروم انضموا الى حلفائهم الفساسنة ، وأوقعوا بالمسلمين هزيمة في غزوة مؤتة (١) ، وهكذا بدأ الصراع بين المسلمين والروم .

وكما تحرش الروم بالمسلمين تحرش بهم الفرس أيضاً ، وكان تحرش الفرس بالإسلام ورسول الإسلام مبكراً فيُروى أن كسرى فارس أرسل الى نائبه باليمن يطلب منه أن يرسل رجلين قوين الى الحجاز ليأتياه بمحمد مكبلاً ، ولما وصلا الى الرسول قال الرسول لهم إن الله أوحى لى أن كسرى الذى أرسلكم قُتِلَ . فقالوا ننتظر الأخبار فإن صدقت دخلنا دينك ، وصدق الرسول ولكن كسرى الجديد كان كالقديم تجبراً وعدواناً والتاريخ يروى لنا أن القبائل الموالية للفرس كانت توالى الإغارة على أرض المسلمين ، ولم تكن حرب المسلمين مع الفرس إلا امتداداً للدفاع الذى قام به المسلمون ليحموا أنفسهم وذويهم من هؤلاء المغيرين .

وكانت الشعوب الخاضعة لكسرى فارس وفيهم الروم تكن تحت الظلم الصارخ الذى تشتمل به ، ففي فارس كان الملوك يُمَكِّدُون آلهة : وفي الروم كان الاستعمار قاسياً على البلاد الخاضعة للإمبراطورية ، وأكبر دليل على ما كانت تعانيه الشعوب من ضيق أنها لم تكن لها حماسة في الحروب ، وأن القادة الطغاة كانوا يحركون ذلك ، حتى لقد حدث في المعارك بين المسلمين وبين الفرس والروم أن اضطر القائد الفارسي أن يَتَّقِي جنوده بالسلاسل حتى لا يفرشوا ، وقد سُمِّيت هذه الموقعة موقعة ذات السلاسل ، وَحَدَّثَ مثلك ذلك مع الروم في موقعة اليرموك (٢) .

(١) النوى : تهذيب الاسماء : القسم الاول ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤١ .

ثالثاً : بعد ما توقفت الحروب ضد قادة الفلال في فارس والروم
تشرّكت للشعوب الحرية الكاملة في اعتناق الإسلام أو عدم اعتناقه ،
ويقرر التاريخ أن انتشار الإسلام في هذه الأقطار اتضح في عهد
عمر بن عبد العزيز ، وهو عهد أعمد السيف واتخذ الدعوة والمحاجة
دستوراً له ، ولذلك يسمى هذا العهد « عهد إسلام الشعوب المفتوحة »
ويقرر Kirk^(١) أن غالبية أهل الشام ومصر السفلى في القرن التاسع
الميلادي كانت لاتزال مسيحية على الرغم من أن الإسلام كان قد منى
عليه في هذه البقاع أكثر من قرنين ، ومثل ذلك ما يقرره^(٢) Roland Oliver
من أن الإسلام لم يتخذ طريقه خلف الصحراء إلا بعد انحلال دولته الكبرى
في المغرب ، وكانت وسيلة الإسلام لهذه البقاع هي الثقافة والفكر
والدعوة •

رابعاً : حارب صلاح الدين الأيوبي الصليبيين حرباً لا هوادة فيها ،
وأذاقهم مر الكأس لعدوانهم على الأرض الإسلامية ، واستعاد أكثر هذه
الأرض ، ودمر قلاع العدو وقلم أظفاره ، فلما وقعت الحرب أوزارها
راح الفرنجة الذين سقطت بلادهم يطرقون أبواب المدن التي لا تزال في
أيدي إخوانهم الصليبيين ، ولكن هذه المدن أقفلت أبوابها في وجوههم ،
وحينئذ تجلت في صلاح الدين شهامة الإسلام ، ففتح لهم بلاده على أن
يعيشوا فيها في ظل الإسلام ، وينعموا ما ضمنه الإسلام من حقوق لغير
المسلمين في المجتمع الإسلامي^(٣) •

وفي كلمة قصيرة : يسالم الإسلام من سألته ، فمن اعتدى على
الإسلام أو على المسلمين فإن الإسلام يدفع أتباعه إلى نضال صارم
يريدون به العدوان ، ويقضون على شوكة المعتدى الأتيم ، كما سنرى ذلك
فيما يلي :

A Short History of the Middle East. p. 36. (١)

A Short History of Africa p. 77. (٢)

Stanley Lane - Poole Egypt in the Middle Ages p. 169. (٣)

الاستعداد للجهاد

مثلت الحياة بالأشواك ، واتجهت نفوس الكثيرين إلى العدوان والغدر ، والإسلام دين الواقع ، لقد سالم وسالم ، ولكن العدوان استفحل واشتد ، وتجمعت قوى الشر ضده في حياة الرسول وبعد الرسول ، ففى الغزوات تعاونت قريش واليهود والأحباش وتعامه وغطفان وبنو مرة وأنسج على حرب المسلمين ، وفى عهد أبى بكر تعاون المرتدون ومدعو النبوة والمقنبئون ضد المسلمين ، وانضم لهؤلاء جند من الفرس والروم ، وفى العصور الوسطى تجمعت كل دول أوربا وزحفت على أرض الإسلام فيما يسمى بالحروب الصليبية ، وفى العصر الحديث استعمرت أوربا كل بلاد الإسلام ، وعندما تركتها عسكرياً كانت قد وضعت الأساس للون آخر من الاستعمار عن طريق إسرائيل فى قلب العالم الإسلامى ، وكذلك عن طريق الضغط الاقتصادى والتشويه الثقافى والاجتماعى ، وأكثر من ذلك ما تذكره المراجع الأوربية من أن تعاون اليهود والمسيحيين كان دائماً واضحاً ضد المسلمين وقد اتخذ فى العصور الوسطى الديانة المسيحية واجهة له ، ويتخذ الآن اليهودية واجهة جديدة (١) .

من أجل هذا كان لابد من المواجهة الجريئة ، ومن أجل هذا حث القرآن الكريم على الاستعداد للحرب لحماية الإسلام فى جميع العصور وجميع الأثناء .

موالاة المسلمين ومعاداة الأعداء :

وأولى خطوة فى الاستعداد للمواجهة والحرب ، موالاة الأولياء ومعاداة الأعداء ، فقد رأينا أن أعداء الإسلام تجمعوا ضد الإسلام ، فمن اللازم

(١) انظر كتاب اليهودية من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف من ٧٢ و ٩٢ .
وانظر كتاب : الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن . للمؤلف .

أولاً أن يتجمع المسلمون ويوالى بعضهم بعضاً ، وثانياً ألا تكون هناك موالاة بين المسلمين وبين أعدائهم ، وعن موالاة المسلمين بعضهم لبعض يقول الله تعالى :

— والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ^(١) .

— إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ^(٢)

وتجتمع المسلمين شىء طبعى في مواجهه التجمع الذى اتكفد أساسه معارضة الإسلام ومحاربة المسلمين ، ولا شك أن الخروج على هذا التجمع يعتبر ثغرة في الإيمان ونقصاً ينبغى تداركه . ونقصد بالخروج على هذا التجمع عدم الاستجابة للتعاون مع المؤمنين ، أما إذا وصل الخروج إلى موالاة الأعداء فذلك خروج على قانون الإسلام ، أو ارتداد عن الإسلام نفسه ، ولنستمع الى قوله تعالى في ذلك :

— لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شىء ، إلا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله المصير ^(٣) .

— يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين ^(٤) .

— يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ^(٥) .

(٢) سورة الأنفال الآية ٧٢ .

(٤) سورة المائدة الآية ٥١ .

(١) سورة التوبة الآية ٧١ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٢٨ .

(٥) سورة التوبة الآية ٢٣ .

— لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم (١) .

— يا أيها الذين آمنوا لا نتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق (٢) .

وسار المسلمون في عصور الإسلام الزاهرة في ضوء هذه التعليمات ، فتنكروا لوشائج القرى وصلات النسب عندما تعارضت مع الدين وموالاته المسلمين ، حتى ذان الواحد منهم يقف يصارع آله ويضرب ذوى رحمه لأن الدين عنه أصبح أقوى من كل رحم وأسمى من كل نسب ؛ ففي غزوة بدر وقف أبو عبيدة بن الجراح يحارب مع المسلمين ووقف أبوه في جيش قريش ، وحاول الأب أن يضرب ابنه مرة ومرة ، وكان الابن يفر من الضربات ويتفادها ، ولكن عندما استحسنت الحلفاء ووجد أبو عبيدة نفسه على أن يختار إحدى اثنتين : إما أن يضرب أباه ، وإما أن يخذل عقيدته ، وآثر الأولى وأغمد سيفه في أبيه فقتله ، وتساقطت دموعه ، لا حزناً على أبيه ، ولكن إشفافاً عليه لموته على الكفر . وفي نهاية هذه الغزوة أيضاً كان من رأى عمر أن يقتل الأسرى ، وصاح بالرسول أعطنى آلى لأقتلهم ، وآسليم العباس لأخيه حمزة ليقتله ، ولولا مزيد من الرحمة عند الرسول لكان ما أراد عمر (٣) .

تطهر الجيش من عناصر الخذلان :

ويرتبط بهذا الموضوع موضوع آخر شديد الصلة بدراسة نفسية المجاهد والاطمئنان على طهارته وإخلاصه ، والقرآن الكريم يحذر المسلمين أن توجد في جيوشهم عناصر الفتنة والخذلان ، يقول تعالى فيهم :

(١) سورة المجادلة الآية ٢٢ .

(٢) سورة المتحنة الآية الأولى .

(٣) انظر قصة أسرى بدر في كتاب المجتمع الاسلامي للمؤلف .

« لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ، ولأوضحوا خلالكم ، ينفونكم انفتنة » (١) .

فمثل هذه العناصر تكون شديدة الضرر معدومة النفع ، وقد وُجِدَتْ هذه العناصر في عهد الرسول صلوات الله عليه ، وحاولت هذه العناصر إيقاع الفتن والهزائم بجيشي المسلمين ، وجاءت فيهم آيات الذكر الحكيم قال تعالى : « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غورا » (٢) .

وإذا كان ذلك قد حدث في عهد الرسول ، فإن الإسلام يحذر القادة من أن يحدث هذا الآن ، فقد كان الوحي يكشف للمسلمين انحراف هؤلاء ، ولا حماية للمسلمين الآن إلا باهتمامهم وعمق فحصهم لجنود ، واطمئنانهم للإخلاص الجَمِّ الذي يشمل جميع عناصر الجيش .

الاستعداد بالقوة :

رأينا أن موالاته الأولياء ومعاداة الأعداء تعدُّ الخطوة الأولى للاستعداد للجهاد ، وتجيء بعد ذلك الخطوة الثانية التي وضحتها الآية الكريمة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم » وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » (٣) والناظر في هذه الآية الكريمة يجد صورا رائعة من الحكمة ومن سياسة الحرب ؛ وأول ما نلاحظه أن الاستعداد في هذه الآية شمل ناحيتين إحداهما القوة ، وقد جاءت هكذا مجعلة ، والثانية رباط الخيل وهي تقابل الاستعدادات الحربية في عهدنا الحديث ، أما حديث القوة فليس مقصوراً على القوة الحسية فقط ، وإنما يمتد كذلك إلى القوى المعنوية ، قوة العلم وقوة النفس والقلب ، فكل هذه الطاقات يجب أن تحشد عند المسلمين لتؤدي دورها

(١) سورة التوبة الآية ٤٧ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ١٢ .

(٣) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

في حراسه الأهداف الوطنية والمقيم العليا ، ونحظ بعد ذلك شيئاً مهماً في الآية هو ان قوة النفس وقوة بعده قد يسببان السلامه بما يبعثنه من رهبة في عروب الأعداء ، والمران الحريم بذلك يقرر بوضوح تلك القاعدة التي يقول بها المسلمة العسكريون في العهد الحاضر ، وهي ان الاستعداد للحرب قد يمنع الحرب ويحقق السلام ، وفي الآية كذلك إبراز " لتحقيقه ينبغي الا تحفى على المسلمين ، وهي ان أعداءهم كثيرون ؛ منهم من يعلن عداوته ومنهم من يكتتمها ، ونختتم الآية بوعده من الله أن يوفى من أنفخوا في سبيل الله جزاء ما قدّموا .

ونعود للحديث عن القوة لنقرر أن القرآن الكريم لا يهتم بالكم بقدر ما يهتم بالهيف ، فإعداد جماسة ولو صغيرة إعداداً شاملاً على النصو الذي وصناه والذي سنصفه في هذا البحث ، أعظم من الكثرة التي ينتجها الإعداد النفسى والبدنى والحكرى ، وفي ذلك ينسول الله تعالى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » (١) ، وقد روى أن رسول صلى الله عليه وسلم قال : إني لأخشى أن تداعى عليكم الأمم مما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : لا ، بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، والرسول بهذا يحذّر من الضعف والتهاون إذ لا يجدى مع الضعف كثرة .

الذين يخافون القوة أكثر من خوفهم من الله :

ومعنا آية كريمة نرد بها على المسلم الضعيف الذى يلجأ للاتكال ، ولا يعمل على تقوية نفسه ، تك هي قوله تعالى « لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله » (٢) ومعنى هذا أن العدو يهاب القوة أكثر مما يهاب الله لأنه لا يعرف الله ، ولأن القوة شيء مادي يراه ويحدث في نفسه الاضطراب والقلق ، ولأن الله تعالى لا يراه إلا العاقلون المؤمنون .

(١) سورة البقرة الآية ٤٩ .

(٢) سورة الحشر الآية ١٢ .

ولنختم هذه القضية بآية ذكرناها من قبل هي قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » (١) وقد ربطها أكثر المفسرين بالحرب وقالوا إن التهلكة في الآية معناها البخل بالقييل من الأنفس والأموال ويترتب على هذا ، تهلكة عامه وضياح الكثير من الأنفس والأموال ، فالأمة التي لا تستعد ولا تضحى ببعض مالها وبعض رجالها تجلب الذلة والفناء لكل الرجال وكل الأموال .

عون الله والصراع بين المسلمين وغير المسلمين :

نذكر هنا نقطة مهمة تخطر ببال بعض المسلمين أو ترد على ألسنتهم ، وهي أن هؤلاء يريدون أن ينصرهم الله دون أن يتخذوا الأهبة لذلك النصر ، وعلى هؤلاء ترده الآية الكريمة « ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليلو بعضهم ببعض » (٢) ويقول المفسرون في شرح هذه الآية : إن الله لو شاء لانتقم من الكافرين وهزمهم بأية وسيلة ولو بدون قتال ، ولكنه سبحانه شرع الجهاد ليختبر المؤمنين ويكافئ استجابتهم لتعاليمه ، وليدركوا أن الله رتب المسببات على أسبابها ، فهو يريد من المسلمين أن يبذلوا الجهد والاستعداد ويستعملوا الحكمة دون تقصير ، فإن لم يفعلوا ذلك استحقوا الهزيمة ، وإن فعلوا ذلك كان الله معهم وحقق نصرهم ، قال تعالى « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » (٣) وقال « ولينصرن الله من ينصره » (٤) .

وهناك آية كريمة يبدى بنا أن نوردتها هنا لأنها تلقى مزيداً من الضوء على هذه المسألة ، وهي قوله تعالى « فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين على الله أن يكف بأمر الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » (٥) ففي هذه الآية الكريمة عدة نقاط هي :

- | | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| (١) سورة البقرة الآية ١٥ . | (٢) سورة محمد الآية الرابعة . |
| (٣) سورة محمد الآية السابعة . | (٤) سورة الحج الآية ٤٠ . |
| (٥) سورة النساء الآية ٨٣ . | |

أولاً : التزام الرسول بالجهاد في سبيل الله وإن تخطى عن الجهاد بعض المنافقين أو المقصرين •

ثانياً : تحريض المؤمنين على الاشتراك في الجهاد لينالوا رضى الله وثوابه •

ثالثاً : تبشّر زُ الأية أملاً مهما هو أن يكف الله بأس الذين كفروا وأن يكتب عليهم الهزيمة إذا استجاب المؤمنون لدعوة الجهاد •

رابعاً : تقرر الآية أن قوة الله لا تمُعد لها قوة ، وبأسه لا يدانيه بأس ، وعلى هذا فعندما يمنح الله قوته وتأييده لمن يستحقه ، يتحتم أن ينال النصر المبين •

الجهاد المشروع وأسبابه

عند حديثنا عن آيات الجهاد في سورة البقرة شرحنا ما اتصل بهذه الآيات من أسباب الجهاد ، ونريد هنا أن نعرض لأسباب الجهاد كلها ، وأن نوضح مشروعية الجهاد إيضاحاً شاملاً .

والظلم ولعدوان طبيعة البشرية منذ حلت البشرية على الأرض ، وقد وضَّح القرآن الكريم طبيعة هذا الظلم بقوله : إن الإنسان لظلوم كفار ^(١) وقوله عن الإنسان : « إنه كان ظلوماً جهولاً » ^(٢) وجاءت الأديان تهذب هذه الطبيعة وتعمل على تقويمها وتدعو الناس للتعاون والمسالمة ، وتضع القوانين التي تضمن العدالة ولكن أكثر الناس نفروا من الأديان ، والذين اعتنقوها حرّفوها لتلائم طباعهم ، وجاء الإسلام وحفظَ الله كتابه الكريم من التحريف قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ^(٣) وفي هذا القانون الخالد تنظيم دقيق للجهاد ، وتحديد لأسبابه وأهدافه ، ومحاولة لجعل الجهاد وسيلة سلام إذا عجز السلام المحض أن يمنح البشرية الأمن والسلامة ، فعلى مرّ التاريخ لم يسعد قوم إلا بعد أن دافعوا عن أنفسهم وأثبتوا لمن حولهم أنهم يستطيعون حماية الثمار والدفاع عن الدار ، حتى لقد ارتبط عزّ الأقوام بجهادهم ، ولا يمكن أن يبدأ عزّ قبل أن تكون الدماء والكفاح أهمّ دعائمه ، ولنسر مع كتاب الله الكريم لنرى الأسس التي رسمها لهذا الموضوع الخطير .

وأول ما ينعنى به الفكر الإسلامى ألا تكون هناك حرب قبل أن تسبقها دعوة سلام ، فقد ثبت أن الرسول عليه السلام كان إذا بحث سريةً قال لأمرها : إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى الإسلام ، فإن أبوا فادعهم لإعطاء الجزية ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم .

(١) سورة ابراهيم الآية ٣٤ .

(٢) سورة الاحزاب الآية ٧٧ .

(٣) سورة الحجر الآية التاسعة .

. وإذا كانت الدعوة للإسلام نوعاً ضرورياً للتعريف به في العهد الإسلامي الأول ، فإن أغلب الباحثين يرون أن تسبق الدعوة "الجهاد" في عهدنا الحاضر أيضاً ، ولكنها دعوة للعدالة وتعهد للتعايش السلمي وعدم الجور على المسلمين ، فإن أبى المعتدون فالجهاد حكم" بين المسلمين وبينهم (١) ، ولم يكن الجهاد قط وسيلة لفرض الإسلام ، ومن الجهالة أن يدعى ذلك ، لسبب واضح تماماً هو أن العقائد لا تستقر بالإكراه .

ويتحتم على المسلمين أن يخوضوا المارك ويجاهدوا عند حدوث سبب من الأسباب الآتية :

أولاً : عند الدفاع عن المسلمين ضد أى عدوان يقع عليهم ، قال تعالى :

— وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (٢) .

— إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم ، أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون (٣) .

— فإن لم يعتزلوكم ، ويلقوا إليكم السلم ، ويكفوا أيديهم ، فخذوهم وأقتلوهم حيث ثقتهم ، وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً (٤) .

— أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله (٥) .

(١) الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة : تنظيم الإسلام للمجتمع ص ٤٩ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٠ .

(٣) سورة الممتحنة الآية التاسعة .

(٤) سورة النساء الآية ٩١ .

(٥) سورة الحج الآية ٣٨ — ٣٩ .

— فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم (١) .

هذا وقد اعتاد الفقهاء المسلمون أن يفرقوا في الدفاع بين الحق والواجب ؛ فيرون أن الدفاع واجب عن النفس والعرض والحيوان والودائع من الأموال ، ففي كل هذا يصبح الدفاع واجباً ، ويلتزم المسلم بأن يدافع عن نفسه ، وعن أهله ، وعن مال الغير المودع عنده ويدخل في ذلك دفاع رجال القوات المسلحة عما بأيديهم من سلاح وما ألزموا بحراسته من أرض الوطن ، لأن هؤلاء أمناء على ما في أيديهم من العتاد الحربى ومن الأجهزة بكل أنواعها ، فهى ليست مملوكة لهم ، انما هى مملوكة للدولة وهم مسئولون عنها ، ومن ثم فهم مكلفون بالذود عن كل هذه الأشياء حتى آخر رمق ، والدفاع عنها واجب .

ولكن إذا كان العدوان على مال مملوك للمعتدى عليه ، فإن الدفاع يصبح حقاً لصاحب المال ، فيجوز له أن يقوم بالدفاع عن هذا المال أو أن يتخلى عنه ، لأن المال ماله وله أن يتنازل عنه ، بيد أنه إذا كان التنازل عن هذا المال يسبب ضعف الجبهة الداخلية وتقوية العدو فإن الدفاع عنه يصبح واجباً (٢) .

ثانياً — عند الدفاع عن المظلومين من المسلمين الذين يعيشون تحت سلطان دولة جائرة غير مسلمة ، فإذا اعتدى على هؤلاء كان على المسلمين في كل البقاع أن يهبوا لنجدتهم وأن يرفعوا الضيم عنهم ، قال تعالى : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً » (٣) . ولا يجوز للمسلمين

(١) سورة البقرة الآية ١٩٤ .

(٢) انظر بداية المجتهد لابن رشد ، والمطى لابن حزم . وانظر كذلك مقالا للمستشار أحمد موافى بعنوان « القانون الإسلامى للحرب » في « نير الإسلام » (رجب ١٣٧٨) .

(٣) سورة النساء الآية ٧٥ .

أن يتركوا أبناء دينهم يعيشون في ضيم ينزله بهم عدو الإسلام ،
والآية واضحة الدلالة على أن القرآن يستثير همم النفوس الكبيرة لترد
هذا العدوان الأثيم .

ثالثاً : عند الاضطهاد الدينى وعدم حرية الدين ؛ قال تعالى :

— وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا
عدوان إلا على الظالمين (١) .

— وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن
الله بما تعملون بصير ، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم
المولى ونعم النصير (٢) .

وهكذا وضحت هذه الآيات أن الجهاد واجب في هذه الحال حتى
تصبح حرية الأديان حقيقة لا تشوبها شائبة ، وهكذا يتحقق أن الحروب
التي خاضها المسلمون لم تكن لحمل الناس على الإسلام وإنما لوقف إكراه
الناس على عدم الدخول فيه ، وأوضح دليل لذلك أن المسلمين سمحوا
لغير الإسلام بالبقاء في البلاد التي سيطروا عليها ، ويقول ابن تيمية :
وإذا كان أصل القتال المشروع وهو الجهاد بقصد أن يكون الدين كله
لله وأن تكون كلمة الله هي العليا ، فمَنْ منع ذلك قوئل باتفاق
المسلمين (٣) .

وعلى هذا فينبغي أن ينشط المسلمون في كل زمان ومكان للدعوة
للإسلام ، فإن منعوها من ذلك أو منعه من يريد أن يعتنق الإسلام من
اعتناقه ، كان لزاماً أن تترد القوة هذا المنع ، وأن يفسح السبيل للدعوة
وهرية التدين ، والجهاد حينئذ لمنع الحواجز والعوائق التي تحول دون
توصيل الدعوة للناس أو تحول دون اعتناقهم لها بعد الاقتناع بها .

(١) سورة البقرة الآية ١٩٣ .

(٢) سورة الأنفال الايتان ٣٩ — ٤٠ .

(٣) السياسة الشرعية في إصلاح الراعى والرعية ص ١٨ .

وقد سبق أن بيّنا عند الكلام عن سورة البقرة أن الحروب الإسلامية ينبغي أن تكون في سبيل الله وألا يقصد بها الحصول على غنيمة أو رفع الذكر بالشجاعة ، ونضيف هنا أن مراجعة كتاب الله تثبت أن التعبير (في سبيل الله) ورد مرتبطاً بالجهاد والقتال اثنتين وثلاثين مرة ، ولا يكاد أمره بالقتال أو الجهاد يخلو من هذا التعبير ، مما يوضح تلك الحقيقة التي أشرنا إليها من قبل ، وفي كتاب الله كذلك آيات تؤدي نفس المعنى مثل قوله تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده » (١) . بل إن القرآن الكريم يضمن نصر الله لمن قاتل في سبيله ، مخلصاً وجهه إليه ، قال تعالى :

— ولينصرن الله من ينصره (٢) .

— وكان حقاً علينا نصر المؤمنين (٣) .

— يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم (٤) .
وعلى هذا فإن المسلمين إذا هزموا في معركة ينبغي أن يراجعوا أنفسهم ، ليعرفوا أخطاءهم التي حرمتهم النصر ، ومنعت عنهم عون الله .

وننتقل إلى نقطة أخرى في حديثنا عن الجهاد المشروع في الإسلام ، هي أن هذه الحروب ينبغي أن تكون حروباً فيها نبل وعفة وكرم ، فلا يُقتل فيها إلا من يقاتل بنفسه أو بتدبيره ، أما الرجال الذين لا يشتركون في المعركة بطريق مباشر أو غير مباشر ، فلا تمتد لهم يد بأذى ، والآيات التي أوردناها توضح هذا المعنى مثل « قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » .

ويرى ابن حزم (٥) أنه يجوز في غير المقاتلين الوجهان أي أن يقتتلوا أو أن يستبقوا ، وقد بنى رأيه على أن هؤلاء يقدمون العون أرادوا أو لم يريدوا للمقاتلين ، وأن القضاء عليهم إضعاف لشوكة العدو ،

(٢) سورة الحج الآية ٤٠ .

(١) سورة الحج الآية ٧٨ .

(٤) سورة محمد الآية السابعة .

(٣) سورة الروم الآية ٤٧ .

(٥) المحلى ج ٢ ص ٢٩٦ — ٢٩٧ .

وبناء على هذا التعليل يصبح رأى ابن حزم جديراً بالقبول ، وبخاصة إذا ظهر عون هؤلاء للمقاتلين ولو بطريقة غير مباشرة .

أما الآيات التي فيها إطلاق القتال للكفار كقوله تعالى : « فإذا
انسأخ الأشر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » (١) وقوله :
« يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم
غلظة » (٢) وكذلك الأحاديث الماثلة كقوله صلى الله عليه وسلم : أمرت
أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإن قالوها عصموا مني دماءهم
وأموالهم إلا بحقها ، فنقد قرر جمهور المسلمين أن المراد بهؤلاء
مشركو العرب ، فلهؤلاء حكم خاص لخطورتهم على المجتمع
الجديد ، ويدل على ذلك كلمة « يلونكم » في الآية السابقة والمراد بها
يجاورونكم ، ويرى بعض العلماء أن المراد بالمشركين والكفار هنا هم
المحاربون والمعتدون (٣) .

(١) سورة التوبة الآية الخامسة .

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٣ .

(٣) الأستاذ الشيخ محمود شلتوت : الاسلام والعلاقات الدولية

• ص ۳۷ - ۳۸

وانظر بداية المجتهد لابن رشد ج ١ ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

الفكر الإسلامي
ومسكلات المعركة

ذكرنا من قبل أن الاستعداد للحرب قد يمنع الحرب ، ولكن المعركة قد تقع على أى حال ، ومن هنا لزم أن نتحدث حديثاً مفصلاً عن نقاط متعددة تتصل بالمعركة وميدان القتال :

حكم الجهاد

إن الآية الكريمة التى أوردناها آنفاً عند الحديث عن سورة البقرة وهى « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » تبين بوضوح ضرورة القتال لحماية المجتمع الإسلامى ، وأن الله سبحانه وتعالى قد فرضه على الناس لصالح الناس ، وهناك آيات أخرى تزيد الموضوع وضوحاً وتبين أبعاد هذا الواجب ، وهى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثأقنتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فامتناع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير ... انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » (١) ويجدر بنا أن نتعرف على أسباب نزول هذه الآيات وعلى موجز الأقوال المفسرين عنها ، لنذكر أسباب التثاقل من جهة ، وعقوبته من جهة أخرى ، وماذا يجب على المسلمين أن يفعلوا من جهة ثالثة يقول المفسرون إن هذه الآيات نزلت فى غزوة تبوك ، وكان المسلمون قد أمروا بالخروج لهذه الغزوة بعد رجوعهم من غزوة حنين والطائف ، وكان الوقت عشرةً عشرةً فى المال ووقت حصاد ، وكان وقت قيظ شديد ، ثم كانت الشقة بعيدة ، والعدو أكثر عدداً وعدة ، وكل هذا جعل بعض المسلمين يتثاقلون ولا يستجيبون للغزوة بحماسة ، فنزلت هذه الآيات توبخ وتهدد وتنذر ، مؤكدة أن هذه الدواعى وأكثر منها ينبغى ألا تحول دون الاستجابة لولى الأمر لمواجهة أعداء الإسلام ، وتقرر هذه الآيات بضع نقاط جديدة بأن نبرزها هى :

(١) سورة التوبة الآيات ٤٠ - ٤٣ .

أولاً — أن الارتباط بالمسادة وبالدار والولد وعدم خرض المعمار حباً لها يعود بالوهاب عليها جميعاً ، ثم إنه إن ضمن نعيم الدنيا فترة من الزمن فإنه يحترّم نعيم الخلود الذي لا يقاس به نعيم الدنيا ولا ما فيها من متع .

ثانياً — نهدّد الآية الثانية المتناقضين تهديداً قاسياً ، يشمل في الدنيا أن يستبدل بهم غيرهم ، ويشمل العذاب الأليم في الآخرة .

ثالثاً — تقرّر الآية الأخيرة أمراً واضحاً هو أن الاستجابة للنفير بنشاط وحماسة أمر واجب مهما كانت المشقة أو الأعداء ، ويرى أن ابن أم مكتوم سأل الرسول عقب هذه الآية : هل عليّ أن أنفر ؟ قال : نعم . ثم نزل قوله تعالى « ليس على الأعمى حرج ... » (١) وتقرر هذه الآية كذلك أن الجهاد ينبغي أن يكون بالنفس والمال كليهما أو أحدهما ، وأن هذا الجهاد خير للمسلمين في دنياهم وآخرتهم (٢) .

وقد عرض الفقهاء لحكم الجهاد وفصلوا القول فيه ، وتكاد آراء المذاهب كلها تجمع على النقاط التالية :

والجهاد فرض كفاية ؛ بمعنى أنه إذا قام به من يكفى لحمل عبئه سقط
الفرض عن الباقين ، لقوله تعالى « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » (٣)
ولم يخرج الرسول قط للغزو إلا وترك بعض الناس لرعاية مصالح المسلمين ، إذ لا يمكن أن يخرج الجميع للجهاد ، بل يتحتم أن يبقى عدد من الناس يفلحون الأرض ، ويباشرون التجارة ، ويعدون السلاح والطعام للجند ، ويحرسون الجبهة الداخلية ، ويقومون على البناء والعمارة .

وهناك طوائف محددة أعفاها الإسلام من الجهاد ، قال تعالى :

(١) سورة الفتح الآية ١٧ .

(٢) انظر الفخر الرازي والترطبي وسواهما من المفسرين .

(٣) سورة التوبة الآية ١٢٢ .

« ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج » ^(١) وقوله « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج » ^(٢) ولو احتاج الأمر للأعمى فيما يكفى فيه السمع مثلاً وللأعرج فيما لا يؤثر فيه العرج وجب على كل منهما أن يسهم بما يستطيع ، كما أن الذى لا يجد ما ينفق يلتزم بالغزو إذا كثرى مئونة الإنفاق ، والأجر لمن جاهد ولن عمل ليساعد المجاهد ، فقد روى عن الرسول قوله : لينبعث من كل رجلين أحدهما والأجر بينهما ^(٣) .

ويصبح الجهاد فرض عين فى الأحوال الآتية :

١ — إذا عيّن ولى الأمر أناساً للخروج ، فيجب عليهم أن يستجيبوا ولا يغنى عنهم سواهم ، يقول ابن حزم : ومن أمره الأمير بالجهاد إلى دار الحرب ففرض عليه أن يطيعه فى ذلك ، لقوله صلى الله عليه وسلم : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا ^(٤) .

٢ — إذا دخل العدو أرض المسلمين ، فإنه حينئذ يتعين على الجميع أن يهبوا لملاقاته ودفعه لا فرق بين رجل وامرأة ، ولا بين خادم ومخدوم ، ويرتبط هذا الواجب بأهل المحلة التى نزلها العدو أولاً ، ويمتد لمن جاورهم إذا احتاجوا لعونه ، وللمسلمين كافة إذا لزم الأمر ، فتخرج المرأة بدون إذن زوجها ، والعبد بدون إذن سيده ، والولد من غير إذن والديه والمدين بدون إذن دائنه ^(٥) . ومثل هذا ما ورد فى « بئس السالك لأقرب المسالك » فقد ورد النص التالى : ويتعين الجهاد بهجوم العدو على محلة قوم ، فيتعين عليهم وعلى من بقربهم إن عجزوا ، ويتعين على المرأة والرقيق والمدين مع هذه الحالة ولو منعهم الزوج والسيد والدائن ، ولا يعفى من الجهاد إلا من له أبوان شيخان يضيّعان لو تركهما هذا

(١) سورة التوبة الآية ٩١ . (٢) سورة الفتح الآية ١٧ .

(٣) ابن رشد : بداية المجتهد ج ١ ص ٣٩١ .

(٤) المحلى : ج ٧ ص ٢٩١ .

(٥) مجمع الأنهر فى شرح ملتقى الأبحر .

الابن ، فقد روى معاوية بن جاهمة قال : أتيت رسول الله فقلت له : يا رسول الله ، إننى كنت أردت الجهاد معك أبتغى بذلك وجه الله والدار الآخرة ولكن أُمى ... فقاطعه الرسول قائلًا : ويحك ! أحيه أهلك ؟ قلت : نعم . قال : ارجع فغيرها (١) .

والسبب في عموم الجهاد آنذاك أن تقدم العدو في دار الإسلام يهدد الإنسان والزرع والضرع والتجارة ، ولا يغنى شيء مع تقدم العدو ، وإذا استمر هذا التقدم كان هذا الثراء خاضعاً لسلطانه ، وعلى هذا فلا معنى للاهتمام بعمران ديار لا يطمئن المسلمون على سلطانهم بها ، فلا بد أن يدفعوا عنها هذا العدو الآثم بأكبر قوة ممثلة ، وأن تتكفل الجهود لذلك ، وبعد النصر تعود الأيدي للبناء والتعمير .

(١) بلغة السالك لأترب المسالك الجزء الثانى : باب الجهاد .

المرأة والجهاد

وبمناسبة الحديث عن خروج المرأة للجهاد إذا دخل العدو أرض المسلمين ، نذكر كلمة عامة عن المرأة والجهاد في الإسلام .

ويتجه الفكر الإسلامى إلى أن المرأة تدخل المعارك بالرجال من أهلها ، فهي تعدّتهم للوغى وتشجعهم عليه ، وتحمل العبء في غيبتهم ، وتنال بذلك نصيبها من الثواب ، فقد ورد في ترجمة أسماء بنت يزيد الأنصارية في الاستبصار أن رفيقات لها بعثن بها للرسول لتقول له : إن الرجال يخرجون للجهاد ، ويشهدون الجنائز ، ونحن في البيوت نحفظ لهم الأموال ونربى الأولاد ، فهل نشاركهم في الأجر ؟

فقال الرسول : يا أسماء ، أعلمى مَنْ وراءك من النساء أن حسن تبعثن إحداكن لزوجها ، وطلبها مرضاته تعدل كل ما ذكرت .

هذا جانب من الجهاد ، ولكن هناك جهادا مباشرا ، فقد ثبت أن بعض النساء كنّ يصحبن الجيوش في عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين ، وكن يداوين الجرحى ويخدمن الجيش ، وكنّ يأخذن قسماً من الغنيمة ، وتقول Mugannam (١) في ذلك « إن النساء المسلمات قمن في الحروب الإسلامية بالدور الذى تقوم به في العهد الحاضر منظمات الصليب الأحمر » فيروى أن أمية بنت قيس الغفارية قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة من بنى غفار فقلنا : يا رسول الله ؛ قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا — وهو يسير إلى خيبر — فنداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا . فقَالَ : على بركة الله (٢) .

وتقول النخعي بنت معوذ : كنا نغزو مع الرسول فنسقى القوم ونخدمهم ونداوى الجرحى ، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة (٣) .

(١) The Arab Women p. 25.

(٢) ابن حجر : الإصابة ٤ : ٥٨٥ .

(٣) ابن هشام ٢ : ٢٤٣ .

واستتركت المرأة المسلمة أحياناً في الحرب اشتراكاً فعلياً ، ومن هؤلاء أم عمارة الأنصارية التي قاتلت ببسالة يوم أحد ودافعت عن الرسول دفاعاً يصوره قوله عليه السلام : ما التفت يميناً أو شمالاً إلا رأيت أم عمارة تقاتل دوني ... (١) •

وقاتل يوم اليرموك نساء من نساء المسلمين قتالا شديداً ، وجعلت هند بنت عتبة تقول : عضدوا الرجال بسيوفكم (٢) • وكانت جويرية بنت أبي سفيان مع زوجها في حومة الوغى (٣) •

وفي موقعة صفين كان يتميز جمل أحمر تركبه الزرقاء بنت عدي الهمدانية وهي توقد الحرب وتحض شيعة عليّ على القتال قائلة : أيها الناس إن المصباح لا يضيء مع الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد ... أيها في الحرب قدماً غير ناكسين ولا متساكسين •

وقد استدعاها معاوية أيام خلافته فسيّرت إليه فقال لها : والله يا زرقاء • لقد شركت علياً في كل دم سفكه ، قالت : أحسن الله بشارتك • قال : أو يسرك ذلك ؟ قالت : نعم والله • فضحك معاوية وقال • والله لو فاءوكم له بعد موته أعجب من حبكم له في حياته • ثم سألها أن تذكر حاجتها • فقالت : يا أمير المؤمنين آليت على نفسي ألا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً (٤) •

(١) انظر الحديث عنها في موسوعة التاريخ • سلامي للمؤلف ج ١ ص ٣١١ •

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ١٤١ •

(٣) الطبري : ٢١٠٠ — ٢١٠١ •

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٢١٣ •

— وفي نفس المعركة كانت عكرشة بنت الأطرش متقلدة حمائل
السيف تقاتل أهل الشام وتحث قومها على الجهاد والنضال (١) .

— وفي سنة ١٢٩ هـ غزا صالح بن علي والعباس بن محمد بلاد الروم
ووغلا فيها وغزا مع صالح أخوته أم عيسى ولبابة (٢) .

وشهدت الشاعرة المشهورة الخنساء معركة القادسية ، وكان معها
بنوها الأربعة ، وكانت تحرضهم على القتال ، وقد سقطوا جميعاً الواحد
بعد الآخر ، فلما علمت باستشهادهم قالت : الحمد لله الذي شرفني
بقتلهم : وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته .



وهكذا نجد للمرأة المسلمة أدواراً متطورة في المعارك ، ونجدها بطله
في كل دور من هذه الأدوار .

(١) المرجع السابق ١ : ٢١٥ .

(٢) ابن الأثير ٥ : ٣٧٢ .

فضل الجهاد والاستشهاد

في الحديث عن فضل الجهاد يُمَدِّدُنا القرآن الكريم بأروع المعاني ،
قال تعالى :

— فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن
يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً (١) .

— إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ،
يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة
والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي
بأبعتكم به ، وذلك هو الفوز العظيم (٢) .

— يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟
تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير
لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها
الأنهار ، ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك هو الفوز العظيم ، وأخرى
تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين (٣) .

وهذه الآيات واضحة الدلالة على فضل الجهاد في الدنيا والآخرة ،
ولا بأس أن نقتبس فقرات قليلة من بعض المفسرين تعليقاً على هذه الآيات
الكريمة ، فعن الآية الأولى منها يقول المفسرون إن القرآن الكريم يحث
الناس على أن يستبدلوا الخالد بالفاني ، وفي الآية تنبيه على أن المجاهد
ينبغي أن يثبت في المعركة حتى يعزّه نفسه بالشهادة أو يعز الدين
بالخلف والغلبة .

(١) سورة النساء الآية ٧٤ .

(٢) سورة التوبة الآية ١١١ .

(٣) سورة الصف الآيات ١٠ - ١٢ .

وعن الآية الثانية يقول المفسرون إن الآية تمثيل للمثوبة العظمى التى مسحهم الله إياها وهى الجنة ، بسبب بذلهم أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله وفى الآية كذلك تأكيد لذلك بأنه وعد من الله ، وأنه ليس كالله فى الوفاء بعهده ، وتختتم الآية بالتبشير بالفوز العظيم الذى يجىء نتيجة لهذه الصفقة الرابعة •

وعن مجموعة الآيات التى اقتبسناها من سورة الصف نتكرر نفس المعانى ونفس الجزاء الأوفى الذى أعد للمجاهدين ، ولكن هذه الآيات تضيف جديداً إلى وعد الله ، هو الوعد بنعمة أخرى عاجلة محبوبة للناس وهى النصر فى الدنيا والأمن والسلامة ، وفى ذلك بشرى عظيمة لهم •

وفى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثروة ضخمة عند الحديث عن فضل الجهاد ، ومن هذه الأحاديث فنقتبس ما يلى :

- لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها •
- من أغبرت قدماه فى سبيل الله حرّمه الله على النار •
- من قاتل فى سبيل الله فثواب ناقة ^(١) وجبت له الجنة •
- إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف •
- رباط يوم فى سبيل الله خير مما طلعت عليه الشمس ، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها •
- من قاتل فى سبيل الله وجبت له الجنة ، ومن جرح جرحاً فى سبيل الله أو قتل جاعاً جراحه يوم القيامة لونها الزعفران وريحها المسك •

— من جهز غازياً فى سبيل الله كان له مثل أجره ، من غير أن ينقص من أجر الغازى شيئاً •

(١) نواق ناقة : مدة ما بين الحلبتين •

— رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، ومن مات في سبيل الله جرى عليه بعد موته ثواب عمله الذي كان يعمل به .

— عینان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعین باتت تحرس في سبيل الله .

وروى عن أحمد بن حنبل قوله : لا أعلم شيئاً من العمل بعد الفرائض أفضل من الجهاد ، ولا غرو أن كان الجهاد أفضل الأعمال بعد الفرائض لأنه استعداد للتضحية بأعلى ما يملكه الإنسان وهو النفس ، ثم إن أعمال البر كلها لا تتم إلا بعد السلامة من العدو وحماية البيضة ، فالجهاد حراسة للسور الضخم الذي يحمي المجتمع ، ولو انهار هذا السور انهار كل شيء ، ولم يعد هناك سبيل لجوانب الخير واتجاهات البر .

ومعنا قصة تاريخية تربينا مكانة الجهاد وأنه لا يعدله بعد الفرائض شيء ، فقد أعد الرسول مرة سرية من السرايا وجعل عبد الله بن رواحة قائداً لها وأمرها بالخروج إلى مكان حدّده ، وكان ذلك يوم الجمعة ، فقال عبد الله في نفسه : إئننى أستطيع أن أصلى الجمعة مع الرسول وألحق برفاقى في الطريق . ونفذ عبد الله هذا الخاطر ، فأمر رجاله بالسير ، ووعدهم باللاحاق بهم قبل وصولهم إلى الهدف .

ورآه الرسول — دون رفاقه — في صلاة الجمعة ، فسأله : ما منعك أن تغدو مع أصحابك ؟ فأجاب : أردت أن أصلى الجمعة معك ثم ألحق بهم . فقال الرسول : « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أدركت غدوتهم » .

ويروى أن رجلاً من أصحاب رسول الله مرّ ذات يوم بعين ماء عذبة فأعجبته ، فأراد أن يقيم بجوارها يعبد الله . ويمتزل الناس ويقتات من النباتات التي تنبت حولها ، ثم قال لنفسه : لن أفعل ذلك حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له الرسول :

لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته سبعين عاماً ،

الا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة : اغزوا في سبيل الله ، من غاتل في سبيل الله وجبت له الجنة •

ذلك هو فضل الجهاد ، فإن نال المجاهد الشهادة فيذك مزيد من الحديث عنه وعن ثوابه يقول الله تعالى :

— والذين قتلوا في سبيل الله فلن يئضل أعمالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم ، يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم (١) •

— ولئن قتلتم في سبيل الله أو متتم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون (٢) •

— فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب (٣) •

— ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله : أموات • بل أحياء ولكن لا تشعرون (٤) •

— ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله • ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين (٥) •

وهكذا فصلت هذه الآيات هذا الموضوع تفصيلاً واضحاً ، فذكرت أن أعمال الشهداء لا تضيع ولا تضل وإنما تصل إلى أهدافها وتحقق

(١) سورة محمد الآيات ٤ — ٧ . (٢) سورة آل عمران الآية ١٥٧ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٩٥ (٤) سورة البقرة الآية ١٥٤ .

(٥) سورة آل عمران الآيات ١٦٩ — ١٧١ .

غاياتها ، وأن الجنة تستقبلهم بعرفها وطيبها ، كما ذكرت أن ما يناله الشهيد خير مما يجمعه جامعو المال والراغبون في حطام الأرض . ووعدت هذه الآيات بغفران سيئات الشهداء وبحسن ثوابهم ، ووضحت الآية الأخيرة أن الشهداء أحياء وليسوا أمواتاً ، وأنهم ينعمون بما لا ينعم به ولا ببعضه أحياء هذه الدنيا ، ويقول صلى الله عليه وسلم : من سأل الله الشهادة بصدق من قلبه ، بلغه الله منازل الشهداء ، وإن مات على فراشه . ويقول كذلك : ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا غير الشهيد ، فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل لما يراه من الكرامة .

وقد كان المسلمون الأوائل يسعون للجهاد لينالوا إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، وكثيرون منهم كانوا يرون الشهادة أثمن وأفضل ، حتى بلغ من حرص المسلمين على الشهادة أن بعضهم كان يدخل المعركة وهو يدعو الله أن يقاتل ويجاهد وأن يقتل في سبيل الله ، يحكى التاريخ أنه في بعض المعارك سقط أخ لعمر بن الخطاب . ونجا من الموت عبد الله ابن عمر ، فعاد هذا إلى أبيه يقول له : سأل أخوك الشهادة فنالها وجهدت أن تساق إلى فلم أنلها .

وقبيل غزوة أحد التقى عبد الله بن جحش وسعد بن أبي وقاص ، فقال عبد الله لسعد : ألا تأتي فندعو الله ؟ فأجاب سعد : هلم لذلك ، وليذكر كل واحد منا حاجته في دعائه وليؤمن عليه صاحبه . فاستجاب سعد لذلك وانتهيا ناحية ، ودعا سعد فقال :

يارب ، إذا لقيت العدو غداً فارزقني رجلاً شديداً بأسه ، شديداً غضبه ، أقاتله فيك ، ويقاتلني ، ثم ارزقني عليه الظفر .

ودعا عبد الله فقال :

يارب ، ارزقني رجلاً شديداً بأسه . شديداً غضبه ، أقاتله فيك ويقاتلني ، ثم يقتلني

وهكذا لم تكن نجاة الفرد أغلى من أن يستشهد في سبيل الله .

ويروى التاريخ حادثة ترتبط بالآية التي أوردناها آنفاً وهي قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم » فإن عمير بن الحمام كان يحارب قريشاً مع المسلمين في غزوة بدر ، فأحس بالجوع ، فاعتزل المعركة ليأكل وأخرج من جرابه بلحات يهدى بها حدة الجوع ، فسمع وهو يأكل قارئاً يتلو هذه الآية ، فتناق عمير للقاء ربه والتمتع بالجنة التي عرضها السموات والأرض ، ونظر إلى البلح الذي أمامه وقال : كيف يشغلني هذا البلح عن لقاء الله ! لئن حييت حتى آكله إنها لحياة طويلة ، وألقى البلح عنه ، وأسرع إلى المعركة يخوض غمارها خوفاً من لا يخاف ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، وسقط في النهاية وراح للقاء ربه كما تمنى ، بعد أن قضى بسيفه على الكثيرين (١) .

ومثل هذا ما يروى عن عبد الله بن رواحه ، فقد قاتل في غزوة مؤتة بشجاعة نادرة ، ثم أحس بالجوع ، فانفلت يطلب ما يسد به رمقه فأعطاه شخص قطعة لحم وقال له شبع بهذه صلبك فإنك قد لقيت في المعركة ما لقيت ، فأخذها منه وضم منها قضمه واحدة ثم رأى المعركة يحمي وطيسها فألقى بالطعام وهو يقول : ويح طعام يحول بيني وبين النصر أو الشهادة .

وفي المراع ضد مسيلمة الكذاب تراجع مسيلمة ودخل حديقة عالية الأسوار قوية الأبواب واعتصم بها ، وامتنعت أسوارها على المسلمين من جند خالد بن الوليد ، ووقف خلف الأسوار أتباع مسيلمة يدافعون عن الحديقة ، فتقدم البراء بن مالك وصرخ فيمن حوله من الجند : احمطوني على هذا الترس برماحكم ، واقتذفوا بي داخل الحديقة ، فإما أن أمك وإما أن أفتح لكم باسم الله بابها فتتدفقون منه إلى ملاقات أعدائكم : وحملوه على الترس ، وألقوا به في الحديقة وراح

(١) ابن القيم : زاد المعاد ج ٢ ص ٨٨ .

يعالج فتح الباب ويدافع عن نفسه في الوقت نفسه ضد الأعداء الذين تكالبوا عليه من أتباع مسيلمة ، واستطاع بعد جهد أن يفتح الباب فتدفق منه المسلمون ودارت بالحديثة معركة طاحنة سقط فيها الآلاف من الفريقين حتى سميت حادثة الموت (١) .

ومما يشرف المصريين بوجه خاص والعرب والمسلمين بوجه عام أن حرب السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ أبرزت صورا لا تقل مجداً وجلالا عن الصور التي شهدها عصر صدر الإسلام ، فقد أثبتت الوقائع وقفات واندفاعات قام بها ضباط الجيش المصري وجنوده تدعو للفخر والإعجاب ، نذكر منها نماذج قليلة لتدل على أن أبطالنا في العهد الحاضر صورة من أبطال المسلمين في الماضي ، وأن روح الإسلام تغذي مختلف الأجيال عبر القرون ، ومن هذه النماذج :

— أحد المقاتلين يلقي بنفسه في حقل الغام نشره العدو لتفجر الألغام وتنقضي عليه حتى يفسح الطريق أمام رفاقه الزاحفين .

— بطل يطوق وسطه بحزام من المتفجرات ، ثم يلقي بنفسه وسط تجمعات العدو ليقضي على نفسه وعلى الكثيرين منهم .

— أربعة من المقاتلين عبروا القناة ووجدوا أنفسهم أمام موقع حصين للعدو تنطلق نيرانه ، وعلى الفور اندفع واحد منهم إلى فوهة المركز وسده بجسمه فأتاح الفرصة لزملائه ليتجهزوا لاقتحام الموقع والسيطرة عليه .

وفي كلمة موجزة ، لقد سجلت هذه المعارك بطولات أسطورية تعيدنا أمجادنا وتربط حاضرننا بماضيها .

ولا شك أن الذي يحرص على الشهادة ويمالها ينال معها الخلود لنفسه ، فالنفس فانية على كل حال ، قال تعالى « أينما تكونوا يدرككم الموت

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٤٤ .

ولو كنتم في بروج مشيدة » (١) ومن شرف الإنسان أن يموت مجاهداً
ليضمن لنفسه حسن الذكر في الدنيا وحسن الأجر في الآخرة ، وقد مات
سيف الله المسلول خالد بن الوليد على فراشه ، بعد أن خاض عدداً
كبيراً من المعارك ، وقد تحدث في رقدته الأخيرة بأنه يموت على فراشه
كما يموت البعير ، مع أنه ليس في جسمه مكان خلا من طعنة رمح أو
ضربة سيف ، وختم خالد حديثه بقوله : فلا نامت أعين الجبناء • ونحن
في أزمئتنا للبطولة والشجاعة نهتف بهذا النداء : لا نامت أعين الجبناء •

ونختتم هذا الموضوع بإيراد بعض أحاديث الرسول التي تصف
النقص الذي يلحق بالرجل الجبان الذي لا يجاهد ، والبخل الذي
لا يبذل المال للجهاد ، وسترينا هذه الأحاديث أن مثل هذا الرجل لن
ينجو من الإيقاع به في الدنيا وسيكون فيه ثلثة في الآخرة ، قال صلى
الله عليه وسلم :

— من لم يغز ، أو لم يجهز ، أو لم يخلف غازياً في أهله بخير ،
أصابه الله تعالى بقارعة قبل يوم القيامة •

— من لقي الله وليس له أثر في سبيل الله ، لقي الله وفيه ثلثة
(نقصان) •

الرباط

يمتزج الرباط امتزاجاً وثيقاً بالجهاد ، ويُعدُّ جزءاً منه ، ومع هذا فيحسن أن نخصه بكلمة لأن بعض الناس يرون الجهاد هو الصراع العسكرى ودوران المعركة ، وقد يتوهمون أن الرباط لا يندمج فيه .

والرباط هو الوقفة التى يقفها جنودنا على الحدود يخيفون معسكر الشرك ويحمون حدود البلاد ، وقد جاء فى « الفتاوى الكبير » لابن تيمية أن الرباط هو وقفة الجند فى موضع لا يكون وراءه إسلام .

ولكن الأسلحة الحديثة تمتد بمكان الرباط ولا تقتفى بالحدود ، إذ لا بد من وجود جماعة من المرابطين لحماية سماء البلاد ، وهؤلاء يمشون فى المطارات بالقرب من طائراتهم ليطيروا بها عند اللزوم ليواجهوا طائرات العدو ، وقد تكون هذه المطارات داخل البلاد ، كما أن الجالسين أمام أجهزة الرادار ليرقبوا تحركات العدو هم أيضاً من المرابطين ، والجالسون أمام المدافع المضادة للطائرات فى أى موضع كانت ، وحراس المرافق العامة ، كل هؤلاء يدخلون ضمن المرابطين فى العهد الحاضر .

وبهذا ينفصح شأن الرباط الآن غيشمل كل الذين يقفون موقف الاستعداد لحماية البلاد والدفاع عنها ، سواء كان موقفهم على الحدود أو فى أى موقع من مواقع الدفاع والحماية .

وللمرابطين ثواب عظيم لا يقل عن ثواب المجاهدين الذين يخوضون المارك ، وبخاصة إذا لاحظنا أن فترات الجهاد والصراع قصيرة إذا قيست بالرباط الذى لا يننى ولا يتوقف ، فالرباط يقف متأهباً مدى يطول أو يقتصر دون ملل ويغلب أن يكون الرباط بعيداً عن أسرته ، ويغلب كذلك أن يعيش فى حياة حافلة بالتشغف والخشونة والحرمان ، ويكثر أن يكون فى الصحراء أو الغابات أو البساتين ، وهذا يوضح لنا الجهد

الذى يبذله الم رابط ، كما يوضح أن مدوء الن حياة فى الداخل ، وسير التجارة والزراعة فى أمن ، إنما هى فى الحقيقة مدينة للوقفه الصارمة التى يقفها الم رابط يقظاً إذا نام الناس ، جاداً إذا لها الآخرون ، واضعاً أصبعه على زناد سلاحه إذا أمسك الآخرون بأقلامهم أو عزفوا على قيثاراتهم •

وفضل آخر مهم يرتبط بالم رابط ، ذلك هو أن وقفته الصامدة تخيف العدو فتجعله يتردد أو يمتنع من الهجوم على أرض الإسلام ، والم رابط بذلك يحمى الدماء والأرواح ، ولولا لـ لمربرد العدو وكثرت من عدوانه كما يحدث كثيراً عندما يضعف استعداد المسلمين •

ومن أجل هذا كان ثواب الم رابط عظيماً ، وقد سبق أن أوردنا بعض أحاديث الرسول التى تصف هذا الثواب ، وسنعيدها فيما يلى مع سواها لنبرز مكانة الم رابط وفضله العظيم ، يقول صلى الله عليه وسلم :

— رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل (رواه الترمذى والنسائى)

— كل ميت يشختم على عمله إلا الم رابط فإن عمله يذمر إلى يوم القيامة •

(رواه الترمذى)

— عيان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله •

(رواه الترمذى)

— ألا أخبركم بأفضل من ليلة القدر ؟ حارس حرسى فى أرض خوف لعله لا يرجع إلى أهله •

— من رباط ليلة فى سبيل الله كانت كالف ليلة صامها وقامها • (رواه ابن ماجه)

القلاع والحصون

وترتبط القلعة والحصن بالرباط ارتباطا شديدا ، ففيهما يعيش بعض الجنود دائما ، والقلعة طراز من الحصون شاع استخدامه في العصور الوسطى ، وكان يقوم بوظيفتى المسكن والحصن ، دُعِتْ إليه ظروف الحياة في تلك العصور التى كثر خلالها القتال ، وكان يراعى في اختيار الحصون أن تكون في أماكن مرتفعة للتحكم في الأرض المحيطة بها ، وقد اُنتشر بناؤها في أوروبا في القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر ، و خلال الحروب الصليبية اهتم الصليبيون والمسلمون ببناء القلاع ، وكان يكثر أن يوجد بها أبراج مستديرة جانبية ، ولا تزال بعض القلاع الإسلامية في سوريا موجودة ، أما القلاع الإسلامية في القاهرة والاسكندرية فلا تزال ناطقة بالقوة ، ومستعدة لاستئناف نشاطها العسكرى إذا لزم الأمر .

وفي سوريا قلعة شهيرة بجبال النصيرية أسماها « الحصن » عُرِفَتْ في العهد الصليبي بحصن الفرسان ويقال لها الآن حصن الأكراد إذ كان بها حامية كردية في القرن الحادى عشر ، وقد احتلها الصليبيون في آخر ذلك القرن ، ثم استولى عليها الظاهر بيبرس سنة ١٢٧١ ، وهى مربعة الشكل تقريبا ، ويحيط بها صكَّان من الأسوار ، وبالسور الخارجى أبراج دفاعية مستديرة يتصل بعضها ببعض بواسطة معر ، ويبلغ ارتفاع السور الداخلى حوالى عشرين مترا ، وهو أعلى من السور الخارجى وله منافذ لرشق السهام وبالحصن قاعة كبيرة ذات سقف معقود يرتكز على ٢٠ عمودا .

ومعده المظاهر نجدها متوافرة وعلى مستوى أرفع في القلاع المصرية ، سواء في ذلك قلعة صلاح الدين الأيوبي بالمقطم ، أو قلعة قايتباي بالاسكندرية ، وغيرهما من القلاع هنا وهناك .

أخلاق المجاهد

إن من أبرز تعاليم الإسلام الحربية تنظيم أخلاق المجاهد قائداً كان أو جندياً ، وسنعيش مع المجاهدين المسلمين الأول لنرى الأخلاق التي تحلوا بها فضمنت لهم النصر المبين :

الشجاعة والصبر :

في قمة هذه الأخلاق الشجاعة والصبر ، وذلك يبدو واضحاً من تكليف القرآن للمسلمين في مطلع الإسلام أن يناضل الواحد منهم عشرة ، وأن يتغلب عليهم بالصبر ، وعندما خفف الله عنهم أصبح على المسلم أن يصارع اثنين وأن يصبر ليتغلب عليهما ، استمع إلى قوله تعالى : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين » (١) وقد ضرب المسلمون الأول وفي قمتهم الرسول أعلى المثل في التخلق بالشجاعة والصبر ، وقد روى عن علي بن أبي طالب قوله : إنا كنا إذا اشتد اليأس واحمرت الحدة اتقينا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ويقول عبد الله بن عمر ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أراضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الصحابة يرون في الرسول قدوة لهم ، وقد عبر عن ذلك سعد بن معاذ بقوله : والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك •

(١) سورة الأنفال : الآيتان ٦٥ — ٦٦ .

وكان خالد بن الوليد يقول لجنده : يا أهل الإسلام . إن الصبر
عر . وإن الفشل عجز . وإن النصر مع الصبر .

الخشونة والتشرف :

ومن الأخلاق التي يراها الإسلام ضرورية للجندى الخشونة
والتشرف ، ومن الواضح أن اللين والترف يفسدان حياة الجندي
ويقضيان على نخوته ، والتاريخ يذكرنا بالأبطال الميامين الذين رقفوا
خلف الخندق في غزوة الأحزاب يدافعون عن الديار وقد شدوا الحجارة
على بطونهم من الجوع ، وقد رأينا من قيل ذلك المحارب البطل الذي
انسل من المعركة بدافع الجوع ليأكل بضغ بلنحات هي كل زاده ،
وقد أثبت أبطال الإسلام في الجيل الأول بطولة نادرة لأن نشأتهم كانت
نشأة صلبة وخشونة ، إنهم كانوا كما وصفتهم رسله المقوقس إليه :
ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولانهمة ، جلوسهم على التراب وأميرهم
كواحد منهم .

وفي المهود الإسلامية المتأخرة نجد الانكسارية يحققون نصراً مبيناً
في مختلف الأرجاء لأن تربيتهم كانت خشنة شديدة ، فلما ذاقوا اللين
وانغمسوا في متع العيش انهاروا وأصبحوا وبالا على أنفسهم وعلى
بلادهم ، وكان لابد من القضاء عليهم لتبدأ الدولة من جديد (١) .

ويرتبط بالخشونة في الحروب الطاعة ، وقد عبر القرآن الكريم عن
هذا الخلق أدق تعبير ، قال تعالى « طاعة » وقول معروف ، فإذا عزم
الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » (٢) .

(١) انظر ماكتبناه عن الانكسارية في الجزء الخامس من موسوعة التاريخ
الإسلامي والحضارة الإسلامية .
(٢) سورة محمد الآية ٢١ .

صدق البلاء :

ومن الأخلاق الضرورية للمحارب صدق البلاء والإصرار في الصراع يقول على بن أبي طالب : لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا : مَا يَزِيدُنَا إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . وَمُضْغًا عَلَى اللَّثَمِ (أى الطريق المعتدل) وصبراً على مضض الألم ، وجداً في جهاد العدو ، ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين ، يتخالسان أنفسهما أيهما يسقى صاحبه كأس المرن : فمرة لنا من عدونا ، ومرة لعدونا منا . فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا . الكبت وأنزل علينا النصر ، حتى استنصر الإسلام ملقياً جراحه ، ومتبوءاً أوطانه .

إنكار الذات :

ومن الأخلاق الضرورية للمجاهد إنكار الذات ، ودخول المعركة باسم الجماعة ، والتعاون التام للحصول على النصر وإن اختلف دور الفرد في ثنايا العمل الجماعي ، وهو المقصود بقوله تعالى « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » (١) أى تبدوا فيهم وحدة البنيان لا تعدد اللبئات ، ويحكى التاريخ أن مسلمة بن عبد الملك كان أميراً على جيش من جيوش المسلمين ، وكان يحاصر حصناً من حصون الروم استعصى عليهم فلم يفتحوه ، فحرّض الأمير جنده على التضحية والإقدام ، حتى يحدثوا في ذلك الحصن ثغرة ، ويثقبوا فيه ثقباً ، فأسرع واحد من المسلمين بالاستجابة لنداء الأمير ، واندفع إلى الحصن وقد وضع لثاماً على وجهه حتى لا يعرفه أحد ، واستطاع أن يحدث فيه ثغرة اندفع منها جنود المسلمين وفاجئوا الأعداء وانتصروا عليهم ، ففرح مسلمة كثيراً ونادى : أين صاحب النقيب ؟ فلم يأته أحد ، فصاح : عزمت على صاحب النقب ألا جاء لى ، فحضر الرجل المثلث واستأذن

(١) سورة الصف : الآية الرابعة .

في الدخول على القائد فسأله الحاجب : هل أنت صاحب النقب ؟ فأجاب :
أنا أدلكم عليه ، فأدخله الحاجب ، فلما مثل الرجل أمام مسلمة قال
له : أيها الأمير ، إن صاحب النقب يشترط عليكم ثلاثاً ، ألا تبعثوا باسمه
في صحيفة إلى الخليفة ، وأن لا تأمروا له بشيء ، وألا تسألوه من هو
فقال مسلمة : ذلك له فقال الرجل في استحياء : أنا صاحب النقب .
ثم ولى مسرعاً .

فكان مسلمة لا يصلي بعد ذلك صلاة إلا دعا فيها فقال : اللهم
اجعلني مع صاحب النقب يوم القيامة .

ومثل هذا ما يروى أنه في أثناء حصار عكا كان هناك رجل من دمشق
يشرف على آلات النفط وتحضير المواد اللازمة للمفرقات ، فأحرق
ثلاثة أبراج للعدو ، فأمر صلاح الدين بأن يمنح جائزة ، ولكن الرجل
رفض قبولها وقال « إنما فعلته لله ولا أريد الجزاء إلا منه » (١) .

الإيثار :

ومن الأخلاق الضرورية للمحارب الإيثار ، ففي رحاب الإيثار
وحدة وصلابة وقوة ، ويذكر التاريخ أن ثلاثة من أبطال المسلمين
وقعوا مثخنين بالجراح في معركة اليرموك ، وهم عكرمة بن أبي جهل ،
وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام ، وعندما كانوا في الفزع الأخير
هرّ بهم الساقى وكل منهم في حاجة إلى قطرات من الماء ، ولكن كلا
منهم كان يؤثر صاحبيه عن نفسه ، فيروى أن الساقى عندما جاء إلى
عكرمة أشار هذا إلى سهيل لأنه كان ينظر إلى إناء الماء ، فلما تقدم
الساقى من سهيل قال ابدعوا بالحارث ، ومات الثلاثة دون أن ينالوا من
الماء شيئاً .

(١) ابن حنبل : ج ٥ ص ٣٢١ .

وفي صراعنا في أكتوبر ١٩٧٣ على خط النار في سيناء مثل جيشنا
أروع دور في الإيثار ؛ فكان في بعض الظروف يعيش أفراد اليوم والأيام
يتقاسمون قطعة من البسكويت لا تكفى طفلاً رضيعاً ، ويقتسمون كوب
ماء لييل كل منهم لسانه فقط *

وكان هذا من أسباب النصر المبين الذي أحرزه جيشنا في صراعه مع
الصهاينة أعداء الله وأعداء الإنسانية *



صفات خاصة للقائد :

تلك هي أبرز الصفات التي يلزم أن يتخلق بها المجاهد قائداً كان
أو جندياً ، ولكن هناك صفات خاصة بالقائد ، ذلك الذي وضعت في
يده مقاليد الأمور وأرواح الناس ، من جند يدفع بهم إلى المعركة ، ومن
شعب المترم القائد بالدفاع عنه وحراسته ، وهذا يحتم على القائد أن
يكون أهلاً لهذه المسؤولية الكبرى ، لأن غلطة واحدة منه تجرّ على الجند
والشعب ألواناً من الكوارث ، وقد كتب الهرثمي في الباب الثالث
من مخطوطته عن سياسة الحروب أبرز الصفات اللازمة للرئيس ، قال :

أفضل الرؤساء في الحرب أيمنهم نقيبة ، وأكملهم عقلاً ، وأطولهم
تجربة ، وأبعدهم صوتاً ، وأبصرهم بتدبير الحرب ومواقفها ، ومواقع
الفرص والحيل والمكايد ، وأحسنهم تعبئة لأصحابه في أحوال التعبئة ،
وتسييرهم أوان المسير ، وإنزالهم أوان النزول ، وإدخال الأمن عليهم ،
وإدخال الخوف على عدوهم ، مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو ،
وأن يكون حسن السيرة عفيفاً صارماً ، حازماً ، متيقظاً ، شجاعاً ، سخيّاً ^(١) .

(١) الهرثمي : المختصر في سياسة الحروب ، الورقة ص ٦ - ٧ (مكتبة
الدول جامعة العربية) .

وقد تعرض الهرثمي لتقوى الله في الحرب ، وأفرد لها الباب الأول من مخطوطه ، ومما جاء فيه قوله : ينبغي لصاحب الحرب أن يجعل رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده ، وكثرة ذكره ، والاستعانة به . والتوكل عليه ، والفرع إليه ، ومسألته التأييد والنصر ، والسلامة والظفر ^(١) .

٢ (١) المرجع السابق : الورقة ٤ .

الإسلام وسياسة الحرب

هناك مبادئ مهمة تتضح لمن يدرس الجهاد في الإسلام ، وهي ترتفع بمستوى الفكر الإسلامى في هذا الموضوع إلى أرقى ما وصل له الفكر الحديث ، وهذه المبادئ هي :

١ — التعرف على أخبار العدو ، ومحاولة التجسس عليه .

٢ — الخديعة في الحروب .

٣ — الجانب الإنسانى خلال المعركة وبعدها .

٤ — لا ظلم ولا مثقلة ولا تدمير .

وسنتكلم عن هذه المبادئ فيما يلى :

١ — التعرف على أخبار العدو ومحاولة التجسس عليه :

يروى أنس أن الرسول قبيل غزوة بدر بعث بسبى بن بشر عيناً ينقل له أخبار عير أبى سفيان ، كما أرسل طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى طريق الشام يتجسسان له الأخبار ، وكان له جواسيس بمكة يأتونه بأخبارها ومنهم عمه العباس وبشير بن سفيان العتكي ^(١) ، ولما نزل قريباً من بدر خرج هو بنفسه ومعه أبو بكر يستطلعان الأخبار متكرين ^(٢) .

وفي غزوة الأحزاب يروى جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنفر حوله : من يأتينى بخبر القوم ؟ فقال الزبير : أنا . ثم قال الرسول : من يأتينى بخبر القوم ؟ قال الزبير : أنا . فقال النبي صلى

(١) عبد الحى الكتانى : التراتيب الادارية ج ١ ص ٣٦ ، ٦٢ - ٦٣ .

(٢) ابن هشام : ج ١ ص ٦٥ .

الله عليه وسلم : لكل نبي حوارى وحوارى الزبير . ويتضح من ذلك أن العين الذى ينقل الأخبار يكون من عمدة الأصفياء المخلصين للقائد . كما يجب أن يعتاز بالدهاء والمهارة .

وهكذا كانت عادته عليه السلام في كل غزواته أن يكثر من العيون التى تأتى له بالأنباء حتى أنه أمر زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليهود ، وكتابتهم فتعلمها ليستطيع بهذا الطريق أن يتعرف أخبار اليهود (١) :

وربما فعل الرسول ذلك في غير الغزوات ليتعرف على أحوال أعدائه ، ويروى أنه أرسل عبد الله بن جحش مع ثمانية رجال من المهاجرين ، ووجههم تجاه مكة دون أن يُعيّن لهم الغرض من رحلتهم ، وكتب إلى عبد الله كتاباً أمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين ، وسار عبد الله مع رفاقه طيلة اليومين ، ثم فتح الخطاب فإذا فيه : إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل (نخلة) بين مكة والطائف فتريص بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم .

وأوصى عمر بن الخطاب قائده سعد بن أبى وقاص بقوله : « تعرّف الأرض كلها معرفة أهلها » ويقول أيضاً : « أذكّر العيون بينك وبينهم ، ولا يخفّ عليك أمرهم » .

وأوصى الإمام على ابنه محمد بن الحنفية وهو يقود جيشاً باستكمال دراسته لأحوال العدو ، فقال له فيما قال : « أرم ببصرك أقصى القوم » .

وكان التعرف على أحوال العدو يتيح للذين يختارون لذلك أن يقولوا أحياناً شيئاً ضد الإسلام تظاهراً بالصدق أمام أعداء الإسلام ، يروى أن الرسول كلف محمد بن مسلمة الأنصارى بأن يدخل بين اليهود ليوقع بهم شيئاً أراداه الرسول ، قال ابن مسلمة : يا رسول الله ،

(١) تاريخ الطبرى : ج ٣ ص ٤٢ .

سأستعين ببعض المسلمين ، ولا بد لنا أن نقول فيك وفي ديننا هالاً نعتقد
لتحسين الوصول إلى أهدافنا • قال الرسول : قولوا ما بدا لكم فأنتم
في حل • واندس هؤلاء بين اليهود حيث قالوا إن دعوة محمد سببت لهم
عنتاً شديداً وعداوة مع الناس ... وهكذا أضلّهم اليهود ، وهكذا
وصل هؤلاء إلى ما أرادوا •

وقد وضع الرسول منهاجاً دقيقاً لعيونه وجواسيسه ؛ فعلمهم
ألا يتحدث أحدهم حدثاً ينبه الناس إليه ، أو أن يقتل أحداً إلا إذا أُجبر
على ذلك ، لأن فوز الجاسوس بالمعلومات النافعة أهم من قتل عدد من
الأعداء ، ففي يوم الخندق أرسل حذيفة بن اليمان عيناً على قريش
ونهاه أن يحدث شيئاً حتى يعود إليه ، وأرسل عبد الله الأسلمي ليقيم
في هوازن متكرراً حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم ففعل (١) ، وكان القائد
يجزل المكافأة لمن يأتيه بالأخبار النافعة حتى وإن كانت كريمة لدى
المسلمين ، فالدقة والصدق كانا من أهم ما يلتزم العين به •

وفي العصور الوسطى قل اهتمام المسلمين بالتعرف على أخبار
أعدائهم ، ولكن العدو كان حريصاً على أن يتعرف على أخبار المسلمين ،
وكان من نتائج ذلك أن هزم المسلمون في الحرب الصليبية الأولى ،
وعملوا بعد ذلك على تلافى النقص ، فبذلوا جهداً كبيراً لاستقصاء أخبار
الصليبيين ، بحيث لا تفوتهم كبيرة ولا صغيرة من أحوالهم ، فلم يعد
يخلو مكان من صاحب خبر وبريد ، حتى تعرف المسلمون على أخبار
الأقاصى والأداني وكان من نتيجة ذلك أن تحققت انتصارات المسلمين
على الصليبيين فيما بعد (٢) •

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٧٢ •

(٢) محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣٠٦ •

٢ — الخديعة في الحروب :

وعن موضوع الخديعة في الحروب نجد مجموعة كبيرة من الأحاديث
نورد منها :

— عن كعب بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا غزا
غزوة ورعى بغيرها :

— عن أنس قال أن رسول الله قبيل غزوة بدر هتف بأصحابه :
إن لنا طليعة فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا .

— عن أم كلثوم بنت عقبة قالت : لم أسمع النبي صلى الله عليه
وسلم يرخّص في شيء من الكذب مما تقول الناس إلا في الحرب
والإصلاح بين الناس وحديث الرجل لامرأته .

ويقول الشوكاني في التعليق على هذه الأحاديث : إن قوله صلى الله
عليه وسلم « ورعى » معناها « ستر » ويستعمل في إظهار شيء مع
إرادة غيره وهو في الحرب أخذ العدو على غرة . وأما قوله « طليعة »
فمعناها « حاجة » وهو إيهام للمقصود ويستدل به على أن الإمام يكتف
أمره ، وقوله « الحرب خدعة » معناها الأمر باستعمال الحيلة ما أمكن ،
وأن الإنسان إذا خدع مرة واحدة لم تثقل عثرته ، واستعمال اسم
المرء لبيان أن المسلمين ينبغي أن يقوموا بالخداع ولو مرة واحدة .
وأما قوله « ورعى » فمعناه « ستر » وهو ستر الوجه عن العدو
لما ينشأ عنه من المفسدة ، وفي الحديث تحريض على أخذ الحذر في
الحرب والندب إلى خداع الكفار ، وأن من لم يتيقظ لم يأمن أن ينعكس
الأمر عليه ، وينقل الشوكاني (١) . عن النووي قوله : واتفقوا على
جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن إلا أن يكون فيه نقض عهد أو
مخالفة أمان فلا يجوز ، وينقل عن ابن العربي قوله : الخداع في الحرب

(١) الشوكاني تنبيل الأوطار : ج ٧ ص ١٢٧ .

يقع بالتعريض وبالكمين ونحو ذلك ، وفي الحديث الإشارة إلى استعمال
الرأى فى الحرب بل الاحتياج إليه ، فذلك أكد من الشجاعة ، وينقل
عن ابن المنير قوله : معنى الحرب خدعة أى الحرب الجيدة لصاحبها ،
الكاملة فى مقصودها ، إنما هى المخادعة لا المواجهة وذلك لخطر المواجهة
ولحصول الظفر مع المخادعة بغير خطر .

وسار الرسول فى حروبه على هذه السيرة فنراه فى غزوة بدر يأمر
أصحابه بأن يقطعوا الأجراس من أعناق الإبل حتى يكون سيرهم
خفية ، وفى غزوة الفتح كتم الرسول أمره حتى عن زوجته عائشة وأبيها
الصديق ، وقال لعائشة جهيزينى ولا تعلمى بذلك أحداً (١) ، ولما
سار بأصحابه سألهم بعضهم عن وجهته ، فأجاب بقوله : حيث شاء الله (٢) ؛
ويقول الهرثمى : وإذا استطعت أن تحترس فى كتمان سرك فى حربك من
تقاتل فافعل ، فإن فى ذلك مضاء تدبيرك وقطع مكيدة من يكيدك ، واكف
لسانك عن فلتة كل منطق ، ينكشف به ما تضر من أمرك ، أو تخفيه
من سرك ، واعلم أنه قد يستدل بلحن المنطق على مصون السر ومكتون
الضمير ، ولا تستهن فى إظهار سرك بصغير لصغره ، ولا بأعجمى
لعجمته ، فرب سر مضمون قد اطلعوا عليه وأذاعوه (٣) .

الحرب لتحقيق العدالة لا للانتقام :

وبالإضافة إلى هذين المبدأين اللذين وصفناهما بأنهما أرقى ما وصلت
له البشرية فى العصر الحديث ، هناك مبادئ أخرى لم تستطع البشرية
أن تحققها أو أن تقرب منها حتى الآن ، ومن هذه المبادئ أن الحرب
ضرورة لتحقيق عدالة ، ولا يجوز أن تكون للانتقام ، ولا أن يصحبها

(١) ابن هشام : ج ٢ ص ١٧٨ .

(٢) الطبرى : ج ٣ ص ١١٥ .

(٣) مختصر « فى سياسة الحروب » ورقة ١١ .

أو يتبغها أى نوع من أنواع الحق والتشفى ، يقول الله تعالى « ولا يجرمكم ثنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب » (١) وفى تفسير هذه الآية يقول النفسى : ولا يجهلونكم شدة بغضكم لقوم أن تنتقموا منهم ، وتعاونوا على البر والتقوى أى على العفو والإغضاء ومجانبة الهوى ، ولا تتعاونوا على الإثم والعدوان للتشفى والانتقام ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب فانتقامه أشد وسنزيد هذه المبادئ شرحاً فيما يلى :

٣ - الجانب الإنسانى خلال المعركة وبعدها :

الجهاد فى الإسلام يرمى إلى كسب المعركة ، وعندما يكسب المسلمون المعركة ينبغى أن يعملوا على تخفيف حدة العداوة ، وعلى محاولة كسب قلوب الأعداء بطريق أو بآخر ، ففى غزوة حنين أسر المسلمون عدداً كبيراً من هوازن ، ولكن وفداً من كبار هوازن جاءوا إلى الرسول فى « الجعرانة » مسلمين تائبين وطلبوا أن يرُدَّ إليهم الرسول أموالهم وأهلهم ، فنزل لهم الرسول عن حقه وحق بنى عبد المطلب فى المال والسبى ، وحسب الرسول للمسلمين التنازل عن حقوقهم فاستجابوا له وتنازلوا عن حقوقهم فى الأموال والنسب ، بل إن الرسول أعلن أن مالك بن عوف الذى قاد جيوش هوازن وثقيف فى هذه المعركة لو جاء مسلماً لمفاهة ورد إليه أهله وماله ، فخرج مالك من الطائف وقصد الرسول وأعلن إسلامه واسترد ماله وذويه (٢) ، وتكرر مثل هذا العمل فى غزوة بنى المصطلق وفى غيرها ، وهو يدل دلالة واضحة على أن المسلمين لا يرمون إلى استعباد أحد أو إذلاله ، وحسبهم أن يضمنوا لأنفسهم السلامة ، وأن يضمنوا حرية الأديان وحرية الدعوة لها .

(١) سورة المائدة : الآية الثانية .

(٢) ابن هشام : ج ٣ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

٤ - لا ظلم ولا مثلة ولا تدمر :

والجهاد في الإسلام لا يمتد للشيخ والنساء والأطفال ورجال الدين ، بشرط ألا يشترك هؤلاء في المعركة اشتراكاً فعلياً حتى وإن اشترك أهلهم ، كما أنه لا يجوز فيه تعذيب الأحياء أو قذفهم ، ولا يجوز التمثيل بأجساد الموتى ، وقد أخذ الباحثون ذلك من قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » (١) ويقول البيضاوي في تفسير هذه الآية : لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم فتمتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل كمثلة ، وقذف ، وقتل نساء وصبية ، ونقض عهد ، تشغيلاً مما في قلوبكم ومن الأحاديث الواردة في هذا الموضوع قوله عليه السلام :

— عن ابن عمر قال : وجدت امرأة مقتولة في بعض المنازى فنهى الرسول عن قتل النساء والصبيان •

— وعن رباح بن ربيع أنه خرج مع الرسول في غزوة غزاها وكان على مقدمته خالد بن الوليد ، فمر الرسول على امرأة مقتولة فقال : ما كانت هذه لتقتل ، ثم التفت إلى أحد أصحابه فقال له : التحق بخالد فقل له لا تقتلوا امرأة ولا ذرية ولا عسيفاً (أجيراً) •

— وعن أنس أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : انطلقوا باسم الله وعلى ملة رسول الله ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة ولا تغلوا (لا تخونوا) وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المصنين •

وعن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال : اخرجوا باسم الله تقتلون في سبيل الله ، لا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الولدان ، ولا أصحاب الصوامع •

(١) سورة المائدة : الآية الثامنة •

ويقول ابن حزم : ولا يحل قتل نساء الكفار ولا قتل من لم يبلغ الحُلُم منهم إلا أن يقاتل أحد منهم فلا يكون للمسلم منجى منه إلا بقتله فيجوز قتله حينئذ ، فإن أصيبوا في الليل أو في اختلاط المحمة عن غير قصد فلا حرج في ذلك (١) .

والجهاد في الإسلام لا يعتمد إلى قتل الحيوان أو تخريب البيوت أو قطع الأشجار ، ما لم تكن هذه وسائل لكسب المعركة كالحيوانات التي تساعد في الحرب أو البيوت والأشجار التي تتخذ حصوناً ومعاقل ، ويقول ابن رشد (٢) : اتفق جمهور الفقهاء على جواز رمي الحصون بالمجانيق سواء كان فيها نساء وذرية أو لم يكن ، لأن النبي نصب المجانيق على أهل الطائف ، واختلف الفقهاء في المبانى والحيوانات والنبات فمنهم من أجاز ذلك بقصد أن يكون ذلك إضعافاً لشوكتهم ، وما دام ذلك وسيلة للنصر فإنه جائز ، وقال الشافعي : تحرق البيوت والشجر إذا كانت لهم معاقل ، ويكره ذلك إذا لم تكن معاقل لهم ، وقد روى مالك عن أبي بكر أنه قال في وصيته لجيشه ستجعون قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فذعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، ولا تقتلوا امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرمًا ، ولا تقطن شجراً ، ولا تخربن عامراً .

وأما الحيوان فقد أجمعوا على عدم إزهاق روحه إذا لم يكن عوناً مباشراً في مساعدة العدو ، ويروى أن أبا بكر أوصى قواده إلى الشام : لا تقتلوا امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرمًا ، ولا تقطعوا شجراً مثمراً ولا تحرقوا عامراً ولا تمقرزوا شاة أو بعيراً إلا لبأكلة ولا تحرقن نخلاً (٣) ، ويتجه ابن حزم إلى التفريق بين ما فيه روح وما ليس به روح ، فيحرم ما فيه روح لحرمة الروح ويبيح تدمير ما لا روح فيه ، وهو يقول في ذلك : وجائز تحريق أشجار المشركين وأطمعتهم وزرعهم

(١) المحلى ج ٧ ص ٢٩٦ .

(٢) بداية المجتهد : ج ١ ص ٣٩٦ .

(٣) الشوكاتى : نيل الأوطار ج ٧ ص ١٤٩ .

ودورهم وعدمها لقوله تعالى : « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين » (١) ، وقوله « ولا يبطئون مرتطلاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عيـدو نيسلا إلا كتب لهم به عمل صالح » (٢) ، وقد أحرق الرسول نخل بني النضير ، أما نهى أبى بكر عن ذلك فثيـحـمـل على الإباحة إذ أنه كما يجوز التحريق يجوز الإبقاء حسب الأحوال (٣) .

وقبل أن نتجاوز ذلك إلى ما فيه روح نصب أن نضيف أن الرسول في حصاره للطائف أذن بتحريق الكروم ، وكروم الطائف أغلى ما يعتز به أهلها ، فأرسل هؤلاء إلى الرسول يرجونه ألا يحرق الكروم ، ويخبرونه أن يأخذها لنفسه أو يدعها لله وللرحم (٤) ، وقد أحس الرسول من ذلك أن عريكتهم بدأت تـثـين فاستجاب لتوسلهم وأوقف تحريق الكروم ، ولو أجرينا مقارنة بين تحريق نخل بني النضير وبين الكف عن تحريق نخل الطائف لانتضح لنا الفرق ، فاليهود لا أمل في أن يهتدوا ، ويتقرب المسلمون إلى الله بكل إيذاء وغيظ ينزلونه بهم ، وبكل ما ينالونه منهم على مامرء في الآيتين المذكورتين آنفاً ، وعلى العكس من ذلك أهل الطائف الذين لانت عريكتهم وسرعان ما أصبحوا من خيرة المسلمين ، وهذا يعني أن القائد يتدبر الأمر في حدود الصالح العام .

ونعود لابن حزم لنقتبس رأيه في إتلاف ما فيه روح أو عدم إتلافه ، يقول ابن حزم : ولا يطل عقر شيء من حيواناتهم البتة ، لا إبل ولا بقر ولا غنم ولا خيل ولا دجاج ولا حنظل ولا أوز ولا غير ذلك إلا للاكل

(١) سورة الحشر : الآية الخامسة .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٢٠ .

(٣) ابن حزم : المحلى ج ٧ ص ٢٩٤ .

(٤) ابن القيم : زاد المعاد ج ٢ ص ١٩٧ .

فقط ، حاشا الخنازير جملة ، ومثل ذلك نحلهم لا يحرق ولا يفرق ولا تحرق
خلاياها (١) .

بل نهى الرسول عن قتل العمال والأجراء الذين ليس لهم دور في
الحروب ، لأنهم بناء العمران والحارثون والزارعون ، والحرب الإسلامية
ليست لإزالة العمران ولا لتعميق سير الحياة ، وعن ابن عباس أنه قال :
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال : اخرجوا باسم
الله تعالى ، تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ،
ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا الوالدان ولا أصحاب الصنائع .

وفي ختام هذه الدراسة ننقل وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه ،
فقد كان يوصي كل قائد يرسله لمعركة بقوله : إني موصيك بعشر : لا تقتل
امراة ، ولا صبيا ، ولا شيخا هرما ، ولا تقطعن شجرة ، ولا نخلا ،
ولا تحرقها ، ولا تخرّب بن عامرا ، ولا تعقرن شاة إلا لمأكله ، ولا تجبن ،
ولا تغفل (أي لا تخشع في الغنائم) .

(١) ابن حزم : المحلى ج ٧ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .

الثبات والفرار

لا نعرف شيئاً حدث عليه القرآن الكريم ووعد بالإثابة عليه كما فعل مع اثبات في المعركة ، ولا نعرف شيئاً استهجنه القرآن وذمته وتوعده فاعله كما فعل مع الفرار والهرب من المعركة ، على أن مصادر الفكر الإسلامي لم تكف في هذا المجال بالمحدث عن الثبات والفرار ، وإنما أحاطت بالموضوع من نواح متعددة ، ولذلك يلزمنا أن نبرز هنا نقاطاً خمسة هي :

أولاً - الثبات في المعركة :

عن الثبات في المعركة يقول القرآن الكريم :

— يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفوا زحفاً فلا تولوهم
الأدبار (١) .

— يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم
تفلحون (٢) .

— يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم (٣) .

وهكذا نجد هذه الآيات تأمر بالثبات والقوة وتحث على أن يتخذ ذكر الله وسيلة لذلك إذا التحم القتال .

والمجاهد الذي يثبت في موقعه ولا يتزعزع إلا مهاجماً أو محتلاً بحيلة يرجو بها النصر ، جزاؤه عند الله عظيم ، قرنته الآية الكريمة « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » (٤) .

(١) سورة الأنفال : الآية ١٥ . (٢) سورة الأنفال : الآية ٤٥ .

(٣) سورة القتال : الآية السابعة . (٤) سورة النساء : الآية ٧٤ .

وقد سبق أن تحدثنا عن جزاء المجاهد عند كلامنا عن « فضل الجهاد والاستشهاد » .

وفي احاديث الرسول ما يثبته الثبات في المعركة ويقرر ثواب ذلك ، فمن قتادة أن الرسول قام في صحابته فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله أفضل الأعمال ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ، أرايت أن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطايي ؟ فقال الرسول : نعم . إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر .

ثانياً — جريمة الفرار :

يُعتَبر الفرار من الوغى جريمة قبيحة ، ورذيلة مريرة ، إنه إيثار الحياة رخيصة على الخلود أو النصر ، إنه أفانية مقبلة تستحق كل الكلمات القاسية والعبارات المشينة ، ولعمري إن الذي يفر من حومة الوغى يستظل أثباح الهرب تطرده ، وسيعيش وفي نفسه صراع يأكله ، لأنه إن ستر هذه السوءة عن الناس فإن هذه السوءة تعيش في داخله تثمه وتنهش عقله وقلبه ، وإن اعترف بها نال من احتقار الناس واستهجانهم ، ما يجعله ميتاً وهو حي ، ويقضى عليه شر قضاء ، تعال بنا إلى مصادر الإسلام الأولى لنرى كيف تحدثت عن هذه الجريمة البشعة :

يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زهنا فلا تولوهم الأنبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، ومأمواة جهنم وبئس المصير » (١) ، والنباظر إلى الآية الثانية من هاتين الآيتين الكريمتين يجد أنها لم تكف بوعيد الآخرة وبنار جهنم وسوء المصير ، بل عمدت إلى الأيام التي سيقضيها ذلك الفار في الدنيا قبل أن يلتقى به في الجحيم ، فوصفت

هذا الشخص بأنه يعيش أيامه يشمله غضب الله منذ بقاء وعاد من حومة
الوغي ، وليس هناك من يحميه من هذا السوء أو يقيه منه .
وجاءت أحاديث الرسول فوضعت الفرار من المعركة ضمن الكبائر
العظمى والموبقات السبعة ، قال صلى الله عليه وسلم :

— ثلاثة لا ينفع معهم عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار
من الزحف .

— اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال :
الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل
مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات ، والسحر .

وآثر عن الإمام علي أنه كان يوصي ابنه محمد بن الحنفية قبيل
المعركة بقوله : يا بني ، تزل الجبال ولا تزل أنت أعز الله جماعتك . أي
إن هربت الجبال فابق أنت ثابتاً ، وتكن رأسك وحياتك عارية عند
الله ، فالشهادة ليست إلا أن تؤدع نفسك عند خالقها ، وهو خير
مصيلها .

ثالثاً — الموت آت لا محالة :

لماذا يفر المقاتل من حومة الوغي ؟ الجواب بالتأكيد هو أنه يفر من
الموت ، وهو جواب حافل بالسخرية ، فليس هناك من يستطيع أن يفر
من الموت ، لكن الموت لا يد أن يشعل كل حي ، ولذلك نجد القرآن الكريم
يحادث الناس بأسلوب تفكيرهم وينبهم أن الفرار من الموت لن يجدي
فتيلاً ، يقول الله تعالى :

— قل لمن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تموتون
إلا قليلاً ، قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم

رحمة ، ولا تجدون لكم من دون الله ولياً ولا نصيراً (١) .

— قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملائكم ، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تفلحون (٢) .

— أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة (٣) .

— كل نفس ذائقة الموت (٤) .

وفي موقعة الجمل التي كان يترعها مع عائشة رضى الله عنها الزبير ابن العوام وطلحه بن عبيد الله ، ترك الزبير المعركة وهي تدور لعدم إيمانه بأنه على حق فيما أقدم عليه ، وعند عودته مر بماء لبنى تميم ، فراه الأحنف بن قيس فقال : جَمَعَ الزبير هذين العسكرين ثم ولى وتركهما ، فثار عمرو بن جرموز لذلك وحان في مجلس الأحنف فلحق بالزبير خفية حتى جلس هذا تحت شجرة ليستريح ثم اضطجع وغفا فقتله عمرو وهو نائم (٥) . وهكذا مات الذي ترك المعركة قبل آلاف ممن استمروا فيها .

والأدب العربي حافل بهذا المعنى يهتف به الشجعان المسلمون تذكيراً وإشعالا للحماس والقوة ، فعبد الله بن رواحه يخاطب نفسه وهو في حومة الوغى قائلا :

يا نفسى إلا تقتلى تموتى

وقطرى بن العجاء يعلم نفسه وهو يخوض المارك ألا تنسى حقيقة الحياة فيقول :

(١) سورة الأحزاب : الآيتان ١٦ — ١٧ . (٢) سورة الجمعة : الآية لثامنة

(٣) سورة النساء : الآية ٧٧ . (٤) سورة آل عمران : الآية ١٨٥

(٥) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٢٢ .

أقول لها وقد طارت شعاعاً
من الأبطال : ويحك ، لن تراعى

فإني لو سألت بقاء يوم
على الأجل الذي لك إن تطاعى

فصبراً في مجال الموت صبراً
فما نيل الخلود بمستطاع

رابعاً - الحياة هبة الإقدام لا هبة الفرار :

خير من الجهلة يظنون أن الفرار يضمن لهم الحياة ، فيتركون المعركة
مدبرين طلباً للسلامة ، والحقيقة أن المواجهة هي التي تحمي الإنسان ،
والإقدام هو الذي يهب الحياة •

أما الفرار والذعر والإدبار فهي وسائل الموت ، وكثيراً ما يسقط المدبر
بطعنة من جبان ما كان يقوى أن يطعنها في المواجهة ، ومن أجل هذا
كان أبو بكر الصديق يضع لجنوده دستوراً هو : احرص على الموت توهب
لك الحياة • وكان يزيد بن المهلب يقول في ذلك :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد

لنفسى حياة مثل أن أتقدم

والتاريخ يثبت في عدد كبير من المعارك أن الذين فروا خوفاً الموت
سقط عدد كبير منهم قتلى أكثر ممن كانوا يستقون لو جالدوا وصبروا وذلك
واضح تمام الرضوح ، فالفرار يبيح للعدو أن يحصد الفارين حصداً دون
أن يضحي بشيء ، لأنه يضرب ولا يُضْرَب : أما المقاومة ولو مع
رجحان كفة العدو فضحاياها أقل بكثير •

خامساً — هناك ما هو أدهى من الموت :

هل يحاول الفارء من المعركة أن يتحاشى الموت ؟ ويح له ، لقد نسى أن هذه الحياة أقسى من الموت وأمرء منه ، والعرب يقولون في ذلك « المنية ولا الدنية » ويقول الشاعر :

سأحمل روحي على راحتى وأمضى بها في طريق الردى
فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يسوء العدا

وفي إحدى المعارك الإسلامية كانت الغلبة في مطالعها لجند الأعداء ، وكان في جيش المسلمين مجاهد هو وحيد أمه فتذكر أمه في هذه الساعة ، مضجع وآثر الحياة فانفلت إلى أمه ، وأشيع خبر الهزيمة ، وراحت الأمهات تتحسسن مصير أولادهن ، وفوجئت هذه الأم بابنها الهارب . يدرك عليها وهو بظن أنها ستسعد ببقائه ، ولكن الأم رأت في عينه الفرار فصاحت فيه : لست أمك لهارب ، لست أمك لهارب ، لا أحب أن تعيش فضيحة في دارى ، اذهب فلتأت لى رأسك ، أو فلتعد مرفوع الرأس ، وانسل الابن عائداً للمعركة يريد الموت ، فأخذ يضرب غير هيب ، ودفعت الحماسة جنود المسلمين فاستماتوا حتى تغير وجه المعركة وكتب للمسلمين النصر ، وعاد هذا الابن مرفوع الرأس فاستقبلته أمه وأخذت تقبله وهي تقول : الآن أنت ابنى .

* * *

العدد والفرار :

وهناك رأى يضع مقياساً مادياً للفرار يمثل به ابن عباس الذى يقول : لما نزل قوله تعالى « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين » (١) كان على الواحد ألا يفر من عشرة وكان الفرار من عشرة فأقل يعد فراراً ، أما إذا ولى الواحد من أكثر من عشرة فإنه لا يعد

(١) سورة الأنفال : الآية ٥٦ .

فراراً ، فلما نزل قوله تعالى « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين .. » (١) أصبح على الواحد أن يصابر اثنين ، ويقول ابن عباس : من فرّ من اثنين ففقد فر ، ومن فرّ من ثلاثة فلم يفر (٢) ، واعتق ابن رشد مذهب ابن عباس فقرر أن العدد الذي لا يجوز الفرار منه هو الضعف (٣) .

ملاحظة العدد تكون قبل المعركة فقط :

ولكن أكثر الباحثين لا يرون هذا الرأي ويبيحون ملاحظة العدد قبل المعركة ، أما إذا نشب القتال فليكن الثبات لنيل إحدى الحسينين : النصر أو الشهادة ، وأوضح دليل على ذلك ما حدث في غزوة حنين عندما ناجى مالك بن عوف جيش المسلمين من شعاب الجبال وألقى عليهم وابلاً من القذائف وهم يسيرون في الممرات الضيقة التي كانوا يجتازونها قبل أن يستعدوا للقتال ، وفي هول المفاجأة انشمر المسلمون راجعين لا يلوى أحد منهم على أحد (٤) ، ولكن الرسول وقف كالطود الشامخ لا يعرف الفرار ولا الهرب ووقف معه جماعة من المهاجرين والأنصار ، وصمدوا للعدو محاربين حتى عاد لهم الذين دفعتهم المفاجأة للهرب ، ولو كان الفرار من المعركة مباحاً لما وقف هؤلاء يواجهون عدداً يزيد عشرات المرات عنهم ويفرقهم استعداداً .

وفي غزوة مؤتة واجه جيش المسلمين وعدده ثلاثة آلاف مقاتلاً ، جيشاً من الغساسنة والروم عدده مائتا ألف مقاتل ، وعندما أدرك المسلمون قبل المعركة هذا الفارق الكبير في العدد أخذوا يتشاورون ، وقال بعضهم : نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي .

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٦ .

(٢) الشوكاني : نيل الأوطار ج ٧ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(٣) بداية المجتهد : ج ١ ص ٣٩٨ .

(٤) ابن هشام : ج ٢ ص ٢٨٩ .

فقال عبد الله بن رواحة : يا قوم . والله ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ، وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين : إما النصر وإما الشهادة .

وفي هذه المعركة حارب جيش المسلمين بحماسة بالغة ، وخر قائد الجيش زيد بن حارثة . فحمل الراية عبد الله بن أبي رواحة فخر أيضاً ، فحملها بعده جعفر بن أبي طالب فلحق بصاحبيه ، فحملها خالد بن الوليد الذي أدرك أن في استمرار المعركة فناء لجيشه دون طائل فانسحب بعملية باهرة ، إذ أثار الغبار خلف جيشه فأوهم الروم أن مدداً ضخماً جاء من المدينة ، فلم يتبع الروم الجيش المنسحب ^(١) ، وكان انسحابه لمزيد من الاستعداد حتى يستطيع يوماً أن يقابل الروم مقابلة يثأر فيها لمن خروا في هذه المعركة ، وربما كان ذلك النوع هو الانسحاب الوحيد الذي يجيزه الفكر الإسلامي فيما نرى ، ومع ذلك فإن المسلمين لم يغفروا لخالد وجيشه أن يفروا من المعركة وقابلوهم صارخين « يا فرار ، فررتم في سبيل الله !! » ولكن الرسول اعتذر عنهم وأمل في الخير منهم في المستقبل ، وقال : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله ، ومع هذا الاعتذار من الرسول الكريم فقد بقي الذين انسحبوا مع خالد يحسون بالخجل لهذا الانسحاب ويتوارون عن الرجوع . روى أن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت لامرأة سلمة بن هشام بن المغيرة : مالي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع المسلمين ؟ فقالت : ما يستطيع أن يخرج ، لطالما سمع الناس يصيحون به : يا فرار ، فررتم في سبيل الله !! فأثر أن يقعد في بيته ولا يخرج ^(٢) .

وينبغي أن يلاحظ أن غزوة مؤتة حدثت في السنة الثامنة للهجرة ، أي أنها حدثت بعد حوالي ست سنوات من نزول سورة الأنفال التي بها

(١) ابن هشام : ج ٢ ص ٢٥٨ وابن القيم : زاد المعاد : ج ٢ ص ١٥٥ - ١٥٦ .
(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٠ .

آيات العدد التي أوردناها آنفاً ، وقد كان الواحد من جيش المسلمين يقابل حوالي سبعين من جيش الروم والغساسنة ، وكانت العملية عملية انسحاب تبعاً لخطة وليست عملية فرار ، ومع هذا لم يغتر المسلمون بذلك ، وأخذوا يغيرون به المنسحبين ، ولو كان العدد يمكن أن يلحظ بعد بدء المعركة لما وقف المسلمون من جيش مؤتة هذا الموقف .

ابن حزم لا يبيح الفرار لغير ضرورة دالة :

ولعل ابن حزم من أدق من تحدثوا عن هذا الموضوع وأحاطوا بأكثر أطرافه ، فانهل له لنرى رأيه ، يقول ابن حزم :

« ولا يحل لمسلم أن يفر عن مشرك ، ولا عن مشركين ولو كثروا عددهم ، إلا أن ينوى في رجوعه التحيز إلى جماعة المسلمين ، أو أن ينوى النكر إلى القتال ، فإن لم ينو إلا أن يولى هارباً فهو فاسق لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ... »

« وقال قوم : إن الفرار للمسلم مباح من ثلاثة فصاعداً واحتجوا بآية سورة الأنفال ويقولون ابن عباس في تفسيرها (١) ، وهذا خطأ ، ولا حجة لابن عباس لأن الحجة الواضحة توجد في كلام الله وفي كلام الرسول ، وليس في آية التخفيف نص ولا دليل يبيح الفرار عن العدد المذكور ، وإنما فيها أن الله تعالى علم أن فينا ضعفاً وأنه خفف عنا ، وفيها أنه إن كان منا مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن كان منا ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، وهذا حق وليس فيه أصلاً أن المائة لا تغلب أكثر من مائتين ، ولا أن الألف لا تغلب أكثر من ألفين ، ومن ادعى هذا في الآية فقد أبطل وادعى ما ليس فيها منه أثر ولا إشارة ، ولا نص ولا دليل ، بل قال عز وجل « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » فظهر أن قولهم ، لا دليل عليه أصلاً ، ونسألهم عن فارس بطل شاكى السلاح قوى لقي ثلاثة عزلاً أو ضعفاً هل له أن يفر عنهم ؟ فإن قالوا : نعم . كانت الطامة التي يأبأها الله والمؤمنون وكل ذى عقل وإن قالوا : لا . نقضوا

(١) سبق أن أوردنا رأى ابن عباس .

قولهم الأول . ويروى ابن حزم عن عمر بن الخطاب قوله : اذا لقيتم فلا تفروا ، ويروى عن علي وابن عمر قولهما : الفرار من الزحف من الكبائر . ولم يخصوا عدداً من عدد ، (١) .

بقى أن تقرر أن تاريخ الغزوات وتاريخ الفتوح الإسلامية يسجل أن المسلمين تصدوا لجيوش كثيرة العدد حافلة العدد ولم يهتموا بالكثرة الهائلة في جانب العدو ، ولم يعرف عنهم الفرار قط ، ذلك أنهم كانوا يسمون لإحدى الحسنين النصر أو الشهادة ، وشرف الشهيدمة لا يقاس بها بحال من الأحوال قتل المدبر الفار ، ذلك خالد ، حسن الذكر ، طيب العاقبة في الآخرة ، وهذا فار ، سئ الذكر في الدنيا ، ومأواه النار في الآخرة .

هل يترك المسلمون أرضهم لعدو هاجمهم ؟

بقى موضوع خطير ينبغي أن نوضح الرأي فيه ، ذلك هو أن العدو قد يحرز النصر على المسلمين في جولة من الجولات ويحتل بعض أرضهم ، ويكثر أن يفر السكان من وجهه اتقاء لشره ، فهل يعد هذا فراراً ؟

ربما تختلف الآراء في الإجابة عن هذا السؤال ، ولكنني أحس بأن إخلاء بيوت المسلمين لعدو نوع من الفرار يثبت أقدام العدو ويمنحه أقصى ما يريد من السهولة واليسر ، ومال المسلمين وديارهم وديعة في أيديهم فيلزم أن يدافعوا عنه حتى آخر رمق ، ولا يعفى من ذلك رجل أو امرأة أو صبي ، فإلّاكل سواء اذا هوجمت أرض المسلمين .

اتجاه واحد قد نبهه اقتداء بموقف خالد بن الوليد ، ذلك هو التراجع للاستعداد للعودة للديار من جديد . وعلى هذا فلا يجوز أن نخلي ديارنا لعدو ، ويلزم أن نبقي شوكة في حلقومه ، ولا يجوز أن ينسحب من الديار

إلا أولئك الذين يقصدون الى مزيد من الاستعداد ليهاجموا العدو بعزيمة
أقصى وقوة أكبر ، وحينئذ يكون المتخلفون عوناً كبيراً للمهاجمين ، ويرى
العدو نفسه بين قري من الداخل وقوى عائدة من الخارج .

**إن المسلم ينبغي أن يفضل أن يموت مدافعاً عن ماله ودياره عن أن
يدع دياره للعدو ويعيش عمره لاجئاً في ديار الآخرين ، إن المسلم الذي
يدع دياره يقدم أكبر خدمة للعدو الأثيم .**

وعندما احتلت إسرائيل بعض الوطن العربي هاجر عدد كبير من
الأرض المحتلة للخارج ، ربقى آخرون في ديارهم صامدين أمام العدو
ومتحملين عناء الحياة تحت سلطانه الجائر ، وهناك جماعة ثالثة اتخذت
الكفاح طريقها ، فعاشت في الكهوف والسراديب تتحين الفرص للاقتضاض
على العدو مهما كلفها ذلك من ثمن ، هل هذه الفرق الثلاث في مستوى
واحد ؟

الإجابة الواضحة بالنفي ، فالجاهدون هم قمة الخرق - ويليهم الباقون
بديارهم يؤازرون المجاهدين ويؤوونهم ويتسترون عليهم ، ويتحملون
إرهاب العدو ، أما الذين هاجروا طلباً للسلامة فقد أتاحوا الفرصة
للعدو لسلب ممتلكاتهم ومصادرتها وإحلال اليهود محلهم في بيوتهم
الخالية ، وقد أصدرت إسرائيل قانوناً أسمته « قانون أملاك الغائبين » .
ويقضى هذا القانون بمصادرة الأملاك التجارية والمقارية بالقدس اذا
كان صاحبها غائباً عن المدينة .

ولعله بسبب هذا الوضع قد تقرر أن يبدأ من أول شهر يوليو ١٩٦٩
تحصيل جباية مالية نسبتها ٥٪ من الرواتب والدخل الشهري لجميع أبناء
الشعب الفلسطيني في كافة القطاعات العامة والخاصة في جميع الأقطار
العربية التي توجد فيها تجمعات فلسطينية . وسيتم تحويل الجباية
للمصندوق القومي الفلسطيني التابع لمنظمة التحرير لاستخدامها في تمويل

الكفاح المسلح ومساعدة أسر الشهداء والأسرى والمعتقلين في سجون إسرائيل وتقديم الدعم المالى للمواطنين العرب في فلسطين المحتلة •

ومن المقرر أن تقوم الحكومات العربية بتحصيل الجباية وتوجيهها لصالح منظمة التحرير ، أما بالنسبة للبلاد الأجنبية التى توجد بها تجمعات فلسطينية فستتولى عملية الجباية لجان تشكلها منظمة التحرير لهذا الغرض •

والفلسطينيون بالخارج يجب أن يسهموا بهذا العمل فى خدمة الصراع الدائر من أجل استرداد بلادهم ، وبقدر الاستجابة لهذا القرار والتحمس له يرتفع قدر هؤلاء الغائبين ، ولا يعتبرون غائبين طلبا للسلامة ، بل غائبين ليكدحوا حتى يؤازروا المناضلين بما يحتاجونه من مال أو سلاح •

التضاء والقدر في المعركة

انحرف بعض الناس بعقيدة التضاء والتدر فمالوا بها الى التواكل والاستسلام ، وانحدروا بالناس بسبب ذلك الى الضعة والضعف والامتهان ، وقد حذر الإمام محمد عبده من نتائج هذا الانحراف مؤكداً ان من يتبعه لن ينال عزاً ، ولن يعيد مجداً ، كما انه لا يدفع اعتداء ولا يسعى للأخذ بحق (١) .

ومن العجيب أن عقيدة التضاء والقدر التي استحالت في عهود التخلف الى عقيدة الضعف والاستسلام ، أو الى عقيدة التخلص من المسؤوليات ، هذه العقيدة كانت في العهود الأولى ، عهود الإسلام الصحيح ، مبعثاً للقوة والشجاعة ، وسبباً من أسباب احترام النفس وعدم الخضوع للظلم ، وذلك اتباعاً لقوله تعالى : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً » (٢) وقوله « قل إن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ؟ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ، أو بأيدينا ، فتربصوا إنا معكم متربصون » (٣) وكان المسلمون بذلك يخوضون المعارك غير هيابين ، اعتقاداً منهم بأن الحرص لن يهب السلامة ، ولذلك كانوا يبطشون بعدوهم ذات اليمين وذات اليسار ، وكانت بطولتهم تبعث في نفوس أعدائهم الفزع فلا يصمدون أمامهم .

وهناك بيتان من الشعر عن التضاء والقدر كان الإمام علي كرم الله وجهه ينشدهما في مطلع كل معركة ، ويخوض بعد ذلك الصراع بقلب لا يهاب ، وهذان البيتان هما :

(١) محمد عبده : الإسلام والمسلمون ص ١١ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٤٥ .

(٣) سورة التوبة : الآيتان ٥١ - ٥٢ .

أى يومى من الموت أفرّج يوم لا يتقدّر أو يوم تقدّر
يوم لا يشدر لا أربّه ومن المقدور لا ينجى الحفر

وهكذا كان الإمام على يدخل المعارك بشجاعة فائقة ، لأنه إن كان قد قدّر له الموت فلن يحميه الجبن أو الفرار منه . وإن كانت قدّرت له السلامة فلن يستطيع أحد أن ينال منه مكروها . وباسم هذه المعقيدة خاض الإمام أكثر الغزوات ، وبارز الأعداء الجبابرة الذين لم يعرفوا الهزيمة . فأوقع الهزيمة بكل من صارعه أو بارزه ، حتى عمرو ابن ود بطل الجزيرة العربية في حينه قضى عليه سيف الإمام بعد أن صرخ بهذين البيتين ثم نازله ، ونجا الإمام من كل للغزوات وكل المبارزات التي اقتحمها ، ولم يسقط إلا على يد غلام من الموالى طعنه طمعة خائنة قتلت عليه .

وكان قطرى بن الفجاءة أحد زعماء الخوارج وشجعانهم يلقى بنفسه في أتون المعركة وهو يخاطب نفسه ببيت من شعره اتخذته دستوراً له في المعارك ، وفيه يقول لنفسه :

فإنك لو طلبت بقاء يوم على الأجل الذى لك لن تطامى

وفى ظل هذا الدستور كان قطرى يضرب ذات اليمين وذات الشمال فيبث الذعر في صفوف الأعداء ، لأنه يعتقد أن الأجل محدد ، وأن ليس في الطاقة أن يعيش الإنسان أكثر مما قدر له .

ويقول الإمام محمد عبده (١) : إن الذى يعتقد أن الأجل محدود : والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء ، لن يرهب الموت ، ولن يخاف أحداً وهو يدافع عن حقه ، ويعلى كلمة أمته ، وبهذه المعقيدة

(١) الإسلام والمسلمون : ص ١١ .

انتصر المسلمون الأول على أعداء الإسلام ، فنالوا منهم : وحققوا في تاريخ الإسلام أثرف ما يحققه إنسان لدينه ووطنه .

ومن مزايا الاعتقاد بالقضاء والقدر أن الإنسان لا يبالغ في الحزن إذا نزل به مكروه ، وأنه يبدأ من جديد آملاً أن يحقق في المستقبل ما عجز عن تحقيقه في الماضي (١) .

(١) انظر موضوع « القضاء والقدر » في كتاب « الحياة الاجتماعية في الفكر الإسلامي » للمؤلف .

التجسس والخيانة

التجسس على المسلمين ممنوع :

نهى القرآن الكريم نهياً حازماً وشاملاً عن التجسس على المسلمين :
قال تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ... » (١) وفي التجسس يقول صلى الله عليه وسلم :
لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته .

اليهود والتجسس :

وقد ظهر التجسس في مطلع الإسلام واتخذ اليهود وسيلة ليكشفوا أحوال المسلمين ، فقد ادعى بعض اليهود دخول الإسلام ولكنهم كانوا في الحقيقة منافقين ومن هؤلاء داعس وسعد بن حنيف وزيد بن اللصيت ورافع بن حريمة وغيرهم ، وقد قال الرسول عن رافع يوم مات : اليوم مات منافق عظيم . وكان هؤلاء يتخذون المسجد وحلقات العلم مجلساً لهم ليتسقطوا أخبار المسلمين وليطلعوا على تنظيماتهم لينقلوا ذلك إلى اليهود وإلى حلفائهم المشركين ، ولكن المسلمين شككوا في تهجدهم ، فراقبواهم حتى ظهر منهم ما يؤهل هذا الشك إلى اليقين ، فانقض المسلمون عليهم وكشفوا أمرهم وأنزلوا بهم عقوبات مختلفة حسب ما ثبت من جرائمهم (٢) .

المسلمون وجواسيس الأعداء :

وقد اعتاد المسلمون إذا عثروا بجاسوس يعمل لحساب العدو ألا يتسرعوا بذلك في أول الأمر ، وأن يدعوا بعض الأسرار تصل إليه ومعها

(١) سورة الحجرات : الآية ١٢ .

(٢) ابن هشام ج ٢ ، ص ٢٦ وما بعدها وانظر كتاب « اليهودية » من سلسلة « مقارنة الأديان » للمؤلف .

ألوان من الزيف ، وذلك ليضللوا العدو عن طريق جاسوسه ، ويقول
الهرثمي (١) : لقد تحتاج في بعض الأحوال أن يعرف عدوك بعض أحوالك
وتدبيرك لما تحاول من مكائده ، فتلطف في ذلك بإظهاره لجواسيسه ،
ليوصلوه اليه على ما يظهر لهم فيه .

فإذا اضطروا المسلمون لأن يُظهروا للجاسوس اكتشافهم لأمره
فإنهم يحاولون أن يعاملوه بلطف ، ويستميلوه إليهم ليحصلوا منه على أخبار
تنفعهم ، أو ليرسلوا عن طريقه الى العدو أخباراً غير صحيحة ، وقد عثر
المسلمون يوم بدر على واحد من عيون قريش وحاول المسلمون تعذيبه ،
ولكن الرسول نهاهم عن ذلك واستدعاه وسأله عن عدد قريش فلم يعرف ،
فسأله عما ينحرون من الإبل كل يوم ، فأجاب بأنهم ينحرون تسعة في يوم
وعشرة في يوم آخر ، فاستنتج الرسول أن العدد يتراوح بين تسعمائة
والف (٢) .

وفي فتح قيسارية قتل جنود عمرو بن العاص جاسوساً رومياً فغضب
عمرو وقال لهم : هلا أتيتموني به لأستخبره ؟ فكم من عين تكون علينا
ثم تصير لنا (٣) .

وكانت وسائل المسلمين لنقل جاسوس العدو ليصبح جاسوساً لهم
تتفاوت بتفاوت ظروف الجاسوس ، فقد يتخذ المال وسيلة لذلك ، أو
تستغل فيه نزعة خير تجذبه الى الإسلام والإخلاص إليه ، أما إذا تعذر
على المسلمين تحويل الجاسوس ليعمل لصالحهم ، فإن عقوبته تكاد تكون
محددة في التفكير الإسلامي ، فقد رأى الرسول مرة بعض عيون المشركين ،
وصعب على المسلمين القبض عليه ، فأحل الرسول دمه ، وقال : اطلبوه
فاقتلوه . فنفذ المسلمون أمره ، حتى لا يعود لقومه بالأسرار التي جمعها ،

(١) مخطوط عنوانه « مختصر في سياسة الحروب » مصور بالجامعة
العربية (ف ٨٤٤) ورقة ١٣ .

(٢) عبد الرؤوف عون : الفن الحربي في صدر الإسلام ص ٢١٦ .

(٣) الواقدى : فتوح الشام ج ٢ ص ١٠ .

وفي غزوة بنى المصطلق ألقى المسلمون القبض على أحد الجواسيس ، فسأله الرسول عن قومه فلم يذكر شيئاً ، فعرض عليه الإسلام فأبى ، فأمر عمر بأن يقتل فقتل^(١) ، وكان المسلمون يلزمون غير المسلمين بلباس خاص ليميزوا به فلا يستطيعون الاندساس بين المسلمين والتقاط الأخبار منهم^(٢) .

الجاهلوس المسلم على المسلمين :

وتشتد عقوبة الجاسوس لو كان مسلماً ، ويقول سحنون : إذا كاتب المسلم أهل الحرب تقتل ، وقال غيره من أصحاب مالك : يجلد جلدأً وجيماً ويطال حبسه وينفى بموضع ينأى عن الكفار ، وقال ابن القاسم : يقتل ولا يعرف لهذا توبة وهو كالزنديق^(٣) ، وذلك ما نراه .

أما الخيانة التي يقوم بها المسلم فهي أعم من التجسس ، إذ قد تكون لصالح العدو ، أو تكون للإضرار بالمسلمين بشكل عام ، وعقوبتها رادعة في الإسلام ، يقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم »^(٤) وقد نزلت هاتان الآيتان في مسلم يسمى أبو لبابة كان مناصحاً لليهود خلال غزوة بنى قريظة ، فقد عرض الرسول على بنى قريظة أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل إلينا أبا لبابة وكان عياله وماله في أيديهم ، فبعثه الرسول إليهم فقالوا له : ما ترى هل ننزل على حكم سعد بن معاذ ؟ فنصحهم ألا يفعلوا ، ويقول أبو لبابة أنه سرعان ما أحس أنه خان الله ورسوله ، ونزلت الآية ، فذهب أبو لبابة

(١) ابن هشام : ج ٢ ص ٢٩٤ .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٧٢ .

(٣) ابن القيم : زاد المعاد ج ٣ ص ٢٩٠ والطرق الحكيمة في السياسة الشرعية ص ٣١٢ .

(٤) سورة الانفال : آيتان ٢٧ — ٢٨ .

وشدّ نفسه على سارية في المسجد وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي . . (١) .

الموت أهون من إقضاء أسرار الجيش :

وكان المسلمون يحرصون كل الحرص على أسرار الجيش الإسلامي ويقدمون الأرواح دون ذلك ، فقد حدث أن عبد الله بن حذافة وقع أسيراً في أيدي الروم في أثناء معارك التحرير التي قام بها المسلمون لطرد الروم من الشام ، وكان عبد الله بطلاً مغواراً أبدى في المعركة صنوفاً من الشجاعة والكياسة ، فحمّله جند الروم إلى ملكهم ليرى نموذجاً من أبطال المسلمين ، إذ كان الملك يرى في هزائم جيشه تقصيراً من قادته وجنده ، فلما مكّله عبد الله أمام الملك لم ينحن له ولم يكثرث به ، فحاول الملك إغراءه بألوان الإغراء ليرتد عن الإسلام غسخر منه عبد الله وقال له : والله لو أعطيتني جميع ما تملك لأرجع عن ديني طرفة عين ما فعلت . فسأله الملك عن بعض أسرار الجيش الإسلامي لينجو بحياته من موت محقق فأجاب : أنعم بها من شهادة ، ما للخيانة من سبيل ، فأمر الملك به فوضع في مكان يوضع فيه من يوشك أن يقتل ، وأمر الملك الرماة بأن يرموا سهامهم قريباً من بدنه لإخافته وإرهابه ، ولكنه ظل كالطود الشامخ ييسم وهو يظن أنه يستقبل الموت ، فأمر الملك به أن يثقل وثاقه إعجاباً وتقديراً وأدرك الملك سر الانتصارات التي يحققها المسلمون .

ويقول الله تعالى عن الخيانة وذم الخونة :

— ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خائناً أثيماً ، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ، إذ يبیتون مالا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً (٢) .

— ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت

(١) تفسير البيضاوي والنسفي .

(٢) سورة النساء : الآيتان ١٠٧ — ١٠٨ .

عبدین من عبادنا صالحین فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل
ادخلا النار مع الداخلين (١) .

وإذا كان هذا هو حكم الله في الخيانة على العموم ، فإن الحكم في
الخيانة إبان الحرب أقسى وأعظم ، لشدة ضررها بأرواح المسلمين
وأموالهم ، وقد نهى الإسلام نهياً صارماً عن إذاعة الأسرار الحربية بل
نهى عن خوض العامة في شئون الحرب حتى لا تترك الألسنة هذه الأخبار
مما يجعل من الممكن وصولها إلى العدو ، قال تعالى متهمكها بذلك ومحرمًا
له « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به » (٢) .

وعلى مرّ التاريخ وقف المسلمون موقفًا حاسمًا من الخونة أيًا كانت
مراكزهم ، ففي سنة ١٢٤٠ م تحالف اسماعيل صاحب دمشق مع الصليبيين
على غزو مصر ، وجمع هذا جيشاً من أهل الشام سار به متعاوناً مع
الجيش الصليبي لتحقيق هذا الهدف ، ولما أشرف الجيش الشامى
على غزة ، وأصبح عليه أن يتخذ موقفه ضد الجيش المصرى مؤيداً
للصليبيين . حدثت المفاجأة التي لم يتوقعها الحاكم الخائن ولم يتوقعها
الصليبيون ؛ تلك أن عساكر الشام استداروا في لحظة سريعة وانضموا إلى
الجيش المصرى ومالوا جميعاً على الجيش الصليبي فهزموه شر هزيمة (٣) .

بل حدث أكثر من ذلك ؛ فإن أمّا أدركت أن ابنها يخون قضية
المسلمين ويمالى الصليبيين وتلك الأم هي « صفوة الملك خاتون »
وابنها هو شمس الملوك قسرغان ما دبرت الأم قتل ابنها ، فقد كانت
ملادها ودينها أغلى لديها من ابنها الخائن (٤) .

(١) سورة التحريم : الآية العاشرة .

(٢) سورة النساء : الآية ٨٣ .

(٣) السلوك للبقرى ج ١ ص ٣٠٥ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى

ج ٦ ص ٣٢٣ .

(٤) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣٠٢ .

الفكر الإسلامي ومشكلات ما بعد المعركة

(م ١٢ — العلاقات الدولية)

الامان والهدنة

• الامان نوعان : مؤقت ودائم •

• والامان المؤقت نوعان : خاص وعام •

وعلى هذا فهناك امان مؤقت خاص ، وامن مؤقت عام ، وامن دائم •
فالامان المؤقت الخاص يمكن أن يقوم به جندي مسلم إذا استسلم له أحد جنود العدو وطلب منه الامان ، أو إذا استسلمت جماعة من جنود العدو إلى جماعة من جند المسلمين ، ففي هاتين الحالتين يجوز للجندي المسلم أو لقائد جماعة المسلمين أن يمنحوا الامان للمستسلمين إذا رأوا وأحسوا أن فيه مصلحة للمسلمين كالحصول على أسلحة منهم قبل تدميرها ، أو الحصول على أسرى أو الحفاظ على عتاد المسلمين وأرواحهم •

ومن هنا يجيء ما يسمى « المستأمن » وهو شخص أُعطى الامان وله بهذا الامان حق في إقامة غير دائمة ، وله حق الأمن حتى يصل إلى مأمنه ، فإن جعل إقامته دائمة انتقل من مستأمن إلى ذمي •

أما الامان المؤقت العام فلا يبذله إلا الإمام أو نائبه ويكون لكل الجيش ، وهو جائز مادام الإمام قد رأى فيه مصلحة للمسلمين وهو الذي يسمى الهدنة وقد يتحدد لها وقت وقد تكون مطلقة ، ومنها الهدنة التي وافق عليها الرسول في الحديبية •

وإذا أحس المسلمون خيانة من العدو ، أو وجدوا أنه انتهر فرصة الهدنة لمزيد من الاستعداد الذي يهدد المسلمين كان لهم بقضها •

وقد أجاز القرآن الكريم أن نوقف القتال بعد دوران المعركة ، فليس من الضروري أن تكون المعركة حاسمة ، بل إذا طلب الأعداء وقف القتال استجاب لهم المسلمون ، قال تعالى : « وإن جنحوا للسلم

فاجنح لها وتوكل على الله « ^(١) ولكن الفقهاء قيدوا ذلك بأن يكون في مصلحة المسلمين وأن يكون لهم الغلبة ، لقوله تعالى « فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » ^(٢) وقالوا : إذا لم يكن الصلح في خير المسلمين ومصلحتهم وفي حدود الدين وتعاليمه فإنه لا يجوز حينئذ هذا الصلح حتى لا يترتب عليه إبطال الجهاد صورة ومعنى ^(٣) .

على أن الإمام قد يلجأ للمهادنة لضرورة ولكن ينبغي أن يسادر المسلمون للاستعداد من جديد وبسرعة حتى يستعيدوا حقهم أو ينالوا صلح الأعداء الغالبين كما أشارت الآية الكريمة ، وإذا أحس المسلمون ريح الخيانة من أعدائهم بعد الهدنة ، كان لهم أن يعودوا للمواجهة قال تعالى « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » ^(٤) أما إذا لم تحصل خيانة فيجب الوفاء بعهود الصلح لقوله تعالى « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » ^(٥) وقوله « وأوفوا بعهود الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون » ^(٦) .

ويشترط في العقود التي يجب احترامها والوفاء بها الشروط الآتية :

١ - ألا تخالف حكما من الأحكام الشرعية المتفق عليها لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط .

٢ - أن تكون عن رضا واختيار فإن الإكراه يسلب الإرادة ولا احترام لعقد لم تتوفر فيه حرية الإرادة .

(١) سورة الأنفال : الآية ٦١ . (٢) سورة القتال : الآية ٢٥ .

(٣) ابن الهمام الحنفى : شرح فتح القدير الجزء الرابع .

(٤) سورة الأنفال : الآية ٥٨ . (٥) سورة الاسراء : الآية ٣٤ .

(٦) سورة النحل : الآية ٩١ .

٣ — أن تكون العقود واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض حتى لا تؤوّل تأويلاً يكون مثار خلاف عند التطبيق (١) .

وقد وضّح الإمام على كرم الله وجهه أن في الصلح بشروطه يسراً على المسلمين ، ولكنه أوصى بضرورة الحذر بعد الصلح حتى لا يكون ذلك الصلح وسيلة قوة للعدو ، كما وضّح ضرورة الوفاء بالعهد في حدود معينة ، وفيما يلي كلماته :

« ولا تدفعن (لا ترفضن) صلحاً دعاك إليه عدوك ، والله فيه رضا ، فإن في الصلح دعة (راحة) لجنودك ، وراحة من همومك ، وأمناً لبلادك ، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحك ، فإن العدو ربما قارب ليتغفل (أى ربما تقرب منك بالصلح ليلقى عليك غفلة » عنه ثم يغدر بك) فخذ بالحزم ، واتهم في ذلك حسن الظن .

وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة ، فحطّ عهدك بالوفاء ، وأرع ذمتك بالأمانة فإنه ليس من فرائض الله شيء اجتمع عليه الناس أكثر من الوفاء بالعهد » (٢) .

بقيت كلمة عن الأمان الدائم ، هي أنه يكون مع أهل الذمة من أهل الكتاب ومع مشركي غير العرب ويعقده الإمام أو نائبه وبمقتضاه يلتزم أهل الذمة بواجبات وتكون لهم حقوق لدى المسلمين ومن أهم واجباتهم الوفاء لعهد الأمان بشروطه ، وألا يمسوا المسلمين بضرر أو يعاونوا أعداء المسلمين وأن يحترموا المقدسات الإسلامية ، وأن يتبعوا القوانين الشرعية فيما أبيح لهم وفي التزاماتهم .

(١) الاستاذ سيد سابق : عناصر القوة في الاسلام ص ٢٢٢ — ٣٣٢ وانظر الاسلام عقيدة وشرعية للإمام الشيخ محمود شلتوت ص ٤٦٤ — ٤٦٥ .
(٢) نهج البلاغة ص ٣٤٥ — ٣٤٦ .

وأما حقوقهم فتشمل حرية التدين ، والدفاع عنهم ، وجواز أكل طعامهم على ما ذكرناه في مكان آخر (١) .

الإسلام أو الجزية ، لماذا ؟ :

وفي الأمان الدائم يلتزم أهل الذمة أن يدفعوا الجزية ، والجزية دليل أمان ، أما رفضها ورفض الإسلام فدليل على نية الاعتداء .

صيغة أمان الرسول لأهل نجران :

إن صيغة أمان الرسول لأهل نجران مثل " يَحْتَذِي ، ونص هذا الأمان هو : لنجران وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد ، على ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يخسرون ولا يعسرون ، ولا يطلأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقاً فلهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين » .

استسلام العدو :

ما موقف الإسلام من العدو إذا استسلم وألقى السلاح ؟ :

لقد ذكرنا في دراستنا أننا أن أي جندي مسلم يمكن أن يعطى الأمان لأي جندي يستسلم له وتلك صورة من صور سماحة الإسلام ، فجيش العدو إذا استسلم وألقى السلاح كان على المسلمين أن يكفوا عن قتلهم ، وأن يتحفظوا عليهم حتى يرى الإمام رأيه فيهم ، ويكون رأيه دائماً بالمطالبة بالإسلام أو الجزية ، ولا تمتدك اليد لقتل أحد إلا إذا كان هناك فرد أو بعض الأفراد أسرفوا في التتكيل بالمسلمين ، وأنزلوا بهم الممالك ، ومن بين الآلاف الذين استسلموا يوم

(١) راجع دراساتنا السابقة عن العلاقات الدولية في المجال الاجتماعي .

فتح مكة لم يقتل الرسول إلا شخصين كانا قد أسرفا في تعذيب المسلمين وإنزال الضر بهم (١) .

ولو قارنا هذا التصرف بما سجله التاريخ عندما كان الظفر لليهود أو الرومان أو المغول أو الأمريكان لرأينا الفرق شاسعا ، فقد وضح سفر التثنية لليهود كيف يعاملون أعداءهم ، ونص على أنه « حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استندعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح ، وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك لاتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب الهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة فتغنمها لنفسك » (٢) .

ولا يزال اليهود حتى اليوم يعاملون المهزومين على هذا النمط ، فقد قضوا على المسلمين في حرب ١٩٦٧ ولاحقوهم بالحديد والنار دون أن يسمحوا لأحد بالحياة ، فالنفس البشرية عندهم لا قيمة لها ، وهم عند كتابة هذه السطور ينزلون الأهوال بالفلسطينيين في لبنان . يا ويلهم من التاريخ .

وفعل المغول نفس الشيء فقد كانوا يهددون أعداءهم ويحاصرونهم حتى يستسلموا ، وحينئذ يعملون فيهم السيف دون رحمة وفي كثير من الأحوال كان المغول يحققون النصر بالرهبة والتخويف وليس بالكدح والصراع ، وكانت نهاية المستسلم هي القضاء عليه ، فقد فعلوا هذا مع الخليفة العباسي الأخير بعد أن ذهب لهم وأسلم نفسه إليهم ، وفعلوا هذا مع سلاطين الأيوبيين بالشام الذين آثروا السلامة واستسلموا (٣) .

(١) انظر الحديث عن فتح مكة في الجزء الأول من موسوعة التاريخ الاسلامي للمؤلف .

(٢) سنن التثنية الاصحاب المشهورون .

(٣) انظر الجزء الثامن من موسوعة التاريخ الاسلامي للمؤلف .

وكانت هذه أيضا هي طبيعة الرومان عندما كانوا يحققون النصر
ضد أعدائهم من الفرس أو العرب ، وقد فعل الأمريكيان الأفاعيل مع
الألمان عند استسلموا في الحرب العالمية الثانية •

لقد قدم الإسلام للبشرية حشدا من القيم ، ولكن كثيرين عجزوا
أن يتبنوا هذه القيم الرفيعة •

الأسرى

بقيت كلمة عن الأسرى ورأى الإسلام في نظام الأسر ، ومن الواضح أن الإسلام كان يتجه إلى إلغاء الرق وتحرير البشرية من وصمة استعباد الإنسان للإنسان ، فأغلق الإسلام أكثر الطرق التي كانت تؤدي إلى الرق في الأديان وانظم السابقة ، ولكن "إغلاق باب الرق عن طريق الأسر في الحروب ، كان يحتاج لموافقة غير المسلمين عليه حتى لا يسترق غير المسلمين من المسلمين ، ولا يستطيع المسلمون أن يعاملوهم بالمثل ، فتدرك الإسلام هذا الباب مفتوحاً بعد أن ضيقه ونظمه حتى ترضى البشرية حكم الله وحكم العقل في إغلاقه تماماً (١) .

وعلى ذلك كان المسلمون يأخذون من أعدائهم ما يستطيعون من الأسرى ثم يجرى بعد ذلك تبادل الأسرى ، أو الإطلاق مئناً أى بدون مقابل ، أو الإطلاق بالفداء المالى أو ما يعادله ، كما أطلق الرسول بعض أسرى بدر نظير قيامهم بتعليم الكتابة لبعض من لا يعرفونها من المسلمين . وقد يقتل الأسير إذا كان شديد النكاية أو الاعتداء على المسلمين ، وقد يفرض الإمام الرق على بعض الأسرى ، ويكثر أن يكون ذلك مع الأرقاء الذين كانوا في جيش العدو ثم أسروا وآثروا الرق في ظل الإسلام على عودتهم لسادتهم ، وأحياناً يستبقى المسلمون بعض الأسرى من طبقة السادة لمواجهة حالة مماثلة قام بها الكفار مع بعض المسلمين حتى يمكن تحرير هؤلاء بأولئك ، يروى ابن ماجه أن إياس بن سلمة بن الأكوع روى عن أبيه قال : غزونا مع أبى بكر هوازن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنفلنى أبو بكر جارية من بنى فزارة من أجل العرب ، فلما أتيت المدينة لقينى الرسول صلى الله عليه وسلم في السوق فقال : لله أبوك ، هبها لى ، فوهبتها له ، فبعث بها ففادى بها أسارى من أسارى المسلمين كانوا بمكة .

(١) انظر « الرق وموقف الإسلام منه » في كتاب الإسلام للمؤلف

ويذكر الماوردي حكم الأسرى بقوله : الإمام مخير فيهم بين القتل والاسترقاق والفداء بالمال والمن عليهم ^(١) . وفي التاريخ الإسلامي أمثلة ونماذج لكل هذه المعاملات التي أوردناها عن الأسرى فيما عدا استرقاق الرسول لرجل حر بالغ فإن ابن القيم ينفيه ، قال ابن القيم : ثبت عن الرسول في الأسرى أنه قتل بعضهم ، ومن على بعضهم ، وفادى بعضهم بمال ، وبعضهم بأسرى من المسلمين ، واسترق بعضهم ، ولكن المعروف أنه لم يسترق رجلاً بالغاً حراً ، فقتل يوم بدر من الأسرى عقبة ابن أبي معيط والنضر بن الحارث ، وقتل من اليهود جماعة من الأسرى ، وفادى أسرى بدر بالمال وبتعليم جماعة من المسلمين الكتابة ، ومن على ابن عترة الشاعر يوم بدر ، وأطلق يوم فتح مكة جماعة من قریش يقال لهم الطلقاء ، وهذه أحكام لم ينسخ منها شيء بل يخير الإمام فيها بحسب المصلحة ، وقال ابن عباس خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأسرى بين الفداء والمن والقتل والاستعباد يفعل الإمام ما يشاء ، وهذا هو الحق لا قول سواه ^(٢) .

وهناك نص قرآني وحيد يتضمن حكم الأسرى هو قوله تعالى « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منكم بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » ^(٣) فهذه الآية تقرر لزوم الشدة في محاربة أعداء الإسلام الذين يعتقدون على المسلمين ، وتظل الشدة صارمة حتى تضعف شوكة هؤلاء ، وحينئذ يأسر المسلمون من يستطيعون من أعدائهم ، ويكون حكم الأسرى بعد ذلك هو المن عليهم ، أو فداؤهم بأسرى المسلمين ، أو نظير مال أو عمل لإصلاح شأن المسلمين .

ويميل أكثر المفكرين إلى اتخاذ هذا النص أساساً للحكم في الأسرى ،

(١) الأحكام السلطانية ص ١٢٥ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد : ج ٣ ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٣) سورة محمد : الآية الرابعة .

ويرون ما سواء مما حصل فعلا من قتل لبعض الأسرى أو استرقاق لبعضهم أحداثاً قضت بها ظروف خاصة •

محاولة إنقاذ أسرى المسلمين :

يهتم ولى الأمر بإنقاذ أسرى المسلمين ، ويكون ذلك أولاً بتبادل الأسرى ، ولو كان الأسير الذى فى أيدينا من جيش العدو على الرتبة فإننا لا نطلقه إلا مقابل عدد كبير من أسرائنا لدى العدو ، وإذا بقى لنا أسرى لدى العدو بعد تبادل الأسرى ، فإن على الإمام أن يبذل الجهد والأموال لينقذ أسرى المسلمين من أيدي الأعداء •

متابعة التعرف على أحوال الأسرى :

ذكرت المراجع الإسلامية أنه عند توقف الحرب يهتم ولى الأمر بأسرى المسلمين ، ويتابع معاملتهم حتى يتم الاتفاق على إطلاقهم ، وقد كان المتبع أن يُسَمَّح للمسلمين بزيارة أسرائهم ، وبالتالي يسمح للعدو أن يزور أسرائه ، ويذكر ابن شداد ^(١) أن هذا الأسلوب كان متبعاً فى أسرائنا لدى الفرنجة وأسرائهم لدينا •

أما معاملة الأسرى فكانت تختلف تبعاً لمكانة الأسير وأهميته •

(١) سيرة صلاح الدين ص ١٧٣ •

كلمة ختام عن الإسلام والجهاد

وبعد ، ذلك حديث موجز عن العلاقات الدولية في المجال العسكرى ،
ظهر منه أن الإسلام يريد بنا خير الدنيا والآخرة . فعلى الأمة الإسلامية
أن تتدارس هذه التعاليم وأن تتمسك بها لتعبر المحنة التي نجتازها
في هذا العصر .

والمسلم الذي لا يتبع هذه التعليمات يبعد بإسلامه عن الكمال ،
فقد رَوَى أن سالم بن عبيد الله بن ربيعة المعروف بمولى أبى حنيفة
كان يصرخ وهو يذاضل في معركة اليمامة قائلاً : « يا أهل القرآن زينوا
القرآن بأعمالكم » ويعلق المرحوم الدكتور أحمد الشرباصى على هذا
التعبير بقوله : كان سالم يريد بهذا القول أن الذين آمنوا بالقرآن وتلوه ،
ووعوا ما فيه من آيات عن الجهاد ، ووعد إلهى كريم للمجاهدين الصانقين ،
يجب عليهم أن يبرهنوا على إيمانهم بأعمالهم ، والا يخالثوا بين أقوالهم
وأفعالهم ، فربهم هو الذى يقول : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا
تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ، إن الله يحب السّذين
يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » (١) .

وانت أيها المسلم في كل بقاع الأرض ، نذكرك أن زحف العدو
لا يعرف حدا ولا غاية ، إنه زحف تشكته الصهيونية والاستعمار على
المسلمين والأحرار في كل مكان بالشرق ، فإن ضمنت ببعض أولادك على
المعركة ضاع كل أولادك وسقطوا أذلاء تصاء كما سقط نظراؤهم في
المحنة ، وإن ضمنت ببعض مالك على المعركة ضاع كل مالك واحتواه
العدو كما احتوى مال إخوة لك في البقاع العربية ، وما عاشت الجزائر
وتعمرت إلا بحث أن تقدمت الفداء ، تعال أنا وانت ، وهو وهى نخصص
قدراً من دماننا وأموالنا لنحمى الباقي ونسترد ما ضاع ، وعلى أولياء

(١) دكتور أحمد الشرباصى : الفداء في الإسلام ص ١٥٤ . والآيات من

الأمور في البلاد الإسلامية ونحن نقدم لهم أولادنا وأموالنا أن يذهبوا
الأمر بحكمة بالغة ، وأن يحسنوا استعمال شبابنا الذين نرمي بهم في
أتون الحرب ليجابوا لنا النصر وليعودوا مرفوعي الرأس ، وعليهم ألا
يكونوا كالزعماء الذين تسلّموا أولادنا ثم سرعان ما دفعوا بهم للموت
دون إعداد ولا استعداد ، فخسرنا أعلى ما نملك من أرواح الشباب
وتراب الأرض ، وانهالت اللعنات على أولئك الذين تصنّوا للسلطة وهم
عن إدارتها عاجزون .

وليكن الله معنا ليحمينا من أعدائنا بالخارج الذين أعلنوا عن
عدائهم ، ويحمينا من أعدائنا بالداخل الذين تظاهروا بالقوة ولكن القوة كانت
فقط في حناجرهم ، أما قلوبهم وعقولهم فكانت مرتعشة مذعورة ، وتظاهروا
بالإخلاص وكانت نفوسهم مملوءة بالحق ، حسابهم على الله ، لقد
تخلّوا عن الله فتخلّى الله عنهم ، والله لا ينصر إلا من نصره « إن تنصروا
الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

وكلمة ختام عن العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي

وقد اتضح للقارئ العزيز ذلك الفيض العظيم الذي قدّمه الإسلام للمجتمع البشري عن طريق تنظيم العلاقات بين الدول وإن اختلفت بها الأديان ، فقد جاء الإسلام هدى ونورا لبنى الإنسان ، ولكن بعض الناس لم تتكسّب لهم الهداية فظلوا في الظلام ولم يستجيبوا لداعى الله ، وبعض آخر لم تصلهم الدعوة واضحة جلية لأن المسلمين ضلّوا أو عجزوا عن توصيلها ، وأغلب الظن أن الذين أعرضوا عن الإسلام تجهلهم به ، أكثر جدا من الذين أعرضوا عنه تكبرا وعنادا ، وهذا يوضح مسئولة المسلمين في هذا المجال •

على أن الله سبحانه وتعالى كان رحيمًا بخلقه ، فقدّم عن طريق الإسلام وسائل للتعاون بين مجموعات البشرية وإن اختلف الدين كما ذكرنا من قبل ، وقد اقتبست القوانين الوضعية كثيرا مما قدّمه الإسلام فيما أسموه « القانون الدولي » ولكن روح الإسلام غائبة عن هذا القانون ، ولو فهم الناس روح الإسلام لتضاعف النفع بهذا الشعاع الذي انبثق عن الإسلام ، كما انبثقت عنه أشعة في ميادين مختلفة ، ففهرت الكون بالنور ، وإن جهل الكثيرون مصدر هذا النور •

والله المسئول أن يكتب لنا التوفيق لنؤدى واجبنا تجاه ديننا ، وتجاه المجتمع البشري كله •

والى اللقاء في الجزء العاشر من هذه الموسوعة إن شاء الله •

مراجع البحث

- ١ — القرآن الكريم .
- ٢ — تفاسير القرآن الكريم وبخاصة : القرطبي — الفخر الرازي —
الآلوسي — البيضاوي — النسفي .
- ٣ — كتب الأحاديث الستة .
- ٤ — مجموعة من المجلات الإسلامية .
- ٥ — التلمود شريعة اسرائيل .
- ٦ — الكنز المرصود في شرح التلمود .
- ٧ — ابن الأثير : الكامل في التاريخ
- ٨ — دكتور ابراهيم العدوي : الأمويون والبيزنطيون
- ٩ — دكتور ابراهيم العدوي : السفارات الإسلامية الى اوربا
- ١٠ — أبو الحسن الندوي : الاسلام واثره على الحضارة وفضله
على الانسانية
- ١١ — أبو عبيد : كتاب الأموال
- ١٢ — أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر
- ١٣ — دكتور أحمد أمين : ضحى الاسلام
- ١٤ — دكتور أحمد أمين : قصة الفلسفة اليونانية
- ١٥ — دكتور أحمد الشرباصي : الفداء في الاسلام
- ١٦ — دكتور أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي
(عشرة أجزاء)
- ١٧ — دكتور أحمد شلبي : المكتبة الإسلامية لكل الامتاز
(١٠٠ جزء)
- ١٨ — دكتور أحمد شلبي : سلسلة مقارنة الأديان (٤ أجزاء)
- ١٩ — دكتور أحمد شلبي : المناهج الإسلامية
- ٢٠ — دكتور أحمد شلبي : الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره
- ٢١ — دكتور أحمد شلبي : السياسة في الفكر الاسلامي
- ٢٢ — دكتور أحمد شلبي : الاقتصاد في الفكر الاسلامي
- ٢٣ — دكتور أحمد شلبي : الحياة الاجتماعية في الفكر الاسلامي
- ٢٤ — دكتور أحمد شلبي : المجتمع الاسلامي
- ٢٥ — البلاذري : فتوح البلدان

- ٢٦ — ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة
 ٢٧ — ابن تيمية : الحسبة
 ٢٨ — الجبرتى : العجائب والآثار
 ٢٩ — ابن جبير : الرحلة
 ٣٠ — ابن حجر : الاصابة
 ٣١ — ابن حزم : المحلى
 ٣٢ — دكتور حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الاسلامية
 ٣٣ — ابن خلدون : المقدمة
 ٣٤ — ابن خلدون : العبر
 ٣٥ — ابن رشد : بداية المجتهد ونهاية المقتصد
 ٣٦ — ابن شداد : سيرة صلاح الدين
 ٣٧ — Roland Oliver : A Short History of Africa
 ٣٨ — الزبير بن بكار : أيام العرب
 ٣٩ — Stanley Lane - Poole : Egypt in the Middle Ages
 ٤٠ — السلوى : الاستقصا لآخبار المغرب الأقصى
 ٤١ — سيد سابق : عناصر القوة فى الاسلام
 ٤٢ — دكتور سيد عبد الله حسن : المقارنات التشريعية
 ٤٣ — شاهنشاه بن أيوب : ذيل النوادر
 ٤٤ — الشوكانى : نيل الاوطار
 ٤٥ — الطبرى : تاريخ الأمم والملوك
 ٤٦ — عباس محمود العقاد : عبقرية محمد
 ٤٧ — المستشار عبد الحليم الجندى : المنهج الاسلامى
 ٤٨ — عبد الحى الكتانى : القرايب الادارية
 ٤٩ — ابن عديده : العقد الفريد
 ٥٠ — عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة
 ٥١ — عبد الرحمن بن محمود : مجمع الانهر فى شرح ملتقى الأبحر
 ٥٢ — عبد الرؤوف عون : الفن الحربى فى صدر الاسلام
 ٥٣ — عبد الله غوشة : الجهاد طريق النصر

- ٥٤ — دكتور عمر كمال توفيق : الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات
السلبية مع الصليبيين
- ٥٥ — الامام على كرم الله وجهه : نهج البلاغة
- ٥٦ — الممرى : مسالك الأبصار
- ٥٧ — غوستاف لوبون : حضارة العرب
- ٥٨ — ابن الفراء : رسل الملوك
- ٥٩ — غريديك : تاريخ شرق الأردن وقبلها
- ٦٠ — الفيروز ابلدى : بصائر ذوى التمييز فى لطائف
الكتاب العزيز
- ٦١ — الطقشندى : صبح الاعشى .
- ٦٢ — ابن القيم : السياسة الشرعية فى اصلاح الزراعى
والرعية
- ٦٣ — ابن القيم : زاد المعاد
- ٦٤ — ابن القيم : الطرق الحكيمة فى السياسة الشرعية
- ٦٥ — Kirk : A Short History of the Middle East :
- ٦٦ — Mugannam : The Arab Wowan :
- ٦٧ — الماوردى : الاحكام السلطانية
- ٦٨ — الشيخ محمد ابو زهرة : تنظيم الاسلام للمجتمع
- ٦٩ — الشيخ محمد ابو زهرة : العلاقات الدولية فى الاسلام
- ٧٠ — الشيخ محمد عبده : الاسلام والمسلمون
- ٧١ — محمد عبد السلام الرامبورى : فلسفة الهند القديمة
- ٧٢ — محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية
- ٧٣ — محمد هاشم عطية : الادب العربى وتاريخه
- ٧٤ — الامام محمود شلتوت : الاسلام والعلاقات الدولية
- ٧٥ — الامام محمود شلتوت : الاسلام عقيدة وشرعة
- ٧٦ — المتريزى : الخطط
- ٧٧ — المتريزى : السلوك

ملحق السلوك :	٧٨ — المقرئى
مجمع الأمثال :	٧٩ — الميدانى
النهرست :	٨٠ — ابن النديم
تهذيب الاسماء :	٨١ — النووى
مختصر فى سياسة الحروب :	٨٢ — الهرمى
Christianity and Islam in Spain :	٨٣ — Haine's
السيرة :	٨٤ — ابن هشام
شرح فتح القدير :	٨٥ — ابن الهمام الحنفى
فتوح البلدان :	٨٦ — الواقدى
تصة الحضرة :	٨٧ — ول ديورانت
Islam in Modern History :	٨٨ — Welfred Cantwell
الفراج :	٨٩ — يحيى بن آدم
الفراج :	٩٠ — أبو يوسف

رقم الايداع ٤٢٩٠ لسنة ١٩٨٧
مطابع سجل العرب

ISLAMIC
INSTITUTIONS AND CIVILIZATION

9



دكتور أحمد شلبي

International Relations
as Suggested by Islam

BY

AHMAD SHALABY,

B. A. (Hon.) Cairo University,

Ph. D. Cambridge University,

Professor

of Islamic History and Civilization

Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Fifth Edition (1987)

Published by:

THE RENAISSANCE BOOKSHOP

9 Adly Street, Cairo.

- تلقى دراساته في الأزهر وفي كلية دار العلوم (جامعة القاهرة) وفي جامعة لندن وجامعة كمبردج .
- زار الولايات المتحدة الأمريكية كما زار أكثر دول أوروبا وآسيا وأفريقيا ، ومثل مصر في عدة مؤتمرات دولية .
- درس مجموعة من اللغات الأجنبية ويجيد الانجليزية والاندونيسية .
- اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة استاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية - وقد حاضر - منتدبا وزائرا ومعارا - في جامعة الأزهر ، وعين شمس ، واندونيسيا ، والسودان ، وماليزيا ، والمملكة العربية السعودية ، وليبيا ، وفي معهد الدراسات الاسلامية ، ومعهد البحوث والدراسات العربية ، ومعهد الدراسات انديولوجاسية .
- مؤلفاته - غير المكتبة الاسلامية - تزيد عن خمسين كتابا ظهرت الطبعة العشرون من بعضها ، واهم هذه المؤلفات :
 - ١ - موسوعة التاريخ الاسلامي في عشرة اجزاء .
 - ٢ - موسوعة الحضارة الاسلامية في عشرة اجزاء .
 - ٣ - مقارنة الاديان في أربعة اجزاء .
 - ٤ - كيف تكتب بحثا او رسالة .
 - ٥ - المكتبة الاسلامية لكل الاعمار :
- ١٠٠ جزء من السير والتاريخ وقصص القرآن ، للأولاد والشبان والسيدات والرجال .
- ٦ - ISLAM : Belief Legislation Morals
- ٧ - History of Muslim Education
- كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية ، وترجمت أكثر مؤلفاته الى الوردية والتركية ، والاندونيسية والماليزية والفرنسية والفارسية .